محمّد علي مكّي

لبنان ٦٣٥ - ١٥١٦

من الفتح العربي إلى الفتح العثماني



دار النهار



الطبعة الخامسة، كانون الثاني 2006

ص ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-561693

darannahar@darannahar.com

ISBN 9953-74-087-9

مقــــدمة

لبنان وكتابة تاريخه

١) المفهوم الجغرافي للبنان في التاريـــــخ .
٢) اهمال المرحلة الوسيطة من تاريخ لبنان .
٣) اهمال تأريخ المناطق اللبنانية والاكتفاء بتاريخ جبل لبنان.
٤) التأريخ الطائفي والتأريخ الوطني .
٥) الموضوعية والمعاناة .

١ – المفهوم الجغرافي للبنان في التاريخ

تكوّن لبنان – الدولة – بكيانه المستقل وبحدوده الجغرافية الحالية في سنة ١٩٢٠ على يد السلطة الفرنسية الحاكمة . فاصبحت الحدود السياسية الرسمية للدولة الجديـــدة – لبنان الكبير – تمتد من النهر الكبير في الشمال إلى رأس الناقورة في الجنوب ومن شاطىء البحر المتوسط إلى مقاسم المياه في اعالي جبال لبنان الشرقية .

وقبل هذا التحديد الجغرافي للبنان ، كانت المناطق اللبنانية موزعةبين متصرفية جبل لبنان وولاية بيروت وولاية دمشق ،

وذلك منذ الفتن الطائفية التي عرفتها المنطقة في سنة ١٨٦٠ ميلادية . وقبل ذلك كانت الامارات الاقطاعية اللبنانية تتسع وتضيق حسب الظروف ومطامع الامراء والولاة ، فلم يكن للبنان كيان سياسي ، كما لم يكن للبنان حدود سياسية واضحة . وقد نجم عن هذه الحقيقة انه لم يكن للبنان تاريخ سياسي مستقل عبر العصور الوسيطة او الحديثة .

واليوم بعد ان اصبح لبنان تعبيراً سياسياً محدداً ، ولم يعد مجرد تعبير جغرافي كما ورد في اسفار التوراة ، نجد انفسنا ، عند كتابة تاريخ لبنان ، في حيرة من تحديد الاطار الجغرافي المناسب للفترات التاريخية المختلفة . ذلك اننا اذا اعتمدنا الحدود الحاضرة للبنان حدوداً تاريخية لمختلف الازمنة الماضية فاننا نشوّه بذلك تاريخ المناطق اللبنانية . فعكار مثلاً يتسع في بعض الحقب التاريخية والازمنة الماضية إلى مدينة جبلة في سوريا كما كان الامر في عهد بني عمار في طرابلس ؛ وجبل عامل في الجنوب كان يتسع في بعض الاوقات ويشمل جزءاً كبيراً من الجليل الفلسطيني والحولة .

لذلك وحتى لا يتشوه تاريخ لبنان اعتمدت تحديدات جغرافية مختلفة وفقاً لنشاط وحيوية سكان المناطق اللبنانية ، لان التاريخ هو في النهاية عمل الانسان حينما وجد . وخارطات لبنان في الحقب التاريخية المختلفة تعبّر عن تلك التحديدات المذكورة .

٢ – اهمال المرحلة الوسيطة من تاريخ لبنان

ان المرحلة الوسيطة من تاريخ لبنان الممتدة من الفتح الاسلامي إلى الفتح العثماني (٦٣٥ – ١٥١٦) والتي تشمل

حوالي تسعة قرون من الزمن ، اهملت الكتابة عنها اهمالاً مستغرباً ومستهجناً ، اذا ما قسنا ذلك بما كتب عن تاريخ لبنان الفينيقي ، وما كتب عن تاريخ لبنان الحديث . وإذا وجدنا عذراً للمؤرخين في القرون الوسطى انهم لم يكتبوا تاريخ لبنان الوسيط ، لانهم كانوا يكتبون عن الدول والعواصم ويلحقون باخبار الخلفاء والملوك ، فاننا لا نجد عذراً للمؤرخين اللبنانيين في العصور الحديثة في هذا الاهمال لتاريخ لبنان في العصور الوسيطة .

ونعترف بصعوبة الكتابة والتفتيش عن اخبار المناطق اللبنانية المبثوثة بندارة في بطون الاصول التاريخية ، لكن تلك الصعوبة لا تبرر هذا الاهمال الذي يؤدي إلى منع توضيح الترابط التاريخي بين حاضر لبنان وماضيه القريب والبعيد . وقد نجم عن هذا الاهمال ان كثيرين ممن عنوا بتاريخ لبنان صاروا يربطون مباشرة ما بين تاريخ لبنان الحديث وتاريخ لبنان القديم قافزين فوق حقبة زمنية ضخمة زمنها تسعة قرون ، وفي ذلك مسخ للتدرج التاريخي ولحقيقة التكوين الاجتماعي والديني للشعب اللبناني .

ان الفترة الوسيطة من تاريخ لبنان هي التي توضح تنوع السكان في لبنان وتكوّن الكيانات السياسية والاقطاعية المختلفة وتمركز المذاهب الدينية المتنوعة في ارجاء لبنان . هذه الفترة الوسيطة هي الاساس الذي لا يستغنى عنه في فهم تكوين لبنان الحالي ، وأي اهمال في دراستها يؤدي إلى التخبط في فهم تاريخ لبنان الحديث والمعاصر .

ومن هذا المنطلق ، وسدا للحاجة العلمية ، كان تأليف هذا الكتاب .

٣ – اهمال تاريخ المناطق اللبنانية والاكتفاء بتاريخ جبل لبنان

ومن المآخذ الوطنية التي تؤخذ على معظم المؤرخين في عصرنا الحاضر انهم ركزّوا معظم دراساتهم وكتاباتهم على المنطقة المتوسطة من لبنان التي هي جبل لبنان ، وأهملوا تاريخ المناطق اللبنانية الباقية كالبقاع والشمال وبيروت والجنوب .

ولعلّ السبب هو ان جبل لبنان حصل في القرن التاسع عشر على نظام خاص هو المتصرفية ، فنظمّ لنفسه تاريخاً وجعل لذلك التاريخ حدوداً جغرافية هي حدود المتصرفية . ولكن لبنان الجديد الذي ولد بحدوده الحاضرة سنة ١٩٢٠ ضمّ جبل عامل والبقاع وطرابلس وعكار وبيروت . هذا الضم او الالحاق لم يكن مزجاً بين المناطق ، فقد كان لمتصرفية جبل لبنان كيان سياسي سابق وله مدارسه وتاريخه ونظمه ومؤسساته ، وله فوق ذلك حكومته وادارته ، فلما تم الحاق المناطق الباقية وقد سميت بالفعل ملحقات ، لم يتغير من الوضع شيء تقريباً ، اذ ظلّت اسس الكيان اللبناني على حالها السابقة. والذي تغير بالفعل هو مساحة الدولة إذ اتسعت المتصرفية وصارت لبنان الكبير .

لقد كان الاتساع جغرافياً ، اما من حيث التاريخ فقد فرض على المناطق الملحقة تاريخ جبل لبنان فقط ، وحرمت الملحقات من درس تاريخها ، او من درس التاريخ الوطني المشترك .

فنشأت بعد الاستقلال اجيال لا تعرف شيئاً عن مناطقها وعن تاريخها ، ولكنها تعرف كل شيء عن تاريخ جبل لبنان لذلك حدث عند هذه الاجيال ضعف في المواطنية وغموض في فهم معنى المصير المشترك .

٤ – التاريخ الطائفي والتاريخ الوطني

ان معظم كتبة التاريخ في لبنان اعتمدوا ويعتمدون التأريخ الطائفي وليس التأريخ الوطني . فقد كتبوا تاريخ طائفة من الطوائف لابرازها ممثلة للوطن كله وغامطة حق بقية الطوائف . وبدأ التسابق الطائفي في كتابة التأريخ الطائفي . وكثيراً ما يعمد بعض المؤرخين بدافع من عصبية دينية او عرقيـــة إلى المبالغات او حتى إلى اختلاس الحقائق التاريخية واعطائها بكل بساطة وجرأة لغير اصحابها .

وفي هذا الجو من التسابق في تشويه التاريخ ، يضيع التاريخ الوطني ، وتزوّر الحقيقة التاريخية فيصبح المواطن اللبناني في اهتزاز وطني دائم .

ان احداً لا ينكر الحق العلمي بكتابة تاريخ طائفة ما ، او بلدة أو مدينة ، او منطقة ، طالما ان ذلك هو في حدود العلم والتجرد ، اما وقد افلت الامر كما نرى ، فلا بدّ من الانكباب على العمل لانقاذ التاريخ الوطني من الاجتياح الطائفي الذي نعانيه كل يوم .

٥ – الموضوعية والمعاناة

لم يوضع هذا الكتاب لمصلحة طائفة من الطوائف او منطقة من المناطق اللبنانية ، بل توخى مؤلفه الجانب الوطني والجانب

العلمي . اما الجانب الوطني فيظهر في محاولة كتابة تاريخ لبنان كل لبنان والتفاعل ما بين عناصر سكانه وتطور ذلك التفاعل .

اما الجانب العلمي فيظهر في النقاط التالية :

أ – عدم اعتماد فكرة مسبقة او فلسفة معينة في وضع هذا الكتاب يرمي منها إلى تحقيق وجهة نظر معينة .

ب – عدم الاخذ بطريقة اختيار الحقائق التاريخية المفردة لصالح الفكرة المسبقة ، بل الاعتماد على جميع الحقائق المفردة وبناء الكتابة التاريخية منها .

ج – اعتماد الموضوعية اسلوباً في تحري النصوص والوصول إلى الحقيقة ، ولو ادت تلك الموضوعية إلى نتائج مخالفة للقناعة المسبقة . وكثيراً ما سببت هذه الموضوعية معاناة نفسية لتصادمها مع بعض القناعات التاريخية المغايرة لها .

وكان القصد اخيراً من وضع هذا الكتاب محاولة ان يكون بين ايدي المواطنين كتاب تاريخي موضوعي يجمع الحقائق التاريخية بدون انتقاص منها ولا تحيزّ ولا تلوين لرأي او مذهب ، ولسد الفراغ في المكتبة التاريخية لفترة مهمة جداً من تاريخ لبنان هي الفترة الوسيطة . فالى الوطن الحبيب – لبنان الجديد – اهدي هذا الكتاب .

هذا هو القصد وعلى الله الاتكال .

بيروت في نيسان ١٩٧٧

محمد علي مكي

الفصل الاول

لبنان قبيل الفتح العربي

١) الوضع السياسي والتقسيمات الادارية في مطلع القرن السابع الميلادي .

٢) انواع السكان في لبنان في مطلع القرن السابع الميلادي .

٣) الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مطلع القرن السابع الميلادي .

* * *

١ – الوضع السياسي والتقسيمات الادارية في مطلع القرن السابع الميلادي

كان لبنان موزعاً قبل الفتح العربي ، بين عمالتين : عمالة فينيقيا الساحلية، وتعرف باسم فينيقيا الاولى، وعمالة فينيقيا اللبنانية وتعرف باسم فينيقيا الثانية او الداخلية، والعمالتان تتبعان ولاية سوريا الثانية. اما اسم لبنان فلم يكن اكثر من تعبير جغرافي يطلق على الجبال الغربية من البقاع المشرفة على البحر وبالتالي فلم يكن له مدلول سياسي معين.

اما فينيقيا اللبنانية فكانت تشمل منطقة البقاع وحمص ودمشق وتمتد حتى تدمر ، ولا تدخل المناطق الساحلية اللبنانية فيها ، وكان مركزها في البدء في حمص ، ثم انتقل المركز بعد ذلك إلى دمشق ، فلما فتح لبنان كانت دمشق هي مركز هذه العمالة .

واما فينيقيا الساحلية فكانت تشمل الساحل اللبناني والجبال الغربية المطلة عليه ، وتصل إلى عكا جنوباً وإلى جبلة شمالاً . اما مركزها السياسي فكان مدينة صور .

وكان الحكم المحلي بأيدي قادة وحكام بيرنطيين يساعدهم الاهالي الوطنيون في الجندية والوظائف المختلفة الصغرى . اما المراكز العسكرية فكانت قيسارية في فلسطين ، ودمشق وحمص ، بينما كانت طرابلس وصيدا وصور مراكز للاسطول البيزنطي . ويلاحظ تدهور مركز بيروت بسبب الزلازل في القرن السادس الميلادي .

وكان الجميع من عسكريين ومدنيين وحكام يتبعون الحاكم البيزنطي العام الذي يتخذ انطاكية عاصمة له . وقد تعرضت البلاد لكثير من الاضطرابات السياسية في الربع الاول من القرن السابع الميلادي بسبب الحروب الفارسية البيزنطية واحتلال فارس لها مدة من الوقت إلى قبيل الفتح العربي أي حتى سنة ٦٢٨ ميلادية .

٢ — انواع السكان في لبنان في مطلع القرن السابع الميلادي

كان سكان لبنان قبيل الفتح العربي مزيجاً من شعوب مختلفة . فاما القاعدة الاساسية فكانت من بقايا الكنعانيين (الفينيقيين) والآراميين، وقد عرفوا فيما بعد باسم موحد لهما وهو السريـــان . وقد اطلق العرب

عليهم اسم الانباط بعد فتح البلاد بالرغم من أنّ الانباط من حيث الاصل يختلفون عنهم .

ويضاف إلى هذه القاعدة السريانية الكبرى بقايا من العناصر اليونانية والرومانية التي استوطنت لبنان بحكم السيطرة اليونانية والرومانية . ولكن هذه الاقلية من اليونان والرومان لم تكن من سكان القرى بل كانت تتمركز اجمالاً في المدن الساحلية ، وفي بعلبك .

ويضاف إلى السكان كذلك جماعات كثيرة من الارمن استوطنت في المدن اللبنانية منذ احتلال الارمن للبلاد قبيل الميلاد ، ثم من جراء خدمة الارمن في الجيوش البيزنطية في انحاء سوريا ولبنان .

ويضاف كذلك إلى المجموعة البشرية في لبنان العنصر الفارسي الذي قدم إلى لبنان قبل الحروب الفارسية البيزنطية في الربع الاول من القرن السابع الميلادي واثناء هذه الحروب . وقد ورد ذكر الفرس في عداد السكان في بعلبك بوضوح في العهد الذي أعطاه ابو عبيدة بن الجراح لاهالي بعلبك حين احتلها . هذا بالاضافة إلى مجموعة من القبائل العربية القديمة كالايطوريين الذين اتخذوا مدينة عنجر (خلقيس) عاصمة لهم وبسطوا حكمهم مدة طويلة على جنوبي لبنان والبقاع وعكار وطرابلس وبعض المناطق الجبلية ، وظلوا أسياداً في لبنان حتى انتزع الحكم منهم القائد الروماني بومبيوس حين فتح لبنان . ثم الانباط الذين كانت دولتهم في البدء في جنوبي الاردن ثم توسعوا شمالاً فبسطوا حكمهم على جنوبي لبنان ، ومن آثارهم الاسمية : النبطية في الجنوب . وقد اشتهر الانباط باعمال الري والحفر والفلاحة ، حتى ان العرب فيما بعد كتبوا كثيراً عن فنون الفلاحة النبطية . ونظرا لشهرتهم وانتشارهم ، فقد عمم العرب

اسم الانباط على مجموعة السكان القديمة في لبنان وسوريا ، فجعلوا كل وطني نبطياً .

هذا بالاضافة إلى بعض القبائل العربية ، اليمنية الاصل كقبيلة عاملة التي اقامت في جنوبي لبنان وأعطت اسمها لتلك المنطقة : جبل عاملة او جبل عامل وهو الاسم الذي ما يزال يطلق عليها إلى وقتنا الحاضر . جاء في تاريخ ابي الفدا :

« واما بنو عاملة فهم ايضاً من القبائل اليمانية التي خرجت إلى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة . » (ج ١ — ص ١٠٤) .

ويذكر اليعقوبي ، كندة وقيس وكنانة ولخم وجذام وعاملة أنها اقامت في نواحي فلسطين وفي غربي الشام .

من كل ذلك يمكننا القول بأن سكان لبنان قبيل الفتح العربي كانوا مزيجاً من انواع السكان المذكورين . أما من حيث اللغة ، فان السريانية كانت سائدة في وسط الشعب ، بالاضافة إلى اليونانية أو الرومية (اللغة البيزنطية الرسمية) في وسط الطبقة الحاكمة . أما العربية والفارسية فكانتا محصورتين في أوساط الجاليات الفارسية والقبائل العربية .

٣ — الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مطلع القرن السابع الميلادي

تعرض لبنان في الثلاثة ارباع القرن السابقة للفتح العربي إلى ثلاث مصائب : الزلازل ، والصراعات المذهبية ، والحروب الفارسية البيزنطية ، فأدت هذه الكوارث المتلاحقة إلى القضاء على الكثير من سكانه ، وبخاصة سكان السواحل . وقد ورد قول لليعقوبي في كتاب البلدان « ان الخليفة معاوية لما فتح بلاد الشام وجد مدنها الساحلية فارغة

من السكان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكنا ، وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا ، بل وخصص بذلك أيضاً بعلبك وعرقة في بلاد عكار (راجع تسريح الابصار للامنس ج ٢ صفحة ٤٨) . ولكن قلة السكان هذه يمكن ان نعزوها بالاضافة إلى تأثير الكوارث الثلاث المذكورة ، إلى النزوح الواسع النطاق الذي قام به كثير من الاهالي والقبائل من سوريا ولبنان وفلسطين نحو بيزنطية لاحقين بقوات البيزنطيين ، وذلك على أمل العودة فيما بعد مع الجيش البيزنطي . فأدى هذا النزوح إلى تفريغ كبير للمدن الساحلية والداخلية من سكانها .

اما المناطق الجبلية فكانت اجمالاً قليلة السكان ، ولم يكن اللبنانيون يقيمون الا في الوسوط الجبلية او سفوحها ، قال الاب لامنس في كتابه تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من آثار (ج ٢ صفحة ٢٩) :

« فان تخطينا الآن إلى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع ، وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد بظهور المردة والموارنة الذين لعبوا دوراً مهماً في تطوراته المختلفة . وكان قبلهم لم يفلح منه الا ساحله ووسوطه بعد تجردها من غاباتها . أما لبنان الاعلى والجرد منه ، فانه لم يزل قفراً خالياً من السكان » ويبدو في قول الاب لامنس شيء من المبالغة ، اذ ان اسطرابون ، من القرن الاول للميلاد أشار إلى : « أن أعالي لبنان كصنان وبورمة يأوي اليها قوم من اللصوص وقطاع الطرق.» مما يدل على سكنى المناطق المرتفعة من لبنان ولو كان الساكنون من اللصوص وقطاع الطرق على حد تعبيره .

وبالاضافة إلى ذلك نلاحظ مجموعة كبيرة من الآثار الرومانية والبيزنطية في أعالي جبال لبنان الغربية ومنها قلاع عسكرية وهياكل

عبادة وثنية وبعضها تحول إلى كنائس وذلك في كفرسلوان وبسكنتا وكفرذبيان (قلعة فقره) وافقا والعاقورة والمشنقه ودوما وبزيزا. هذه الآثار تثبت ان المناطق المرتفعة في جبال لبنان كانت مأهولة نوعاً ما.

وقد ورد كذلك عند الواقدي ان قوة عربية كان خالد بن الوليد قد أرسلها من البقاع إلى بيروت تعرضت لهجوم من قوم من الروم فنزلوا عليهم من عقبة بيروت وقضوا عليهم عند عين ميسنون، فعرفت العين بعد ذلك باسم عين الشهداء (عين ميسنون ربما هي في اسفل الوادي شرقي سوق الغرب وكيفون الواقعتين في الشرق الجنوبي من بيروت).

يستدل من كل ذلك ان الاعالي لم تكن قفراً، وانما يمكن القول بأن السكان الجبليين كانوا أقلية ضئيلة فيها. اما من الناحية الاقتصادية فان الازدهار الكبير الذي عرفه الساحل اللبناني قبيل منتصف القرن السادس الميلادي بسبب التجارة والصناعة والعلوم قد تضاءل كثيراً اثر موجة الزلازل التي اكتسحت المدن اللبنانية والقرى، فقد ذكر ان بيروت بمفردها قتل فيها قرابة ثلاثين ألف نسمة، وتهدمت معالمها الحضارية ومدارسها الشهيرة ثم جاءت سلسلة الحروب الفارسية البيزنطية في اواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع لتجعل الفوضى سائدة وتساعد على المزيد من التدهور الاقتصادي. وفي ذلك يقول المؤرخ السرياني Jean d'Ephése بأن فترة أواخر القرن السادس هي نهاية العالم (التاريخ الكنسي).

واذا ما اضفنا المنازعات الدينية العميقة والدموية التي حصلت بين المنادين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح والمنادين بالطبيعتين، وموقف الدولة البيزنطية والمجمع الخلقيدوني الذي حرّم القول بالطبيعة الواحدة

ونادى بالطبيعتين علماً بان المنادين بالطبيعة الواحدة كانوا اهالي سوريا ولبنان وفلسطين ما عدا قلة ضئيلة بينهم تبعت الدولة وقالت بالطبيعتين وهي طائفة الموارنة، لرأينا إلى أية حالة يائسة كانت عليها البلاد قبيل الفتح العربي. ان خطورة هذه المنازعات الدينية وصلت إلى مجازر ارتكبها اليعاقبة أصحاب القول بالطبيعة الواحدة بالطائفة المارونية التي اضطر رهبانها إلى النزوح من مناطق حوض العاصي في سوريا إلى مختلف المرتفعات الصعبة للاحتماء بها من الاعتداء، ومنها المرتفعات اللبنانية الشمالية.

لقد كانت معظم القبائل العربية في سوريا ولبنان وفلسطين تقول بالطبيعة الواحدة، وبخاصة قبيلة الغساسنة التي كانت اقوى القبائل واكثرها عدداً. وعرفت هذه الدعوة الدينية باسم منظمها يعقوب البرادعي الذي دعا إلى جمع وبعث الدعاة القائلين بالطبيعة الواحدة سنة ٥٤٣ ميلادية بمساعدة خفية من الامبراطورة تيودورا زوجة الامبراطور يوستنينانوس، بعد أن كان الامبراطور المذكور قد شتت هؤلاء الدعاة وحاربهم في مجمع القسطنطينية سنة ٥٣٦ م. وأدّى الضغط المذكور إلى تشجيع القائلين بالطبيعتين من السوريين وهم مؤسسو المذهب الماروني. لقد اضطهدت الدولة البيزنطية هذه الجماعات اليعقوبية والقبائل العربية مما جعل بين الفريقين عداوات عميقة ظهرت نتيجتها عند الفتح العربي، فلم تقدم هذه القبائل مساعدة تذكر للدولة البيزنطية.

ثم جاء الاحتلال الفارسي لسوريا ولبنان وفلسطين فانقطع ما بين السكان في لبنان والدولة البيزنطية من صلات وولاء: فشعرت الفئات المؤمنة بالطبيعة الواحدة بارتفاع الضغط عنها، بسبب الحكم الفارسي

وتشجيعه لهـــا ، فقد دعا كسرى ابرويز عام ٦١٤م إلى مجمع مسيحي في قصره ، حضره بنفسه، وأيدّ فيه أصحاب القول بالطبيعة الواحدة . ويبدو أن هذا التحالف الفارسي مع القائلين بالطبيعة الواحدة من السوريين ، قد جرّ على القائلين بالطبيعتين من السوريين (الموارنة خاصة) مآسي كثيرة واضطهادات جعلتهم يلتجئون إلى المرتفعات الصعبة، ومنها جبال لبنان الشمالي . ولكنّ الصورة تغيّرت تماماً بعدما استردّ الامبراطور البيزنطي هرقل البلاد السورية من أيدي الفرس سنة ٦٢٨ ، وإعادة عود الصليب إلى بيت المقدس . إن هذا الانتصار العظيم للبيزنطيين على الفرس ، لم يفهمه المسيحيون اليعاقبة السوريون إنتصاراً مسيحياً ، لأنهم فهموا هذا الانتصار على أنه مقدمة لعودة الاضطهاد الديني البيزنطي التقليدي لجميع القائلين بالطبيعة الواحدة . ولقد ذكر ابن العبري في تاريخه عن أخبار سنة ٦٣٠ ميلادية ما يلي : « إن رهبان مارون في منبج وحمص والبلاد الجنوبية ، أبدوا قسوة شديدة ، فاستولوا على معظم الكنائس والاديار التي لليعاقبة . ولما كان جماعتنا يتشكون إلى هرقل الملك لم يكن يجيبهم ؛ على أن اله النقمة أرسل العرب لكي يخلصنا من الروم . ومع ذلك لم ترد علينا كنائسنا ، بل بقي لكل فريق ما كان بيده ، ولكننا نجونا من ظلم الروم وبغضهم لنا . » (تاريخ الموارنة — الأب ضو — ج ٢ — ص ٢٤٢) .

وقد حاول الامبراطور هرقل التخفيف من هذا العداء العميق بين المنادين بالطبيعة الواحدة والمنادين بالطبيعتين باعلان فكرة المشيئة الواحدة في السيد المسيح وذلك سنة ٦٣١ ميلادية ، ولكن هذه الفكرة التوفيقية لم تنجح لدى الفريقين المتنازعين ، بل زادت في تعميق الازمة ؛ كما

أن الدولة البيزنطية لم تأخذ بحسابها المتغيرات الكثيرة التي حدثت في البلاد السورية خلال السيطرة الفارسية السابقة عليها ؛ ولم تنتبه الانتباه الكافي إلى التطور الكبير الذي حدث في الجزيرة العربية بظهور الاسلام والذي أدّى بعد سنوات قليلة أي ابتداء من سنة ٦٣٤ ميلادية إلى انتزاع المنطقة بكاملها من أيدي البيزنطيين ، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة في تاريخ لبنان وتاريخ المنطقة .

الفصل الثـاني

فتح المناطق اللبنانية

(٦٣٤ — ٦٣٩)

١) اهتمام المسلمين بتأمين المناطق الداخلية السورية .
٢) العرب المسلمون في البقاع .
٣) فتح بعلبك .
٤) فتح المدن الساحلية .
٥) سقوط طرابلس .
٦) الموقف من الجبل .
٧) الانسحاب الشعبي مع البيزنطيين .
٨) النتائج السريعة لفتح لبنان : نقل السكان وبناء الاسطول.

* * *

١ — اهتمام المسلمين بتامين المناطق الداخلية السورية

أمضى العرب المسلمون حوالي ثلاث سنوات ، وهم يحتلون المناطق الفلسطينية والاردنية والسورية، قبل ان يصلوا إلى المناطق اللبنانية. ذلك ان

البيزنطيين قاتلوا ودافعوا عن ولاياتهم السورية بكل امكانياتهم . وبالرغم من تغلغل العرب في نواحي سوريا ووصولهم إلى شمالي البلاد ، فان هرقل امبراطور بيزنطية لم ييأس،وأرسل مجدداً قوة كبيرة لانتزاع البلاد من أيدي الفاتحين . ولكن معركة اليرموك كانت فاصلة ، وأنهت السيطرة البيزنطية نهائياً في المنطقة وذلك في ٢٠ آب ٦٣٦ ميلادية .

ان اهتمام العرب المسلمين بالمناطق الداخلية كان ضرورياً لهم،لارتباطهم بقاعدتهم الاساسية : الحجاز ، بالاضافة إلى ان الصحراء والبادية كانتا دائماً تمثلان الخط الدفاعي بالنسبة اليهم ، فرأوا ان لا يتوغلوا بعيداً عن الصحراء ، الا بعد الاطمئنان على وضعهم في الداخل . وكذلك كان للاسطول البيزنطي دور كبير في حماية السواحل من جهة ، وفي تدعيم الحاميات البيزنطية القريبة من السواحل .

ولا بد من الاشارة إلى الكثير من الغموض الذي يكتنف تاريخ الفتح العربي للبنان ، وغموض الاخبار التي دوّنت عن هذا الموضوع ، ونشير كذلك إلى ضعف بعض الروايات بتها كأخبار الواقدي ؛ ولكن ذلك لا يمنع من ذكرها حفاظاً على الامانة التاريخية .

٢ — العرب المسلمون في البقاع

ان القادة المسلمين الذين تولوا فتح المناطق اللبنانية ثلاثة هم : ابو عبيدة بن الجراح الذي كان القائد العام ، وخالد بن الوليد الذي كان يقوم بدور القائد العام ، ويزيد بن ابي سفيان بمعاونة اخيه معاوية ، والذي تولى بعده القيادة . أما ابو عبيدة فكان عليه أن يحتل البقاع سنة ٦٣٥ ، وذلك لان البقاع يشكل الطريق الطبيعية لمرور الجيوش من

الشمال في سوريا إلى الجنوب في فلسطين ، خصوصاً عندما وردت الاخبار إلى القيادة العربية أن هرقل يهيىء جيشاً كبيراً لاستعادة البلاد .

وتوجه القواد الثلاثة إلى لبنان فأخذ يزيد بن أبي سفيان يعمل على احتلال جنوب لبنان ، بينما اندفع خالد بن الوليد إلى الشمال لاحتلال حمص من جهة واحتلال عكار ومنطقة طرابلس من جهة ثانية .

ويذكر الواقدي ان ابا عبيدة بن الجراح اسر القوافل الرومية التي كانت تنقل المؤن من صور وصيدا إلى بعلبك اثناء مرورها في البقاع ، كما ان خالد بن الوليد بعث بسرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون ، وعلى الروم رجل يقال له سنان تحدر على المسلمين من عقبة بيروت ، فقتل منهم جماعة من الشهداء ، فكانوا يسمون عين ميسنون عين الشهداء (عين ميسنون ربما هي التي تقع شرقي سوق الغرب وكيفون في منطقة عاليه في لبنان) .

وذكر الواقدي رواية مستهجنة عن أن ابا عبيدة أرسل اثناء وجوده في البقاع محاصراً لبعلبك فرقة من جنده بقيادة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لاحتلال « حصن ابي القدس » (مجهول) ما بين عرقا وطرابلس وكان الاهالي يقيمون فيه سوقاً عظيمة للتبادل التجاري في أعياد الفصح وانه جرت معارك شديدة حول هذا الحصن كادت تنقلب على المسلمين لولا نجدة من خالد بن الوليد مكنتهم من الانسحاب من تلك المنطقة. وانه اشترك في هذه الغزوة ابو ذر الغفاري الصحابي المشهور وضرار بن الازور .

٣ — فتح بعلبك

كانت بعلبك دائماً مفتاحاً للبقاع وبوابة لسوريا الشمالية على الجنوب، ولفلسطين على الشمال . وقد ضرب ابو عبيدة بن الجراح الحصار عليها

ويذكر الواقدي في كتابه « فتوح الشام » انه كان على بعلبك قائد رومي اسمه هربيس ومعه سبعة آلاف جندي، فجرت معركة اولى بين الفريقين في سهل البقاع ، انهزم فيها الروم ودخلوا المدينة وحاصروا داخلها . فكتب اليهم ابو عبيدة كتاباً جاء فيه :

« ان كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم ، وتقدمة إلى كبيركم وصغيركم ، لانا قوم لا نرى في ديننا البغي ، وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم . وان دخلتم فيما دخل فيه الذين من قبلكم من الصلح والامان صالحناكم ، وان اردتم الذمام ذممناكم وان أبيتم الا القتال ، استعنا عليكم بالله وحاربناكم ، فاسرعوا بالجواب ، والسلام على من اتبع الهدى .

انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذّب وتولىّ . »

ولكن حامية بعلبك رفضت الجواب ، وشنت هجوماً قوياً على المسلمين ، واجبرتهم على الانكفاء والتراجع بعيداً عن بعلبك . ونظم ابو عبيدة قواته ، وفرقها على مداخل المدينة من الخارج ثم عاد الروم من بعلبك فهاجموا ثانية واوقعوا بالمسلمين خسائر كثيرة الا ان المسلمين تمكنوا من محاصرة القائد هربيس وحراسه ، فاضطر هذا القائد إلى طلب الصلح والامان مقابل دفع الفي اوقية ذهب وألفي اوقية فضة وألفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف . وقد اعطى ابو عبيدة لاهالي بعلبك عهد الامان التالي نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم . وللروم أن يرعوا سرحهم ما

بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ، ولا ينزلوا قرية عامرة. فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها . وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيداً . »

ومن الملاحظ ان هذه الرواية عن فتح بعلبك تفرد بها الواقدي ولم يذكرها غيره من المؤرخين ، خصوصاً البلاذرى ، الا ان العهد متفق عليه . ثم عين ابو عبيدة على بعلبك حاكماً من قبله هو رافع بن عبد الله السهمي ، وجعل معه حامية مؤلفة من تسعماية فارس من المسلمين وأمره ان لا يهاجم السواحل لصعوبة أخذها .

ان ما يستفاد من نص هذا العهد المعطى لاهالي بعلبك ، انه ذكر أنواع السكان الذين يقيمون في المدينة ، كما ان النص المذكور سمى كل من كان غير فارسي وغير عربي ، روميا ، مما يدل على أن المسلمين كانوا يطلقون هذه التسمية على الاكثرية من السكان . ومما يقوي هذا الرأي ان النص ذكر الروم مع رعي سرحهم ؛ والبيزنطيون لم يكونوا رعاة قط في لبنان وسوريا .

ويلاحظ كذلك ان العهد وقع مع اهالي بعلبك وليس مع الدولة البيزنطية مما يدل على انهيار كامل في الجانب البيزنطي ، وان المدن والمناطق اصبحت تحكم نفسها بنفسها بدون اشراف مباشر من الدولة ، بالرغم من ان البيزنطيين كانوا يستعدون لاعادة فتح البلاد ، وان كثيراً من مدن الساحل كانت ما تزال في يدهم .

٤ – فتح المدن الساحلية

كان ابو عبيدة قد عين يزيد بن ابي سفيان على دمشق وكلفه بفتح السواحل . فعمد يزيد بمعونة أخيه معاوية إلى احتلال بيروت سنة ٦٣٥ ثم احتل في السنة التالية سنة ٦٣٦ مدن صيدا وصور وجبيل وعرقة ، ولم تعرف الطريق التي سلكها للوصول إلى بيروت فهل كانت عبر الجبال ، من البقاع ، على غرار السرية التي كان من قبل قد ارسلها خالد بن الوليد وقضي عليها في عين ميسنون ، ام انها كانت عن طريق الساحل من الجنوب ؟ .

وقد ذكر البلاذري عن فتح هذه المدن فقال: «ان يزيداً بن ابي سفيان أتى بعد فتح دمشق، صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل، وعلى مقدمته اخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً ، وجلا كثيراً من اهلها وتولى فتح عرقة معاوية نفسه في ولاية يزيد . »

وذكر البلاذري كذلك في فتوح البلدان : « ان يزيداً بن ابي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق سوى طرابلس فانه لم يكن فيطمع فيها، فكان يقيم على الحصن اليومين والايام اليسيرة ، فربما قوتل قتالاً غير شديد ، وربما رمى ففتحها وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين ، فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سرّبوا اليها الامداد . »

ومن الملاحظ هنا ان البلاذرى لم يذكر مدينة صور في عداد المدن التي احتلها يزيد بن ابي سفيان واخوه معاوية بل ينسب البلاذرى ذلك إلى شرحبيل بن حسنة . كما ان الواقدي ينسب احتلال صور إلى خالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان .

اما الطبرى وابن الاثير فيسكتان عن أمر صور بالتخصيص ، كما ان ابن الاثير في كتابه «الكامل في التاريخ» يجعل سقوط الساحل اللبناني قد حدث قبل سقوط بعلبك بسنتين .

٥ – سقوط طرابلس

اما طرابلس فقد تهيب امرها المسلمون في البدء بسبب مناعتها وحماية الاسطول البيزنطي لها ، الا ان معاوية ضرب الحصار عليها سنة ٦٣٥ ولكنها امتنعت عليه ، واستمر الحصار عليها ولا يعرف تاريخ سقوطها بالضبط .

ويبدو من السكوت عن تحديد تاريخ سقوطها انها أخذت سلماً . ويذكر الواقدي حكاية غريبة عن سقوطها وخلاصتها ان قائداً من قادة الروم كان في حلب ، فلما سقطت حلب (سنة ٦٣٧) اسلم مع جنوده ، ثم اتفق مع ابي عبيدة وادعى لحاكم طرابلس انه جاء نجدة من البيزنطيين ، فلما دخل المدينة سيطر عليها وسلمها للمسلمين .

ان هذه الرواية على ضعفها تشير إلى سقوط المدينة بالامان وليس بالحرب ، ولكن ابن الاثير يذكر في كتابه الكامل في التاريخ (ج ٢ صفحة ٤٣١) رواية اخرى فيجعل المدينة تحت الحصار طيلة حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، ويقول :

«ان الروم غلبوا على بعض السواحل (بعد احتلالها) في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة واعطاهم القطائع . ولما ولي عثمان الخلافة وجمع لمعاوية الشام، وجه معاوية سفيان بن مجيب الازدى إلى طرابلس ، وهي ثلاث مدن مجتمعة ثم بنى في مرج على اميال منها حصناً سمي حصن سفيان وقطع

المادة عن اهلها من البر والبحر وحاصرهم . فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه ان يمدهم او يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها إلى الروم؛ فوجه اليهم بمراكب كثيرة ركبوا فيها ليلاً وهربوا . فلما اصبح سفيان ، وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ، ثم يغدو على العدو ، وجد الحصن خالياً ، فدخله وكتب بالفتح إلى معاوية ، فاسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود . »

فاذا اخذنا بقول ابن الاثير يكون سقوط طرابلس سنة ٦٤٤ اي في مطلع حكم عثمان بن عفان ، الا ان يكون هذا السقوط هو الثاني بعد الفتح السلمي الاول .

وبصورة عامة يكون الساحل اللبناني قد اصبح بكامله في أيدي الفاتحين المسلمين عند فتحهم لطرابلس .

٦ — الموقف من الجبل

وصف البلاذري فتح المسلمين للمناطق اللبنانية انه كان فتحاً يسيراً ، فقد جاء في ذكره لفتح السواحل: «ان يزيدا اتى بعد فتح مدينة دمشق، صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل وعلى مقدمته اخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً»، وقد علق البعض على هذا التعبير واستخرجوا منه ان الفتح لم يكن تاماً وكان بسيطاً وبالتالي فان الجبل لم يستطع العرب احتلاله فاكتفوا باحتلال داخله وساحله .

وبالعودة إلى البلاذري نفسه نراه يذكر كذلك ان : « يزيداً سار إلى عمان ففتحها فتحاً يسيراً » ، مما يدل على ان هذا التعبير استعمل فقط للدلالة على سهولة الفتح .

اما بالنسبة إلى الجبل فليس من اشارة تدل على اقتحام العرب لمناطق

الجبل الا تلك التي وردت عن خالد بن الوليد انه ارسل سرية من البقاع إلى بيروت فقضى عليها الروم في عين ميسنون (عين الشهداء) . ومما يزيد في تأكيد عدم اقتحام العرب للجبل ان الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى ابي عبيدة عندما بلغه خبر طاعون عمواس وفتكه بالمسلمين ينصحه بقصد الجبال لانه أنزل جنوده في الوهاد والمنخفضات .

ومن جهة ثانية ، فلا بد كذلك من الاشارة إلى ان كثيراً من المناطق الجبلية كانت اما مقفرة من السكان واما قليلة منهم ، فلم يجد الفاتحون من ضرورة لتجشم صعوبات الجبال ؛ بينما اقتحموا الجبال الشمالية (اللكام والامانوس وغيرهما) عندما وجدوا ضرورة ذلك . ويبدو من الامر العسكري الذي أعطاه ابو عبيدة لحاكم بعلبك الجديد رافع بن عبدالله السهمي ، في أن لا يهاجم السواحل لصعوبتها ، الدليل على أن الخوف كان من السواحل وليس من الجبال .

٧ — الانسحاب الشعبي مع البيزنطيين

بالرغم من ان كثيراً من سكان بلاد الشام استقبل الفاتحين العرب بالترحاب فان جماعات كثيرة آثرت الانسحاب مع البيزنطيين اعتقاداً منها ان الدولة البيزنطية لن تترك البلاد لفاتحيها الجدد . لذلك نزحت جماعات كثيرة من القبائل العربية ومن الانباط (حسب تسمية المؤرخين القدماء لاهالي البلاد). فقد قال ابن البطريق : « إن هرقل استجلب غسان ولخم وجذام وكلب وغيرهم لما سمع أن المسلمين فتحوا فلسطين والاردن.

ولما وصل ابو عبيدة بن الجراح فاتح الشام إلى حاضر حلب وهو قريب منها جمع اصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم وكانوا قد ارسلوا إلى خالد بن الوليد انهم عرب وانهم حشروا مع الروم ، ولم يكن من رأيهم

حربه ، فقبل منهم وتركهم » وجاء في فتوح البلدان للبلاذري : «ان جبلة بن الايهم دخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً من قومه.»

وقال اليعقوبي عن الذين نزحوا : «ان اهل هذا الجند اخلاط من العرب والعجم من لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة.» . وجاء في الكامل في التاريخ لابن الاثير (ج ٢ صفحة ٤٩٦) : «سيّر ابو عبيدة بن الجراح جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي ، فسلكوا درب بغراس من أعمال انطاكية إلى بلاد الروم وهو أول من سلك ذلك الدرب ، فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل ، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة » ويقول ابن الاثير في المصدر نفسه : « أخذ هرقل معه أهل الحصون التي بين اسكندرون وطرسوس ، لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً ، وربما كمن عندها الروم فاصابوا غرة المتخلفين فاحتاط المسلمون لذلك.»

هذه الامثلة تفيد ان البيزنطيين اعتمدوا تشجيع نزوح السكان لافقار البلاد من جهة وليتمكنوا بعد ذلك من اعادة فتحها بأستغلال اهاليها الاصليين .

وقد ساعد على تفريغ البلاد سياسة الاجلاء التي اتبعها المسلمون مع بعض المدن والحصون وذلك ليبعدوا اخطار معاونة السكان للبيزنطيين ، فقد أورد البلاذري«أن يزيد بن أبي سفيان ومعه أخوه معاوية جلا كثيراً من سكان صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل». وذكر كذلك كيف نزح اهالي طرابلس بعد محاصرة سفيان بن مجيب الازدي لمدينتهم.

وأدت هذه السياسة المزدوجة : سياسة النزوح التلقائية او المشجعة من قبل البيزنطيين وسياسة الجلاء التي اتبعت في العديد من المدن وخاصة

السواحل اللبنانية والسورية إلى ضعف كبير في السكان من حيث العدد ومن حيث الوضع الاقتصادي . وسبّب ذلك مبادرة المسلمين إلى نقل السكان إلى السواحل .

وكان من جراء هذا النزوح الواسع مع البيزنطيين الذي يغلب عليه الطابع العربي او الوطني المحلي ان العرب كثّر عددهم في البلاد البيزنطية وأصبح لهم مشكلة حتى اضطرت الدولة البيزنطية إلى اعفاء كل عائلة بيزنطية من الضرائب اذا صاهرت رجلاً من العرب .

(Les institutions de l'empire byzantin - Brehier - 364)

٨ — النتائج السريعة لفتح لبنان : نقل السكان وبناء الاسطول

ظل ابو عبيدة بن الجراح القائد العام والمسؤول عن جميع بلاد الشام حتى توفي بطاعون عمواس سنة ٦٣٩ ، وكان ابو عبيدة قد جعل يزيد بن ابي سفيان على دمشق ومسؤولاً عن سواحلها (السواحل اللبنانية) فلما توفي ابو عبيدة ويزيد بن ابي سفيان بالطاعون المذكور عين الخليفة عمر بن الخطاب والياً جديداً على الشام هو معاوية اخو يزيد ولكنه جعل على السواحل اميراً خاصاً هو عبد الله بن قيس تابعاً لمعاوية .

وكتب معاوية إلى الخليفة عمر يصف له حال السواحل وضعفها وتعرضها لهجمات البيزنطيين وقلة سكانها والمدافعين عنها وطلب اليه ان يسمح له ببناء اسطول لغزو الروم في البحر؛ وكان جواب الخليفة عمر كما أورد البلاذري : «كتب اليه في مرمة حصونها (السواحل) وترتيب المقاتلة فيها ، .واقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها ولم يأذن له بغزو البحر» .

وفي اواخر عهد الخليفة عمر (توفي سنة ٦٤٤ ميلادية او ٢٣ هجرية) تمكن البيزنطيون من استعادة بعض السواحل اللبنانية فاضطر معاوية إلى اعادة فتحها ثم شحنها بالمقاتلة . اما طرابلس فقد اسكن فيها بعد فتحها جماعة كبيرة من اليهود (كان اليهود على وفاق وتفاهم مع الفرس ؛ ولذلك اعتبرهم معاوية حلفاء له ضد العدو المشترك الذي هو البيزنطيون.) ولما استخلف عثمان بن عفان سمح لمعاوية بغزو البحر ، وأطلق يده بالتصرف . فابتدأ العرب ينتقلون إلى السواحل ؛ كما نقل معاوية قوماً من الفرس من بعلبك وحمص وانطاكية واسكنهم في صور وعكا . وقد أسكن معاوية القادمين في منازل الذين نزحوا مع البيزنطيين .

ثم باشر معاوية ببناء اول اسطول ، وجعل صناعته في عكا . ولم تصبح صناعة السفن في لبنان الا في العهد المرواني . واعتمد معاوية قائداً على هذا الاسطول عبد الله بن قيس الذي كان قد جعله الخليفة عمر أميرا على السواحل .

وقد دشن معاوية اسطوله هذا بهجومه على قبرص سنة ٦٤٩ منطلقاً من عكا ، وتمكن من احتلال الجزيرة . ثم توالت غزوات معاوية البحرية حتى كانت معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥ التي هزم فيها الاسطول البيزنطي هزيمة منكرة جعلت الأسطول العربي سيداً للقسم الشرقي من البحر المتوسط .

وكان لظهور الاسطول العربي أهمية كبرى بالنسبة إلى السواحل اللبنانية ، فقد ابتعد الخطر البيزنطي عن مدن هذه السواحل ، كما انها أصبحت ذات مكانة خاصة لدى الحكام المسلمين اذ جعلوا في السواحل جيشين جيش يغزو بالبحر وجيش مقيم في المدن الساحلية يحميها ؛ وكان في ذلك تنشيط للعرب على سكنى الساحل اللبناني واعماره .

الفصل الثالث

لبنان والامويون

(٦٣٩ — ٧٥٠)

١) قدم علاقة لبنان بالامويين .
٢) عودة النازحين .
٣) الجراجمة ومعاوية .
٤) المحاولة البيزنطية لاستعادة بلاد الشام — المردة —
٥) الاحتواء الاموي للجراجمة .
٦) الكنيسة المارونية في لبنان .
٧) الازدهار اللبناني في عهد الامويين .

* * *

١ — قدم علاقة لبنان بالامويين

تبدأ علاقة الامويين بلبنان منذ بدء الفتح العربي . فلقد كان يزيد بن أبي سفيان واخوه على رأس القوة التي احتلت المناطق الساحلية والشمال

والجنوب من لبنان . وازدادت هذه العلاقة توثقاً بتعيين معاوية على بلاد الشام ومنها لبنان . بعد طاعون عمواس ، أثناء خلافة عمر بن الخطاب . واستمرت هذه العلاقة توثقاً طيـلة ولاية معاوية ، أي طيـلة حكم عثمان والامام علي . بالاضافة إلى فترة من خلافة عمر . وظهر اهتمام معاوية بتحصين المدن ونقل السكان اليها ثم الاهتمام ببناء السفن . وتروي الاخبار ان معاوية جعل من لبنان الجنوبي منفى لاخصامه ومن ذلك نفيه لابي ذر الغفارى إلى الجنوب بسبب افكار ابي ذر الثورية الدينية المتطرفة.

ثم قويت علاقة الامويين بلبنان اثناء خلافة معاوية ، فقد اهتم الخليفة الاموي بلبنان اهتماماً خاصاً بسبب الجراجمة . وبالرغم من خطر هؤلاء فان الاهتمام الاموي ظل قوياً حتى نقل الامويون قاعدة الاسطول إلى لبنان وبنوا عنجر . فازدهرت المدن والقرى اللبنانية في اواخر العهد الاموي ازدهاراً كبيراً . ولولا حركة الجراجمة لامكن القول بان تاريخ لبنان في العهد الاموي كان عهد اطمئنان وازدهار كاملين .

٢ — عودة النازحين

كان اهتمام معاوية كبيراً بالبحر بسبب السيطرة البيزنطية على جزره القريبة من سواحل بلاد الشام ، فلما بنى الاسطول العربي في عكا بدأ بمهاجمة هذه الجزر.فانتقل من قبرص إلى رودس وارواد ثم إلى الاقسام الغربية من المتوسط . لقد شجعت هذه الانتصارات البحرية معاوية على التفكير بغزو القسطنطينية فاعد في طرابلس تعبئة بحرية عظيمة كما اعد في دمشق تعبئة برية كبيرة ؛ وعلم الامبراطور البيزنطي قنسطانس بأمر هذه الاستعدادات العربية الضخمة فقرر أن يأخذ المبادرة، فجمع اكبر اسطول بيزنطي جمع حتى ذلك الحين، كما بدأ بالاستعدادات البرية معتمداً

على سكان الحدود البيزنطية المجاورة لسوريا . وتروي الاخبار ان الامبراطور البيزنطي علم بأمر التعبئة العربية من عدد من الاسرى البيزنطيين كانوا في سجون طرابلس فتمكنوا بالتعاون مع عدد من سكان المدينة من السيطرة على البلدة وتدمير الاستعدادات التي كان معاوية قد أعدها لتجهيز الحملة . فقد ورد « انه حدث سنة ٣٤ هجرية (٦٥٤) ان معاوية كان يستعد لقصد القسطنطينية ويعد السفن الكثيرة في طرابلس ويحمل من السلاح امراً عظيماً ان اخوين لرجل يقال لن بقنطر وكانا في خدمة العرب ، فلما نظرا ما أعده معاوية أخذتهما الغيرة فاتيا السجن ففتحاه واخرجا من فيه من الروم وقتلوا عامل البلد ، واحرقوا السفن والعدة وركبوا البحر . ».(خطط الشام—محمد كرد علي— ج ١)

ولكن ثورة طرابلس هذه لم تمنع معاوية من متابعة خطته فوجه اسطوله الكبير المتعاون مع الاسطول المصري وكانت معركة ذات الصواري . وفي الوقت نفسه (٦٥٥ ميلادية) توجه معاوية شخصياً بقوات ضخمة مهاجماً التجمعات البيزنطية في منطقة الحدود الجبلية الشمالية ، وكان انتصاره في البر مشابهاً لانتصاره في البحر .

ولكن مقتل الخليفة الثالث عثمان ، والنزاع العميق الذي نشب بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية ؛ أوقف العمليات من جانب الامويين. فسحب معاوية القوى والحاميات التي كانت ترابط في مناطق الحدود الشمالية من بلاد الشام ، مما فتح المجال امام البيزنطيين لمحاولة هجومهم على سوريا .

كانت هجومات البيزنطيين شعبية بالدرجة الاولى فأخذت الجماعات التي سبق لها ونزحت تعود إلى البلاد، واضطر معاوية خصوصاً بعد خروجه من موقعة صفين الى التفاهم معهم ، فوجه اليهم وصالحهم على ماية

الف دينار . وقال البلاذري: ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدي اليهم مالاً . وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك . ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم . وقالوا : «وفاء بغدر خير من غدر بغدر .»

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن أصل هذه الجماعات واماكن توزعهم. ويبدو ان مصالحة معاوية . للروم كانت مناسبة للفريقين ، فمعاوية كان منشغلاً بحرب العراق ، والروم بدأ انشغالهم بحرب السلاف في البلقان ، ولذلك لم تعط عودة النازحين نتيجة لصالح الروم .

٣ – الجراجمة ومعاوية

ان اول من تكلم عن الجراجمة من المؤرخين المسلمين كان البلاذري ، والجدير بالذكر ان المؤرخين البيزنطيين لم يتكلموا عن هؤلاء باسمهم على الاطلاق ، وخاصة المؤرخ تاوفانوس ، بل تكلموا عن جماعة مماثلة لهم إلى حد كبير باسم المردة .

قال البلاذري : ان الجراجمة من مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج ، فيما بين بياس وبوقا ، يقال لها الجرجومة . وان امرهم كان في ايام استيلاء الروم على الشام وانطاكية إلى بطرك انطاكية وواليها . فلما قدم ابو عبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم اذ خافوا على انفسهم . فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم . ثم ان اهل انطاكية . نقضوا وغدروا . فوجه اليهم ابو عبيدة لما فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري ، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها . ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على أن يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا

بالجزية ، وان ينفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم . ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم ، وأهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف لانهم تلوهم وليسوا منهم . ويقال انهم جاءوا بهم إلى عسكر المسلمين ، وهم ارداف لهم فسموا رواديف . فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوجون اخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم .»

هكذا كان الجراجمة كما وصفهم البلاذري في مناطق سكنهم في جبال اللكام (الامانوس) قبل مجيئهم إلى لبنان في اواخر عهد معاوية . ويبدو من هذا النص ان سكان منطقة جرجومة كانوا خليطاً من الناس ولكن السيادة هي لسكان جرجومة بالذات . وجرجومة قديمة في التاريخ ورد لها ذكر كما يقول لامنس في تسريح الابصار ، في القرن التاسع قبل الميلاد :

« وانها كانت مملكة صغيرة عاصمتها مرعش ومن المرجح انها من من بقايا الحثيين . »

ويجعل البلاذري مجيء الجراجمة إلى لبنان في عهد عبد الملك بن مروان. بينما يؤخذ من اقوال ابن عساكر ان تسربهم كان على دفعات: في البدء كان تحركهم ايام حرب معاوية والامام علي ، وفي المرة الثانية هاجموا حوالي سنة ٦٦٦ أي قبيل محاصرة الامويين للقسطنطينية ، وفي المرة الثالثة كان هجومهم عندما حاصر الامويون مجدداً القسطنطينية لمدة طويلة (حرب ٦٧٤ – ٦٧٨) وفشلوا في فتحها بسبب اكتشاف البيزنطيين لسلاح ناري هو النار اليونانية التي اخترعها كلينيكوس البعلبكي وأدت إلى احراق كثير من السفن الاسلامية .

اما في المرة الثانية ، فقد عرف البيزنطيون باستعدادات معاوية لغزو

عاصمتهم في البر والبحر ، فعمدوا إلى عرقلة هـذه الاستعدادات بتحريض الجراجمة على مهاجمة السواحل والجبال المطلة على شرقي البحر المتوسط . وبالفعل توغلت جماعات كثيرة من هؤلاء إلى جبال لبنان لتقطع على معاوية خطوط مواصلاته وتموينه ، ففصلوا بذلك المناطق الساحلية عن الداخل . وفي الوقت ذاته عمد الاسطول البيزنطي إلى مهاجمة السواحل بسبب انقطاعها عن الداخل . ونجحت خطة البيزنطيين. وقد وجد هؤلاء الجراجمة ومن معهم من مرتزقة عوناً من بعض سكان لبنان والتفافاً حولهم بحيث ان قسماً منهم بقي في لبنان بعد انتهاء غاراتهم .

ويقول المؤرخ البيزنطي عن هذه الفترة : «في سنة ٦٦٩ للمسيح دخل المردة لبنان ، واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الاسود والمدينة المقدسة . وانضم اليهم كثير من ابناء البلاد والعبيد والاسرى فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف.» (تاريخ الموارنة –ضو– ج ١)

نلاحظ هنا خلافاً في السنوات ما بين ٦٦٦ و ٦٦٩ ، وربما ان مجيء الجراجمة كان خلال هذه المدة وليس في سنة واحدة . وكذلك الاختلاف في اسم الجماعة المهاجمة : جراجمة ام مردة .

وأما في المرة الثالثة فقد تجدد النزاع بين معاوية والبيزنطيين بعد ذلك بفترة قصيرة اي سنة ٦٧٤ ميلادية بعد ان استعد معاوية وجهز الحصون الشمالية من سوريا وخاصة منطقة انطاكية بجماعات من الزط استقدمها من جنوبي العراق لصد هجمات الجراجمة وغيرهم .

ففي تلك السنة (٦٧٤) بدأ معاوية حملته الكبرى على القسطنطينية ، وقد تخلل هذه الفترة هجوم الجراجمة من شمالي سوريا مرة ثانية .

فقد أورد ابن عساكر انه في سنة ١٧ من خلافة معاوية (٦٧٧) ميلادية ركب الروم السفن واتوا ساحل صيدا وصور فاستولوا على جبل لبنان وانتشروا من جبل الجليل إلى الجبل الاسود ليشغلوا العرب عن الغزو ، وبقوا في البلاد حتى أخرجهم عبد الملك بن مروان (خطط الشام – محمد كرد علي – ج ١) .

ولقد وجد معاوية نفسه امام ثلاثة اعتبارات مهمة : اولاً عدم تمكن جيشه من القسطنطينية وثانياً سقوط المناطق الساحلية والجبلية من شمالي سوريا إلى أواسط فلسطين بأيدي جماعات موالية للبيزنطيين ، وثالثاً ضرورة تهيئة البلاد لابنه يزيد. لانه، اي معاوية ، اصبح متقدماً في السن، لذلك عمد إلى المفاوضة، وتولى احد السياسيين البيزنطيين هذه المفاوضة في دمشق «يوحنا» فانسحب معاوية من محاصرته للقسطنطينية ووقع معاهدة صلح لمدة ثلاثين سنة مع البيزنطيين (٦٧٨) ولكن الاتفاقية لم تذكر مصير الجماعات التي انتشرت في الجبال والسواحل من سوريا ولبنان وفلسطين الا بنقطة وهي امتناع بيزنطية عن مساعدتهم .

ويبدو من الحوادث التي جرت فيما بعد ، في عهد عبد الملك بن مروان ، ان هذه الجماعات كان قد رجع معظمها إلى أماكن انطلاقها ، وبقي قسم منها في لبنان بدليل الهجوم الذي تعرض له جيش يزيد بن معاوية عندما كان متوجهاً إلى حماه من هذه الجماعات .

في هذه الفترة من خلافة معاوية يبدو ان قسماً من الجراجمة بدأ يختلط بالموارنة الذين كانوا يقيمون في شمالي لبنان .

وكان معاوية متسامحاً بالنسبة إلى المسيحيين حتى أنه حين كان على سرير الموت كلّف سرجيوس بتسيير دفة الحكم حتى عودة ابنه يزيد

(اسد رستم – الروم ج١. ص ٦٧ و٦٨) ويعطف بصورة خاصة على الموارنة ضد اخصامهم اليعاقبة . فقد ذكر ان وفداً من الموارنة ووفداً من اليعاقبة تناظروا امام معاوية بصدد خلافهم حول العقيدة : بالطبيعة الواحدة او الطبيعتين في السيد المسيح ، وان اليعاقبة افحموا في المناقشة فحكم عليهم بعشرين الف دينار سنوياً.

وفي هذه الفترة بالذات انتقل مار يوحنا مارون إلى لبنان (حسب التواريخ والتقاليد المارونية) كأسقف للبترون وفينيقيا مما يدل على تكاثر واضح لعدد الموارنة في الشمال بسبب تواجد الجراجمة هناك .

واهتم معاوية اثناء خلافته، وبخاصة في بدئها، بنقل السكان من بعلبك إلى صور وعكا وبقية السواحل لتدعيم السكان فيها، كما انه اصلح حصون هذه المدن بسبب التخوف من غارات الروم البحرية او البرية .

٤ – المحاولة البيزنطية لاستعادة بلاد الشام : المردة

توفي معاوية سنة ٦٨٠ وترك الخلافة لابنه يزيد. كما ترك له معاهدة مع البيزنطيين ومن بقي من الجراجمة في لبنان والسواحل لمدة ثلاثين سنة . فحافظ الامويون كما حافظ البيزنطيون وجراجمة لبنان على هذه المعاهدة .

ثم حدثت الحروب الاسلامية الداخلية، فانهمك المسلمون بشؤونهم الخاصة. وكانت خلافة يزيد بن معاوية قصيرة (٦٨٠ – ٦٨٣) ولكنها سببت مأساة مقتل الامام الحسين (كربلاء) ثم انتفاضة العراق والحجاز ومبايعة عبد الله بن الزبير بالخلافة .

وتعرضت الخلافة الاموية بعد يزيد إلى خطر الزوال (الصراع القيسي اليمني) ومن خلال هذا التدهور قامت الاسرة المروانية تدعم الخلافة الاموية بوصول مروان بن الحكم إلى الحكم. ثم تمكن ابنه عبد الملك بن مروان من القضاء على مختلف الفتن والثورات الداخلية واعادة بناء الدولة من جديد .

هذه الفترة العصيبة التي تعرضت لها الخلافة الأموية (٦٨٠ – ٦٩١) كانت مناسبة ينتظرها البيزنطيون للتدخل بقصد استعادة البلاد السورية من أيدي المسلمين. وبالرغم من طلب يزيد بن معاوية تجديد المعاهدة مع قسطنطين الرابع امبراطور بيزنطية فان اطماع البيزنطيين ظلت قائمة . وظهر ذلك بوضوح حين وصل يوستنيان الثاني إلى عرش بيزنطية (٦٨٥ – ٦٩٥) . فقد حاول فعلاً تنفيذ الفكرة بالاستيلاء على بلاد الشام معتمداً على ما كان في البلاد السورية من فوضى ونقمة (قيسية يمنية) وجراجمة. فحرك جماعات كثيرة من سكان الحدود الشمالية وارسل معهم فرقة من الجيش البيزنطي. وتمكن هؤلاء بسرعة كبيرة وبمؤازرة الجراجمة السابقين في البلاد من السيطرة الكاملة على سواحل سوريا وجميع المناطق اللبنانية وشمالي فلسطين ومنطقة الجولان . وبدا . بسبب انهماك الامويين بحروب العراق والحجاز . ان الامر مقضي للبيزنطيين .

قال البلاذري عن مجيء الجراجمة في عهد يوستنيان الثاني سنة ٦٨٩: «فلما كانت ايام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته اياه عهده واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، خرجت خيل للروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان . وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة . وانباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين ، فاضطر عبد الملك

إلى ان صالحهم على ألف دينار في كل جمعة . وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج إلى الشام فيغلب عليه واقتدى بصلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق ، فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالا وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك . »

نرى من كلام البلاذري ان المهاجمين كانوا من الفئات التالية :

آ — خيل الروم ويقصد بها فرقة نظامية من الجيش البيزنطي .

ب — الجراجمة وهم من سكان منطقة جرجومة .

ج — الانباط : ويقصد بهم الجماعات الوطنية التي سبق لها ونزحت او انها جلت بالقوة .

د — العبيد الابّاق : وهم من عبيد وموالي المسلمين الهاربين .

هذه المجموعة الضخمة الشعبية مع القوة النظامية البيزنطية سيطرت حتى مشارف دمشق . فاضطر عبد الملك بن مروان بسبب ظروفه ان يطلب مصالحتهم على ألف دينار في كل اسبوع ومال آخر يدفع للامبراطور كما يقول البلاذري . بينما يقول مؤرخو بيزنطية ان المعاهدة كانت على اساس الف دينار وعبد وفرس كل يوم بالاضافة إلى اقتسام خراج قبرص وارمينيا وايبارية . وان الذي أجرى هذه المفاوضات من أجل المعاهدة هو بولس ماجستريانوس . ويقال ان هذه الجماعات كانت تنادي عبد الملك من اعالي (دير مرّان) المشرف على دمشق مطالبة بدفع الضريبة اذا تأخر بتأديتها . هذه المعاهدة مكنت مؤقتاً لعبد الملك من الانصراف إلى العراق والحجاز لتأمين خلافته . ولكن المعاهدة تضمنت امراً خطيراً وهو ان تسحب الدولة البيزنطية قواتها الغازية من جميع المناطق التي احتلتها .

واستجاب يوستنيان الاخرم « الثاني » فسحب قواته النظامية البالغة ١٢ الف رجل ، وهم الذين اطلق عليهم المؤرخ البيزنطي ثاوفانوس اسم المردة ولقبهم بالسور النحاسي . اما بقية العناصر من جراجمة وانباط وطنيين وغيرهم فقد ظلوا في معاقلهم المختلفة .

وتقول رواية لابن القلاعي : ان هؤلاء تزعمهم امير منهم (اسمه يوحنا) واتخذ بسكنتا مركزاً ، «ولكثرة رجاله وابطاله تعظم بنفسه ، ونزل إلى ارض البقاع ونهبها وقتل كثيرين ولبث اياماً في قرية قب الياس التي بسفح الجبل فلما انتهى خبره إلى عبد الملك بن مروان الذي كان بأيام يوستنيانوس الاخرم ، ارسل اليه هدية كأنه يريد مصادقته وكان يقصد بذلك اصطياده . ولم يزل يمكر به حتى قتله وقتل كثيرين من عسكره وأحرق القرى وابعد الموارنة من البقاع . وكان ابن اخت الامير احد مقدمي العسكر يسمى سمعان ، وكان رجلاً بطلاً شجاعاً صاحب مروءة ونخوة ولم يكن راضياً عن اعمال خاله وفواحشه» .

وتقول رواية البلاذري : « ان عبد الملك وجه إلى الرومي (يوحنا) سحيم بن المهاجر ، فتلطف حتى دخل عليه متنكراً ، فاظهر الممالأة له ، وتقرّب اليه بذم عبد الملك وشتمه وتوهين أمره ، حتى أمنه واغترّ به ثم انه انكفى عليه بقوم من موالي عبد الملك وجنده كان أعدهم لمواقعته ورتبهم بمكان عرفه فقتله ومن كان معه من الروم ونادى في سائر من ضوى اليه بالامان . فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم إلى مدينتهم باللكام وأتى الانباط قراهم ، فرجع العبيد إلى مواليهم .»

وهاتان الروايتان تتفقان في معظم ما ورد فيهما ، وتختلفان حول شخصية امير المهاجمين الغزاة ، فابن القلاعي يجعله زعيم الموارنة

والجراجمة بينما يجعله البلاذري قائداً رومياً . وتأتي رواية ثالثة للدويهي توضح هذا الاختلاف .

يقول الدويهي : « ومن بعد كتابة العهود (المعاهدة بين عبد الملك بن مروان والامبراطور يوستنيانوس) ورجوع الرسـول (بولس ماجستريانوس) فرح الملك بما كان وانفذ إلى يوحنا أمير جبل لبنان ينهاه عن التعرض لعبد الملك في شيء ويأمره ان يسير بجيشه نحو الغرب . فبعث امير الجبل إلى الملك البيزنطي يفهمه ان السفر متعذر عليهم بسبب الشتاء ، فتغيظ الملك من هذا الجواب ، ونسبهم إلى العصيان . وأمر في الحال بتجهيز الجيوش وتسييرها اليهم ، واشاع من باب المكيدة انه سيرها لقتال العرب . وأعطى قائد الجيش الخلع والكتب الشريفة ليسلمها إلى امير المردة بلبنان ، واوصاه ان يتوجه بمفرده إلى قب الياس لكي يحتال على الامير يوحنا ويقتله . فلما وصلت عساكر الروم إلى البقاع ، انفرد عنهم القائد وتوجه نحو قب الياس بنفر قليل ، وخلا بالأمير وأمنه بالخلع والكتب الملوكية . وجعل يخادعه بقوله انه زاحف على العرب ويسأله النجدة عليهم ثم دعاه إلى مؤاكلته . وبينما هو كذلك استل علوج الروم سيوفهم ووثبوا على يوحنا وقتلوه . وعندها تضرمت جيوش يوحنا غيظاً ، وأخذت تقاتل جيوش الروم ، فانجلت الموقعة عن انكسار المردة لأنهم اخذوا بغتة . ولما قتل امير المردة امروا عليهم سمعان ابن اخت المقتول وكان رجلاً شجاعاً فمشى في اثني عشر الف مقاتل إلى جهة ارمينيا . »

يتبين من نص الدويهي ان الامير يوحنا هو أمير المردة الذين أرسلهم البيزنطيون كجيش مساعد للجراجمة ، وأنهم انسحبوا بعد مقتل اميرهم ، بناء لطلب يوستنيانوس ، ووفقا لما قاله المؤرخ ثاوفانوس ،

وفي ضوء ذلك يمكننا القول بان اشارة البلاذري عن قائد الغزاة انه رومي ، لا تتنافى ان يكون قائد المردة .

وفي مختلف الاحوال ، يكون البيزنطيون قد خسروا خسارة كبيرة بسحب المردة من جبل لبنان . واشار إلى ذلك ثاوفانوس بان هذا العمل هو اضعاف للدفاع البيزنطي وتحطيم للسور النحاسي ، وبدء انهيار الامبراطورية .

٥ – الاحتواء الاموي للجراجمة

تجمع الروايات البيزنطية والاسلامية والروايات التقليدية اللبنانية على أن عدد المردة الذين ارسلتهم القسطنطينية إلى جبال لبنان هو اثنا عشر الفاً ، وتجمع كذلك هذه الروايات على أن العدد الذي انسحب بعد اتفاقية عبد الملك ويوستنيانوس هو اثنا عشر الفاً . كما تشير المراجع البيزنطية إلى ان فرقة المردة التي كانت تستخدمها بيزنطية في حروبها المختلفة هي اثنا عشر الف محارب . وكان ذلك قبل الفتح الاسلامي وبعده بمدة طويلة . (جيش الامبراطور نقفور فوكاس في جزيرة كريت سنة ٩٦٠ كان فيه مردة) .

لذلك يمكن القول بان المردة لم يستقروا في لبنان ، ولعل هذا الامر هو الذي جعل المؤرخين المسلمين القدامى لا يذكرون هذه الجماعة بين سكان لبنان او غيره من المناطق الاسلامية . ولكن التقاليد المحلية أطلقت على السكان الجبليين في العصور المتأخرة كلمة المردة .

وبعد هذه التصفية للمردة على اليد المشتركة العربية والبيزنطية انسحب كثير من الجراجمة من لبنان عائدين إلى معاقلهم في جبال اللكام وتوزع

من اجتمع اليهم في انحاء البلاد . وفي ذلك يقول البلاذري : « ونادى» اي عبد الملك بن مروان « في سائر من ضوى اليه » القائد الرومي – قائد المردة « بالامان ، فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق (كانت القرى اللبنانية معتبرة من قرى دمشق وحمص) ورجع اكثرهم إلى مدينتهم باللكام ، وأتى الأنباط قراهم ، فرجع العبيد إلى مواليهم. »

كان هذا الحل الاموي لمشكلة الجراجمة حلاً عسكرياً ، لذلك لم يدم طويلاً ، وظهرت المشكلة مجدداً مع الوليد بن عبد الملك . ذلك ان الجراجمة كانوا قد اصبحوا موزعين بين قرى جبل لبنان والقرى السورية وقرب جبال اللكام في الشمال ، ففقدوا ما كانوا يأخذونه من مساعدات من الجانب البيزنطي ومن الجانب العربي عندما كانوا مجتمعين في مناطقهم قبل نزوحهم إلى مناطقهم الجديدة .

وبالاضافة إلى ذلك جاء حادث الاختلاف المذهبي بين الامبراطور يوستنيان الثاني وموارنة لبنان وسوريا (ويبدو ان كثيراً من الجراجمة كانوا على مذهب الموارنة) فجعل الجراجمة عموماً يخضعون للامر الواقع ،فيتوقفون عن أية مهاجمة للمسلمين. الا ان الامبراطور البيزنطي يوستنيان الثاني ساءه عدم موافقة الموارنة في لبنان للمعتقد الجديد الذي نادى به حول المشيئة الواحدة في السيد المسيح ،فارسل قوة إلى لبنان لمطاردة الموارنة الذين اعلنوا انفصالهم عن هذه الدعوة الجديدة، وكان على رأس الحملة قائدان بيزنطيان هما : موريق وموريقان (Maurice et Mauriçain) وذلك للقبض على البطريرك الجديد للموارنة مار يوحنا مارون .

كانت هذه الحملة مستغربة جداً ، اذ كان بين عبد الملك بن مروان ويوستنيانوس الثاني معاهدة،فهل كانت هذه الحملة نقضاً للمعاهدة،أم انها تمت بموافقة الخليفة الاموي وبطانته من اليعاقبة اعداء الموارنة ؟ .

كان يوستنيانوس الثاني قد ضرب السلاف في البلقان ونقل منهم ٣٠ الفاً إلى المناطق الجبلية بين سوريا والبلاد البيزنطية وذلك سنة ٦٨٩ واطمأن ان هؤلاء يحلون محل الجراجمة . كما كان مطمئناً من أن الوضع العربي الاسلامي ضعيف بسبب الحروب الداخلية (ثورة عبد الله بن الزبير) فلا يستبعد اذن انه حاول اخضاع الموارنة لعقيدته الدينية في موضوع المشيئة والمشيئتين في السيد المسيح ، بعد ان بلغه رفض الموارنة لرأيه ونقمتهم عليه بسبب اخراج المردة ؛ فكانت الحملة البيزنطية على الموارنة.

ومما يقوي هذا الرأي انه في سنة ٦٩٤ كانت المعركة بين عبد الملك ويوستنيانوس الثاني بسبب ازمة الورق والدمغة عليه وما تلاها من استصدار نقد اسلامي . فقد هاجم عبد الملك بعد فراغه من ابن الزبير بقوات ضخمة واخترق الجبال الشمالية ليوقع بالامبراطور هزيمة قاسية ؛ كان من نتائجها ميل الجنود السلافيين إلى صفوف المسلمين . وهذه المعركة أدت نتائجها إلى خلع الامبراطور وقطع انفه فعرف بعد ذلك بالاخرم .

اذن لم تكن حملة الامبراطور على الموارنة بموافقة عبد الملك ، ولكنها كانت انتهازاً لضعف الخليفة وعدم تمكنه من السيطرة على البلاد بسبب ابن الزبير .

اما موريق وموريقان فتقول الاخبار المارونية المتوارثة نقلاً عن الدويهي انهما هاجما دير رهبان مار مارون (دير البلور) في سوريا وقتلوا ٥٠٠ راهب من رهبانه وهدموا بنيانه ، ولكن البطريرك الماروني فر والتجأ إلى لبنان .

ولحقت القوة البيزنطية بالبطريرك الهارب ، فاصطدمت في أميون بقوات من الموارنة وكانت نتيجة المعركة مقتل القائدين البيزنطيين .

فدفن الاول في أميون واقيمت كنيسة على قبره . وقد تزعم الموارنة في هذه المعركة المقدم ابراهيم ابن اخت البطريرك .

هذه المعركة رسخت انفصال الموارنة عن بيزنطية سياسياً وجعلتهم كياناً مذهبياً مستقلاً عن غيرهم . بالرغم من سقوط الامبراطور البيزنطي يوستنيانوس الثاني سنة ٦٩٥ .وقد ساعد ذلك على تأمين فترة طويلة من الهدوء والاستقرار في لبنان والتفاهم مع الامويين .

اما الجراجمة في شمالي سوريا . فقد تحركوا مجدداً في أيام الوليد بن عبد الملك اي حوالي سنة ٧٠٨ ميلادية . واجتمعت اليهم فئات متعددة من المناطق المجاورة ؛ ويبدو ان حركتهم هذه لم تكن في هذه المرة بدعم او بطلب من البيزنطيين . لان الدولة البيزنطية كانت في هذه الاثناء تمر بأزمات عنيفة وضعف شديد . ويبدو ان تحركهم كان لاسباب اقتصادية بدليل الحل الذي وضعه لهم الخليفة الاموي الوليد ؛ وفي ذلك يقول البلاذري : « ولما كانت سنة ٨٩ هجرية (حوالي ٧٠٨ ميلادية) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم ، وأتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرونة وروسس فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فأناخ عليهم في خلق من الخلق فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت ، وهو مديان من قمح وقسطان من زيت ، وعلى ان لا يكرهوا . ولا احد من اولادهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين . ولا يؤخذ منهم ولا من اولادهم ونسائهم جزية ، وعلى ان يغزوا مع المسلمين فينفلوا اسلاب من يتلقونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين . فأخرب مدينتهم وانزلهم فأسكنهم جبل الحوار وسفح اللولون (جبل سمعان اليوم) وعمق تيزين . وصار بعضهم إلى حمص . »

هذا الحل الاقتصادي والاجتماعي حل مشكلة الجراجمة. فتوزع هؤلاء في انحاء البلاد المختلفة في لبنان وسوريا . (يوجد حالياً منطقة من مدينة حماه في سوريا تعرف بحي الجراجمة ، وهي منطقة جبلية تكثر فيها المغاور المحولة إلى مساكن مأهولة) وخدموا الدولة الاموية باخلاص. اذ ذكر البلاذري منهم ميمون الجرجماني الذي حارب في صفوف المسلمين واشتهر وقتل في الحرب .

ويقول ياقوت الحموي : « واستعان المسلمون بالجراجمة في مواطن كثيرة في ايام بني أمية وبني العباس وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة. »

٦ – الكنيسة المارونية في لبنان

أ – نشأة الموارنة في شمالي سوريا : ينتسب الموارنة من حيث الاسم إلى الراهب مـار مارون الذي عاش في أواخر القـرن الرابع الميلادي ومطلع القرن الخامس . وكان هذا القديس قد اتخذ من جبل سمعان مقراً له (جبل نابو قديماً ، ويقع بين حلب وانطاكية وقورش). وتمكن القديس مارون أن ينشر الايمان المسيحي في صفوف الوثنيين ، كما عمل على مكافحة البدع المسيحية المختلفة ، خاصة العقيدة الآريوسية ، متمسكاً بمقررات مجمع نيقية (٣٢٥م) ومجمع القسطنطينية (٣٨١م) . ويعتقد أن القديس مارون توفي في حدود سنة ٤١٠ ميلادية . وبعد وفاتـه انتشرت طريقته النسكيـة ، وتأثرت بها جماعات كثيرة من الرهبان . ثم بنى الامبراطور البيزنطي سنة ٤٥٢ ميلادية ديراً على اسم القديس مارون في منطقة حمص (أو منطقة أفامية) وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديين بدأ يتكاثر أتباع

القديس مارون في شمالي سوريا برعاية الدولة البيزنطية مرة ، وبمحاربتها لهم مرة أخرى .

ب – الصراع بين العقيدتين : الطبيعة الواحدة والطبيعتين :
في مطلع القرن الرابع الميلادي انتشرت عقيدة دينية تقول بأن السيد المسيح ليس إلهاً كالأب ، وبالتالي فإن طبيعة السيد المسيح ليست إلهية ، بل إن مشيئته فقط هي الالهية . (تاريخ الموارنة– الأب ضو – ج ١ – ص ٢٣) وقد قال بهذه العقيدة الاسقف آريوس اسقف الاسكندرية . وقد حرّم مجمع نيقية (٣٢٥ م) هذه الدعوة ، وحارب أتباعها. ولكن هذه الدعوة لم تنقرض، بل ظلت تظهر من وقت إلى آخر، وتحاول السيطرة على العقيدة المسيحية طيلة القرن الرابع الميلادي . وكان مار مارون من أشد المحاربين للآريوسية . وفي القرن الخامس الميلادي ، انقسم المسيحيون بعد المجمع الخلقيدوني (٨ تشرين اول سنة ٤٥١ م) إلى قسمين كبيرين همـا : الخلقيدونيون أي أتباع المجمع الخلقيدوني وهم المنادون بطبيعتين في السيد المسيح ؛ والقسم الثاني هم القائلون بطبيعة واحدة . وقد برز الرهبان الموارنة في القرن الخامس الميلادي يعملون في شمالي سوريا على نشر الدعوة الخلقيدونية ؛ بينما وقفت اكثرية البلاد الشرقية (سوريا وفلسطين ولبنان ومصر) مع دعاة الطبيعة الواحدة .

وحارب الامبراطور البيزنطي يوستنيانوس الدعوة مجدداً بعد مجمع القسطنطينية (سنة ٥٣٦ م) وشتت شمل دعاتها . ولكن زوجة الامبراطور المذكور تيودورا شجعت سراً الاسقف يعقوب البرادعي في سوريا على جمع شتات القائلين بالطبيعة الواحدة

سنة ٥٤٣ م ، فعادت هذه الدعوة إلى الظهور ، وعرف أتباعها باليعاقبة .

وقد أدىّ هذا الاختلاف الديني بين دعاة الطبيعتين ودعاة الطبيعة الواحدة إلى مجازر رهيبة في صفوف الفريقين . فقد قتل المونوفيزيون (دعاة الطبيعة الواحدة) سنة ٥١٧ م في دير القديس مارون ٣٥٠ راهباً . كما أن الدولة البيزنطية فتكت بدير شهير للمونوفيزيين اسمه دير ماري بسوّس في منطقة أفامية وكان عدد رهبانه ٦٣٠٠ راهب .

ولما كانت الدولة البيزنطية متقلبة بين دعاة المذهبين ، فقد ارتبط الموارنة باسقف روما (أي البابا) ، لإنه كان دائماً محافظاً على مقررات المجمع الخلقيدوني . ومن هنا نشأت العلاقة الوثيقة بين الموارنة وروما على مر التاريخ . وقد سبّب اضطهاد اليعاقبة للموارنة تفرق هؤلاء في مختلف المناطق الشمالية من سوريا . ويعتقد أن بعض رهبانهم انتقلوا إلى جبال لبنان الشمالية هرباً من الاضطهاد .

ج – الموارنة في القرن السابع : كانت الدولة البيزنطية تعود من وقت إلى آخر ، إلى مناصرة دعاة الطبيعتين . وقد أعطت في القرن السابع عدداً من الكنائس اليعقوبية للموارنة . (تسريح الابصار – لامنس – ج ٢ – ص ٥١) وهو الامر الذي سبب المزيد من العداء بين الطائفتين ، ويستدل على ذلك من قول المؤرخ اليعقوبي ابن العبري في أخباره عن سنة ٦٣٠ ميلادية : « إن رهبان مارون في منبج وحمص والبلاد الجنوبية أبدوا قسوة شديدة ، فاستولوا على معظم الكنائس والاديار التي لليعاقبة .

ولما كان جماعتنا يتشكون إلى هرقل الملك ، لم يكن يجيبهم ، على أن إله النقمة أرسل العرب لكي يخلصنا من الروم ، ومع ذلك لم ترد علينـــا كنائسنا ، بل بقي لكل فريق ما كان بيــده ، ولكننا نجونا من ظلم الروم وبغضهم لنا. » (تاريخ الموارنة — ضو — ج ٢ — ص ٢٤٢) .

د — ظهور الموارنة في لبنان : بعد الفتح العربي الاسلامي سنة ٦٣٥ في لبنان وسوريا ، وانسحاب الدولة البيزنطية نحو الشمال لم يبق للموارنة في سوريا حماية لهم تحميهم من اليعاقبة، لذلك يعتقد أنهم نزحوا نحو الشمال وتجمعوا في منطقة جرجومة بعيداً عن الخطر اليعقوبي .

ولكن بعد استقرار الاوضاع في عهد ولاية معاوية بن أبي سفيان ، ابتدأ نزوح الموارنة إلى جبال لبنان الشمالي . وقد عرف هذا النزوح في القرن السابع باسم نزوح الجراجمة والمردة ، وليس باسم الموارنة .

وقد مرّ تكاثر الموارنة في لبنان خـــلال القرن السابع بأربع مراحل هي :

المرحلة الاولى : كانت أيام القتال بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن أبي سفيان حاكم الشام ، وذلك حوالي سنة ٦٥٦ ميلادية واضطر معاوية خلال هذه المرحلة إلى مهادنة القادمين الجراجمة لانشغاله في الحروب المذكورة .

المرحلة الثانية : أي في فترة سنوات ٦٦٦ و ٦٦٩ ميلادية في

عهد معاوية كذلك، حيث اضطر معاوية إلى المهادنة، كما أن البطريرك يوحنا مارون ظهر مع القادمين ، مما يدل على كثرتهم في لبنان.

المرحلة الثالثة: أي في حدود سنة ٦٧٦ م أرسلت الدولة البيزنطية مجموعات كبيرة من الجراجمة لمحاربة الامويين والضغط عليهم لمنعهم من مهاجمة البيزنطيين .

المرحلة الرابعة : أي في حدود سنة ٦٨٩ م أرسلت الدولة البيزنطية قوة عسكرية من ١٢ ألف جندي إلى لبنان وهي القوة المعروفة باسم المردة ، لمحاربة الأمويين . وتحالفت هذه القوة العسكرية مع الجراجمة .

وبعد التفاهم الأموي البيزنطي ؛ إنقلب هؤلاء المردة والجراجمة ضد البيزنطيين . ثم انسحب المردة وتفاهمت الجراجمة مع الدولة الاموية . ومنذ ذلك الحين تكوّنت الطائفة المارونية برئاسة دينية مستقلة : فكانت من الناحية السياسية تخضع للحكم الاسلامي، ومن الناحية الدينية تعترف بالبابوية ، منفصلة بذلك نهائياً عن الدولة البيزنطية . وقد اصطلح على تسمية ذلك باسم : الكنيسة المارونية .

ويلاحظ أن الطائفة المارونية هي أقدم الطوائف الكاثوليكية في الشرق ؛ ولكنها تتميز باستقلاليتها الدينية الطقسية مع ولائها الديني للبابوية . أما من الناحية الادارية فقد منح الخلفاء المسلمون منذ أيام الوليد بن عبد الملك للموارنة وضعاً خاصاً في الادارة والاعانة الاقتصادية ؛ وهو الوضع الذي صار مع مرّ الزمن تقليداً مستمراً .

٧ – الازدهار اللبناني في العهد الاموي

كانت المناطق اللبنانية ، والسواحل منها خاصة ، قليلة السكان كما قلنا سابقاً ، قبل الفتح العربي للبلاد ، ثم زادت قلة السكان حدة مع الفتح وبعده بسبب نزوح الكثيرين مع البيزنطيين واجلاء المسلمين للجماعات المتبقية والموالية للروم .

هذا الفراغ كان سبباً في عمل الامويين الدائب على ملء المناطق اللبنانية بعناصر مختلفة ومناسبة لسياسة الامويين ؛ كما كان مناسباً لجذب جماعات الجراجمة إلى التحصن في بعض جباله ، وبرزت بلدة بسكنتا كمركز شبه دائم للعصاة على الدولة الاموية. وكان الاهتمام العربي في البدء ببعلبك فاستوطنها كثير من العرب ومنها قبيلة اوزاع التي خرج منها فيما بعد الامام الاوزاعي ، وأصبحت بعلبك مدينة علم وحارسة للبقاع والمناطق الداخلية من البلاد . وقد نقل معاوية منها جماعة إلى قبرص ، قال البلاذري : « بعث معاوية إلى قبرص باثني عشر الفاً كلهم أهل ديوان فبنوا فيها (قبرص) المساجد ونقل اليها جماعة من بعلبك . كما نقل معاوية من بعلبك سنة ٦٦٢ كثيراً من السكان إلى صور وعكار وبقية السواحل . فكانت بعلبك اشبه بالثكنة العسكرية والشعبية في آن واحد . واستقدم معاوية إلى السواحل جماعة من اليهود ومن الفرس واسكنهم في طرابلس وغيرها لمنع الروم من النزول في السواحل. ثم بدأ الامويون يشجعون العرب على الانتقال إلى السواحل . أما صور فبدأ الاهتمام الجدي بها في عهد عبد الملك اذ يقول البلاذري : « ان عبد الملك بناها ، ثم نقل اليها هشام بن عبد الملك صناعة السفن وبنى فيها فندقاً ومشغلاً » ثم نقل الامويون في عهد الوليد بن يزيد جماعات

كثيرة من سكان قبرص إلى « الماحور » على ساحل البحر بين صور وصيدا .

وفي اواخر العهد الاموي بدأ الاهتمام بمدينة بيروت فأخذ المسلمون ينتقلون اليها للمرابطة لما في ذلك من معنى الجهاد الديني . هذا بالاضافة الى المقاتلة التي كانت تقيم في جميع مدن الساحل ، وبالاضافة إلى جيوش البحر التي كان الامويون يغزون بها مختلف مناطق البحر المتوسط .

ومن الابنية المهمة التي انشأها الامويون في لبنان : بناؤهم لمدينة عنجر ، وقد وجد فيها بقايا القصر الاموي . ويبدو ان الامويين اتخذوا عنجرا مصيفاً لهم ، ثم اصبحت عنجر مركزاً سياسياً للامويين ، وقد حدثت عندها معركة كبيرة بين الامويين أنفسهم في اواخر عهدهم . قال ابن الاثير (الكامل ج ٥ صفحة ٣٢١) ما معناه :

في اواخر عهد الدولة الاموية (سنة ١٢٧ هجرية) حدث نزاع كبير ما بين الامراء الامويين عند بلدة عنجر ؛ وذلك عندما قام مروان بن محمد امير الجزيرة بانتزاع الخلافة من ابراهيم بن الوليد (مقره عنجر) الذي اعلن نفسه خليفة بعد مقتل أبيه . وقد كان على رأس جيش ابراهيم سليمان بن هشام الاموي ؛ ومعه مئة وعشرون ألف جندي . وكان مع مروان ثمانون ألفاً . وتمكن مروان من الانتصار وقتل ١٨ ألف جندي واستلم الخلافة .

وقد أسهم اللبنانيون في الحروب الاموية ووصل بعضهم إلى مراكز مرموقة ، فقد ذكر ابن الاثير في الكامل (ج ٥ صفحة ٤٩١) ان ثعلبة بن سلامة العاملي (جنوبي لبنان) حكم والياً على الاندلس من سنة ١٢٢ هجرية إلى ١٢٥ هجرية . كما اسهموا في الغزوات البحرية نظراً لعدم

تعصب الامويين الديني . ولعل الامر البارز في الاهتمام الاموي بلبنان هو نقل صناعة السفن وما يرتبط بها من صناعة حربية إلى الموانىء اللبنانية ، بسبب خبرة اللبنانيين التقليدية بذلك وتوافر المادة الخام الاساسية وهي الاخشاب الجيدة من غابات لبنان المختلفة ، وتوافر الحديد الجيد في مناجمه الجبلية .

اما من الناحية الدينية فيبدو ان التسامح الديني الذي أوجده الامويون قد أسهم في تكوين الطائفة المارونية في شمالي لبنان ، بالرغم من قلة عدد هؤلاء . فلقد قدر وليم الصوري مؤرخ الصليبيين في القرن الثاني عشر ان عددهم ٤٠ الف ، وقدر الاب لامنس قراهم بحوالي ٣٠ قرية في الشمال (تسريح الابصار – ج ٢ – صفحة ٥٥) . اما السواحل ومدنها فكانت موزعة بين المسلمين واليعاقبة والملكيين (أتباع بيزنطية) واليهود . ويبدو من الاخبار والتقاليد الشيعية ، أن الشيعة ظهرت في العهد الاموي في جنوبي لبنان منذ نفي ابي ذر الغفاري إلى الجنوب في عهد معاوية ، وتنقله الدائم ما بين ميس الجبل والصرفند ، وهاتان البلدتان تعتقدان ان ابا ذر الغفاري أقام فيهما .

وقد يكون هذا التنوع البشري الذي اجتمع في لبنان ، والمذاهب الدينية المختلفة ، وراء ظهور المذهب الاوزاعي في اواخر العهد الاموي ومطلع العهد العباسي ، وهو المذهب المعتدل ما بين جميع المذاهب الاسلامية .

اما اللغة العربية فانتشرت حيث تجمعت الاكثريات العربية الاسلامية ولكن اللغة الآرامية او السريانية ظلت مستعملة وكذلك كتابتها مدة طويلة .

وقد ظهر من لبنان في هذه الفترة الاموية عدد من المفكرين يأتي في طليعتهم الامام الاوزاعي والوليد بن يزيد البيروتي استاذ الاوزاعي ، وكلينيكوس البعلبكي مخترع النار اليونانية التي قدمها للبيزنطيين لضرب الاسطول الاموي المحاصر للقسطنطينية وكذلك الشاعر المشهور عدي بن الرقاع العاملي الذي اتخذ الاردن مسكنا له .

اما من الناحية الاقتصادية فبالرغم من ان المصادر التاريخية القديمة سكتت عن الكلام بهذه النقطة ، فيمكننا تقديرها كما يلي : نشاط تجاري في المدن الساحلية ، وزراعة وتربية دود القز للحرير بالاضافة إلى صناعة النسيج ، وهذه النشاطات كانت معروفة في لبنان قبيل الفتح العربي . ثم ازدهرت كثيراً في العهود العباسية ، مما يسمح لنا بتصور استمرار هذه المنتجات . هذا بالاضافة إلى الصناعة البحرية للسفن الحربية والسفن التجارية .

وخلاصة القول : ان لبنان في العهد الاموي بدأت تظهر فيه بعض الملامح التي حددته فيما بعد : تمركز اسلامي في الداخل والساحل ، وتمركز مسيحي في بعض المناطق الجبلية ، واختلاط في السكان من الناحية العنصرية .

الفصل الرابع

لبنان والخلافة العباسية

(٧٥٠ – ٨٧٠)

١) تأثير سقوط الدولة الاموية على لبنان .
٢) الثورات : ثورة المنيطرة .
٣) الاوزاعي .
٤) الهجرة العربيـــة الى بيروت والجبل : نشوء الامـــارة التنوخيـــة .
٥) السفيانية والنزاع القيسي اليمني وتأثيرهما في لبنان .
٦) الاهتمام العباسي بلبنان .

* * *

١ – تأثير سقوط الدولة الاموية على لبنان

كانت المناطق اللبنانية قد استكانت للحكم الاموي وارتاحت اليه ، منذ أن وضع الوليد بن عبد الملك الحل الجذري لمشكلة الجراجمة ، حلا اقتصادياً وحرية دينية ومساواة اجتماعية بالمسلمين . وكذلك كان

المسيحيون، وخاصة الموارنة قد ارتاحوا للحكم الاموي بعد اختلافهم المذهبي مع بيزنطية والانتقام البيزنطي منهم واستقلالهم بكنيستهم .

ولم تؤثر الخلافات الاموية الداخلية والصراع على الحكم ، على اوضاع اللبنانيين . ونعتقد بان النزاع القيسي اليمني الذي انتشر تحت الحكم الاموي ، وصل الى المناطق البقاعية على الأقل .

ولما قام العباسيون بثورتهم الكاسحة سنة ٧٥٠ ميلادية ، واستولوا على العراق ، تولى امر بلاد الشام ومنها لبنان عم الخليفة عبد الله بن علي ، فمر بقواته عبر البقاع متجهاً الى دمشق ، فاحتل بعلبك وعنجر سنة ١٣٢ هجرية (٧٥٠ ميلادية) ثم اباح دمشق لجنوده ، وقتل كثيراً من اليهود والنصارى في منطقة دمشق . وجعل عبد الله بن علي الرعب مسيطراً على الجميع . قال ابن الاثير : ان عبد الله بن علي لحق بمروان الخليفة الاموي ومر ببعلبك واقام فيها يومين ثم انتقل الى دمشق في ٢٦ نيسان سنة ٧٥٠ ميلادية .

واستقبل اللبنانيون الحكم الارهابي الجديد بالحذر ، ولم يحركوا ساكناً في البدء ، فالعنف العباسي البالغ ، وهوية الحكم الغامضة جعلت الناس يترقبون .

ولكن الامور تطورت بسرعة ، اذ نادى عبد الله بن علي بنفسه خليفة اثر وفاة الخليفة العباسي الاول ابي العباس السفاح ومبايعة العراقيين لاخيه ابي جعفر المنصور . وظهر الانقسام التقليدي ما بين العراق والشام بسرعة ، فقد تجاوب السوريون مع دعوة عبد الله بن علي ، وبايعوه بالخلافة ظناً منهم ان تبقى سوريا قاعدة الخلافة فلا تنتقل الى العراق ، وتصبح سوريا ولاية . واستغل عبد الله بن علي وجود القبائل العربية بكثرة في بلاد الشام ليستغلهم ضد الفرس ، فآزره العرب بالفعل

متناسين مجازره قبل ذلك بسنتين فقط . ولكن محاولة عبد الله بن علي فشلت امام القوات الفارسية الخراسانية التي قادها ابو مسلم الخرساني من العراق والقوات العباسية الخراسانية التي اتى بها صالح بن علي من مصر ، فهزم عبد الله بن علي في تشرين الثاني سنة ٧٥٤ ميلادية . وبفشل حركة عبد الله بن علي ، اصبح صالح بن علي والياً على بلاد الشام، فنكل بالعرب، ووقف اللخميون موقفه. وعين صالح بن علي على بعلبك اميراً لخمياً هو يزيد بن روح اللخمي الذي ساعده في القضاء على حركة عبد الله بن علي . وخلال هذه الفترة (سنة ١٣٥ هجرية ٧٥٣م) اوردت الاخبار المارونية(خطط الشام ج١. صفحة ١٨٠) قصة ثورة حدثت في لبنان؛ فقد ورد ان المقدم الياس نهب البقاع ونهب قراها واهلها ، فارسل والي الشام ، من قبل السفاح ابي العباس اليه رسلا لعقد الصلح ، ثم هاجمه في قرية المرج وقتله . وبعد رجوع عسكر الشام رجع اصحابه ودفنوه بقرب الجامع الذي في القرية . ثم اقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن اخت المقتول ، فسارت اليه عساكر الشام، وكانت الحرب بينهم في قرية الشوير ، فانكسر العسكر الشامي وارتد راجعاً.

وفي هذه الرواية ضعف كبير ، فهي لم تذكر في المصادر الموثوقة ، وهي شبيهة شبهاً كبيراً برواية ابن القلاعي عن الجراجمة ، في عهد عبد الملك ونزولهم البقاع ، ومقتل رئيسهم يوحنا (في هذه الرواية الياس) ثم تشتيت جماعته ، وتزعم ابن اخته سمعان (في هذه الرواية يتزعم سمعان ابن الاخت) . والمعركتان الاولى في العهد الاموي سنة ٦٨٩ والثانية ٧٥٣ في العهد العباسي تختلفان بالنتيجة ؛ ففي الرواية الثانية ينتصر الجبليون في الشوير ، وتفسير تسمية بلدة قب الياس بهذا الاسم ، اذ ان مقدم الجبليين الياس دفن في قبر في المرج فاصبح المكان معروفاً باسم « قبر الياس » ثم حرف الى قب الياس .

واذا قبلنا بهذه الرواية ، فاننا نتساءل عن اسبابها خلال هذه الفترة الخطيرة من الفتح العباسي ، فهل كانت استغلالا للفوضى التي رافقت السقوط الاموي وسيطرة الملاحقة الدموية العباسية للامويين وللعرب ، خصوصاً وان بعلبك وعنجر كانتا مركزين امويين مرموقين ؟ ام يكون ذلك نتيجة الاضطهاد العباسي للمسيحيين وقتل الكثيرين منهم ، مع اليهود ، على يد عبد الله بن علي ، فجاءت حركة الجبليين انتقاماً لهذا الاضطهاد ؟ أم هو نتيجة لأزمة اقتصادية نشأت عن توقف الاعانة الاموية التقليدية التي كانت تدفع للجراجمة .

وفي جميع الاحوال ، لا مجال للبت في الاسباب بسبب فقدان المصادر . انما مما يسجل من هذه الرواية ان العباسيين دخلوا جبل لبنان حتى بلدة الشوير .

٢ — الثورات : ثورة المنيطرة

تقول التواريخ المارونية (خطط الشام ج ١ صفحة ١٨٠) ان القتال دام بعد معركة الشوير مدة طويلة بين عساكر المسلمين ونصارى الجبل. وقد روى ابن عساكر : ان الروم دخلوا طرابلس في زمان واليها رياح بن عثمان حين كان عاملاً لصالح بن علي الهاشمي امير الشام ومصر. ثم ظهر رجل من أهل المنيطرة ، وذلك في سنة ١٤٢ او ١٤٣ هجرية (٧٥٨ او ٧٥٩ م) وسمى نفسه الملك ، ولبس التاج ، واظهر الصليب. واجتمع عليه انباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفحل امرهم فسبوا بعض القرى في البقاع فقتلوا المسلمين ، واخذوا ما وجدوا ، وكتب الملك بندار الى اهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ، ويأمرهم بقتالهم ، فتأهبوا وقاتلوهم في اسفل جبل لبنان ، ثم اظهروا الهزيمة ، فامضوا في الطلب ، فلما بعدوا عن الجبل ، كرت عليهم خيل بعلبك ، فقتلوا

منهم مقتلة عظيمة . وانهزم بقيتهم ، ثم هاجموهم في قلعتهم فظهروا عليهم وامتلكوها منهم ، وهرب بندار الى ملك الروم . فكتب حينئذ صالح بن علي يأمر باخراج من بقي في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكورها .

اذا قابلنا هذه الرواية لابن عساكر عن ثورة المنيطرة برواية البلاذري يتبين لنا منها انها كانت حركة عدائية هجومية على العباسيين بدافع بيزنطي . بينما نجد البلاذري يجعل هذه الثورة دفاعية . ثم ان رواية ابن عساكر لا تشير الى موقف الامام الاوزاعي المشهور واعتراضه على العباسيين ، ولكن رواية ابن عساكر تعطينا فكرة عن شخصية والي طرابلس ، وهو رياح بن عثمان ، الرجل الصلب الذي عينه ابو جعفر المنصور بعد ثورة المنيطرة والياً على المدينة المنوّرة للقضاء على ثورة محمد بن عبد الله العلوي المطالب بالخلافة ، وظل والياً عليها حتى قتل سنة ١٤٥ هـ (٧٦١ م) . اما البلاذري فقد ذكر هذه الثورة كما يلي : « خرج بجبل لبنان قوماً شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم واقر من بقي منهم على دينهم ، وردهم الى قراهم ، واجلى قوم من اهل لبنان . وان الاوزاعي كتب الى صالح رسالة طويلة حفظ منها : وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم ، وحكم الله تعالى «الا تزر وازرة وزر اخرى» وهو احق ما وقف عنده واقتدى به. واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله — صلعم — فانه قال من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته ، فانا حجيجه . »

يستفاد من رواية البلاذري ، ومن احتجاج الامام الاوزاعي المطابق للرواية ، امور متعددة منها :

آ — ان ثورة المنيطرة لم تكن هجومية ، كما اشار ابن عساكر في روايته .

ب — ان ثورة المنيطرة لم تكن بتحريض من البيزنطيين او بتزعمهم لها كما يفهم من رواية ابن عساكر .

ج — ان ثورة المنيطرة لم تكن شاملة ، فقد كان هناك جماعات كثيرة من سكان الجبل غير موافقة على الخروج وغير مشتركة مع الثائرين . وقد حفظت هذه الجماعات التي لم تخرج استمرار وجود الموارنة في الجبل .

د — ان ثورة المنيطرة كانت اعتراضاً على عامل الخراج في بعلبك، اي لاسباب اقتصادية . وهي اشارة صريحة ، اذ ان الجبليين من لبنان كانوا هادئين منذ عهد عبد الملك بن مروان ، ولم يسجل لهم اي خروج او تمرد .

هـ — ان القمع العباسي لم يكن يستهدف الضغط الديني ، بدليل ان صالح بن علي ، اقر من بقي منهم على دينهم .

ويمكن التوقف امام ثورة المنيطرة هذه ، فقد كانت الحركات اللبنانية الجبلية من قبل ، سواء في العهد الاموي او الحركة الاولى في عهد عبد الله بن علي اول امير عباسي على بلاد الشام ، كانت هذه الحركات تنبعث من منطقة بسكنتا ، (كما تشير التواريخ المارونية) . وان العباسيين وصلوا (سنة ١٣٥ هجرية — ٧٥٣ ميلادية) الى الشوير وبعد ست سنوات تقريباً (٧٥٩) كانت ثورة المنيطرة وتركيز

العباسيين على المنطقة الشمالية . فهل تستنتج من ذلك ان السكان الجبليين بين بسكنتا ومشارف بيروت لم يخرجوا، ولم يشتركوا في الثورة الثانية . اقرب الظن انهم لم يخرجوا ، وظلوا قوة متربصة ، بدليل الهجرة التي شجع عليها الخليفة ابو جعفر المنصور الى بيروت وسواحلها لمراقبة الجبليين وحماية الساحل . ولو كان الاجلاء قد اصابهم كما اصاب منطقة المنيطرة ، لما كان اهتمام الخليفة العباسي شديداً وسريعاً . وربما ان سرعة القضاء على هذه الثورة كانت بسبب انهماك الخليفة بخطر اضخم في المدينة هو خطر محمد بن عبد الله العلوي الذي طالب بالخلافة . ونستنتج من هذه الثورة ان العباسيين عمدوا الى حل مختلف جذرياً عن الحل الاموي للجراجمة ، فلم يدخلوا في الحل اي اغراء اقتصادي انما اعتمدوا : اجلاء السكان ، ونقل القبائل العربية التنوخية الى لبنان ، والسيطرة المباشرة على الجبل ، وهي كلها حلول عنف وارهاب .

٣ — الاوزاعي

ضرب الاوزاعي بعمله المثل الاعلى في الوقوف ضد الظلم ، حتى ولو كان صادراً عن العباسيين في اوج عنفهم . والاوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو، وكان يكنى بابي عمرو بالرغم من انه كان له ولد اسمه محمد ، (وقيل عنه من الابدال) وكان له ثلاث بنات . ونسبته الاوزاعي تعود اما لقبيلة اوزاع اليمنية ، واما لاحدى قرى الشام ، واما لانه من اوزاع الناس اي من الاخلاط الذين لا تعرف لهم قبيلة ينتمون اليها . ويظن ان النسبة الاولى هي الاصح .

ولد الاوزاعي في بعلبك سنة ٧٠٧ ميلادية (٨٨ هجرية) في آخر ولاية عبد الملك بن مروان . وتوفي في بيروت سنة ٧٧٤ ، وقيل انه بلغ السبعين من عمره ، وقيل اكثر . وقد دفن جنوبي بيروت على

مقربة من شاطىء البحر في قرية « حنتوس » التي اصبحت بعد ذلك معروفة باسم الاوزاعي . وهكذا يكون الاوزاعي لبناني المولد والاقامة والمدفن . امضى الاوزاعي طفولته في بعلبك، يتيم الاب ، ثم انتقلت به والدته الى بلدة الكرك (كرك نوح في البقاع) فتعلم في مدارسها ، ثم عمل في الدواوين ، ثم حارب مجنداً في الجيش الاموي في اليمامة (الجزيرة العربية) ثم ارتاد بعد الجندية مراكز العلم الكبرى في عصره في البصرة ومناطق العراق والحجاز واليمن ودمشق . ثم استقر في بيروت متخذاً منها مركزه ومجال عمله ، وكان ذلك حوالي سنة ١٣٣ هجرية (حوالي سنة ٧٥٠) . ومن بيروت نشر مذهبه الفقهي الشهير في بلاد الشام وفلسطين وصل الى بعض بلدان شمالي افريقيا . وتوفي مختنقاً وهو يغتسل بالحمام سنة ٧٧٤ ميلادية .

وقد عرف عن الاوزاعي شدة دفاعه عن الحق والمظلومين. ومن ذلك موقفه الشهير من العباسيين عندما اوقعوا الظلم بجماعات من اللبنانيين، اثناء ثورة المنيطرة من الذين لم يخرجوا ولم يثوروا ومع ذلك وقع الضغط عليهم. ان الارهاب العباسي لم يخف الاوزاعي ولم يمنعه من ان يقول رأيه الصريح ، وان يدافع عن الحق ويقف ضد الظلم . وقد روي عن امير الساحل ارسلان بن مالك المعاصر للاوزاعي انه قال حين دفن الاوزاعي : من يظلم بعدك فليصبر. مما يدل على ان للاوزاعي مواقف متعددة ضد الظلم ، وليس موقفه بالنسبة الى ثوار المنيطرة هو الوحيد من نوعه . اما مذهب الامام الاوزاعي فليس معروفاً تماماً ، انما تشير التواريخ المختلفة الى انه كان مذهب التسامح الكبير بالنسبة الى اهل الذمة . ولعل هذا التسامح هو ما شجع الكثير من المسيحيين على اعتناق الاسلام على مذهب الاوزاعي ، فقد اورد عبد الحق الاشبيلي

في كتابه «العاقبة» « وروي انه اسلم في ذلك اليوم من اهل الذمة، اليهود والنصارى ، نحو ثلاثين الفاً ، مما رأوا من كثرة الخلق في جنازته» .

ويبدو ان مواقف الاوزاعي في وجه الظلم العباسي ، ومواقفه في وجه المذاهب الاسلامية المتصلبة ، قد جلبت عليه في اواخر حياته النقمة الرسمية؛ فقد كتب ابو سعيد البيروتي (وهو عبد الحميد بن ابي العشرين الدمشقي) وكان ملازماً للاوزاعي ويروي عنه قال : « ما مات الاوزاعي حتى جلس وحده ، وسمع شتمه باذنه ، يعني انه اعتزل الناس ، وصبر على اذاهم .» ولكن اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم لم ينسوه وبقي عندهم في مكانته . والجدير بالذكر ان مقام الاوزاعي ببيروت هو الاثر الاسلامي الوحيد على طول الساحل اللبناني من القرن الثامن الميلادي .

٤ — الهجرة العربية الى بيروت والجبل :
نشوء الامارة التنوخية

نبهت حركة المقدم الياس سنة ٧٥٣ ميلادية (١٣٥ هـ) وثورة المنيطرة بعدها سنة ٧٥٨ او ٧٥٩ (١٤٣ هـ) انظار العباسيين الى نقطة ضعف كبرى في دولتهم وهي وجود جماعات مقيمة في الجبال اللبنانية تتمتع بالشدة والصلابة وعدم الموالاة للدولة ، واحتمال قيام تحالف بينهم وبين البيزنطيين . لذلك عمد ابو جعفر المنصور ، فور الانتهاء من ثورة المنيطرة ، الى ملء الفراغ الذي احدثه اجلاء السكان من لبنان بتشجيع القبائل العربية على الاستيطان في الجبال اللبنانية .

وكانت القبيلة الاولى التي انتقلت الى لبنان هي قبيلة التنوخيين وذلك سنة ٧٦٣ ميلادية ، وكان على رأسها الامير ارسلان . وقد وقع الخيار

على التنوخيين ، لأن قبائل لخمية كانت تقيم في البقاع ، وهم من فصائلهم .

وقد أورد الشدياق في كتابه : (اخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٧٩) في مقدمة اخبار الامراء الارسلانيين : ان الامير ارسلان امير الجيش نهض بسوابق العشيرة الى وادي التيم ، ونزل في الحصن المعروف بحصن ابي الجيش منتظراً قدوم اخيه بباقي العرب. ثم قدم الامير منذر بباقي العرب .... ثم تفرقا هما وعشائرهما في البلاد ، فعمروا جبال بيروت الخالية ، وتحضروا . فاستوطن الامير المنذر بن مالك في حصن سلحمور (سرحمول حالياً) واخوه الامير ارسلان في سن الفيل ، والامير حسان بن خالد بن مالك في طردلا ، والامير عبد الله بن النعمان بن مالك في كفرا ، والامير فوارس بن عبد الملك بن مالك في اعبيه (عبيه حالياً) وتفرق باقي المقدمين وعشائرهم في البلاد ، وكانوا اثني عشر مقدماً .

وجاء في الجزء الاول من كتاب: «لبنان–مباحث علمية واجتماعية لاسماعيل حقي ص ٢٩٦ ، في فصل تاريخ لبنان عن التنوخيين : ومما لا خلاف فيه وعليه الاجماع ان التنوخيين مالأوا العباسيين فاحلهم ابو جعفر المنصور سنة ٧٦٣ غربي لبنان ، وعول عليهم في صد غارات الروم واهالي الجبل . وقد نزل الامير ارسلان احد رؤسائهم محلة رأس البيدر ، وقطن الباقون ارباض بيروت وصيدا . »

وقد لخص البلاذري سياسة ابي جعفر المنصور بالمقطع التالي : « لما ولي ابو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها، وبنى ما احتاج الى البناء منها . ثم لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون ، وزاد في شحنها . »

وقد اثبت الامراء التنوخيون عن مقدرة وكفاءة ، فقد حموا السواحل والجبال المشرفة على بيروت من غارات الموارنة في الجبل . ووقعت بين الفريقين اصطدامات قوية بالقرب من نهر الموت ، وفي انطلياس ، قتل في الاخيرة اكثر من ثلاثمائة قتيل من الفريقين ، وكانت النصرة فيهما لهذين الاميرين (ارسلان ومنذر) وانكفت المردة من ساحل بيروت (اخبار الاعيان – الشدياق ج ٢ – ص ٢٧٨) .

هذه التجربة الاولى في صد التنوخيين للمردة ، او للموارنة ، جعلت الدولة العباسية تقرهم في امارتهم ، كما يقول الشدياق في المصدر ذاته، « لما قدم الخليفة المهدي بن المنصور العباسي الى دمشق ، سار اليه الامير منذر واخوه الامير ارسلان وقابلاه في قرية المزة ، فاستقبلهما بالبشاشة واكرمهما لما بلغه من شدة بأسهما على الاعداء ، وفي محافظة الطرقات ، وامر لهما بالتواقيع في تقريرهما على ولايتهما . وقد زاد لهما واجرى لهما الاقامات الكافية . »

وهكذا بدأت في لبنان اول امارة عربية اسلامية ، هي الامارة التنوخية ، التي ظلت مستمرة حتى العهد العثماني ، اي حوالي ثمانية قرون متواصلة . والى جانب هذه الامارة قامت مقدمية الموارنة في الجبال الشمالية وكسروان . وابتدأت بذلك تظهر معالم الكيان الذاتي في لبنان .

وتابع العباسيون اهتمامهم بتشجيع الاستيطان في لبنان ، فقد ورد في (اخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٨١ – الشدياق) ان هرون الرشيد ارسل منشوراً الى امير الثغور الشامية والى باقي عمال الشام ان يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان وسكناه لتشتد قوة امرائه على اهل العاصية (كسروان) ولعل هذا الطلب والاستنفار للقبائل العربية كان ناجماً

عن المعركة التي حدثت بين موارنة كسروان والامير مسعود التنوخي امير سن الفيل ، اذ اضطر الامير مسعود بعدها الى ترك سن الفيل والانتقال الى الشويفات (سنة ٧٦٩) بالرغم من انه هزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واحرق بعضاً من قراهم السفلى ، وكان ذلك سنة ٧٩١ . ويبدو ان تشجيع الدولة شجع قبيلة ثانية من التنوخيين فانتقلت جماعة اخرى منهم سنة ٨٢٠ ميلادية واستقرت في قصر نبا وبذلك اصبحت القبائل التنوخية مسيطرة على الساحل والجبل الاوسط والداخل . واصبح الامير مسعود متزعماً الامارة التنوخية باتفاق كلمة الامراء . وقد اشترك هذا الامير مع الخليفة المأمون في محاربة مصر ، ونجم عن ذلك ان الخليفة المأمون اقطعه بالاضافة الى امارته في بيروت والغرب وصيدا مقاطعة صفد ، فاصبح سنة ٨٣١ امير التنوخيين في لبنان .

٥ – السفيانية والنزاع القيسي اليمني وتأثيرهما في لبنان

لقد كان لانتشار القبائل العربية في البقاع ووادي التيم والجنوب وبيروت والغرب التأثير الكبير في انتقال النزاع القيسي اليمني من المناطق الداخلية في بلاد الشام الى لبنان . وقد ظهر هذا النزاع بوضوح في عهد الخليفة العباسي هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هجرية – ٧٨٦ – ٨٠٩ ميلادية) في حوران ودمشق ومناطق متعددة من بلاد الشام . ولم يصل الى لبنان الا بعد نصف قرن بعد هرون الرشيد . وقد سبب هذا النزاع القيسي اليمني في بلاد الشام بالاضافة الى ضعف العباسيين في عهد الاخوين الامين والمأمون، والحرب بينهما، الى استيقاظ فكرة السفيانية ، ومحاولة اعادة الخلافة الاموية ، وبالتالي اعادة المكانة الى بلاد الشام

بدلا من العراق . وكانت المحاولة الاولى بالنسبة الى لبنان هي ثورة ابي العميطر .

أ – ثورة أبي العميطر : وهذه الثورة كانت استجابة للدعوة السفيانية التي انتشرت في اواخر العهد الاموي ومطلع العهد العباسي ، وقوامها ان رجلا من بني سفيان سيخرج ليعيد الحق الى نصابه .

اما ابو العميطر فهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية . ظهر في الشام واعلن نفسه انه المهدي ، وذلك في خلافة الامين سنة ٨١١ ميلادية و ١٩٥ هجرية وقال انه ابن شيخي صفين : الامام علي ومعاوية. وقد مشت معه اليمنية ، ووقفت في وجهه القيسية فانتقم منها انتقاماً شديداً ومال اليه اللبنانيون في صيدا والجنوب والبقاع وبعلبك والسواحل وحاربوا معه القيسية،وكانت المعركة في منطقة شبعا من وادي التيم . وتزعم ضده محمد بن بيهس الكلابي وتمكن من تفكيك قوة ابي العميطر ، اذ انقسم الثوار الامويون وقام منهم مسلمة بن علي المنتهى بمسلمة بن عبد الملك بن مروان ، فادعى الخلافة لنفسه وقبض حيلة على أبي العميطر ، وتحمس للقيسية . ففتح هذا الاختلاف لمحمد بن بيهس المجال للقضاء على الحركة من اساسها.

ثم قامت حركة سفيانية ثانية في بدء حكم المأمون ، قام بها سعيد بن خالد الاموي في حوران ، وفشلت الحركة كذلك على يد محمد بن بيهس الكلابي .

واستمرت المنازعات القيسية واليمنية في بلاد الشام ، وكانت

تتخذ طابعاً انفصالياً عن الدولة العباسيه في معظم الاحيان حتّى وقعت ثورة المبرقع اللخمي .

ب- ثورة المبرقع : والمبرقع هو تميم ابو حرب اللخمي قام في الغور من الاردن ومالت اليه القبائل اليمانية ومنها قبيلة عاملة في جنوبي لبنان ، ونادى بنفسه انه السفياني المنتظر . وجعل ثورته موسمية تعتمد على الفلاحين في غير اوقات عملهم . فارسل اليه المعتصم قوة لمحاربته فانتظرت حتّى انفضّ الفلاحون من حوله وهاجمه واسره . وقيل ان المبرقع خسر في معركتيه مع العباسيين حوالي ٢٥ الف قتيل . ودامت حركة المبرقع سنتين من سنة ٢٢٦ الى ٢٢٧ هجرية (٨٤٢ ميلادية) .

اما في داخل لبنان ، فقد وصل الى امارة التنوخيين الامير هاني بن الامير مسعود . واشتهر هذا الامير كما يقول ابن عساكر بمحاربته للمردة وانتصاره عليهم حتّى لقب بالغضنفر ابي الاهوال (سنة ٨٤٥ ميلادية) وان اخباره في محاربة المردة ، وصلت الى بغداد في عهد الواثق بالله، فارسل اليه الامير خاقان التّركي كتاباً يشكره فيه ويحثه على الحرب، ويخبره انه بلغ حسن سلوكه الى مسامع الخليفة . وقد خلفه في الامارة التنوخية في لبنان سنة ٨٥٢ ميلادية الامير ابراهيم بن اسحق بن ارسلان . وهدأت الحالة في لبنان ، بينما كانت الدولة العباسية تتفكك من الداخل ، فتنتشر فيها الثورات الاجتماعية الضخمة كثورة بابك ثم بعدها ثورة الزنج ، بالاضافة الى سيطرة العنصر التّركي وتحكمه بالخليفة ، وعدم استقرار الخلافة . كل ذلك شجع اصحاب الطموح على المحاولات الانفصالية . فقام عيسى بن

الشيخ الشيباني فاستولى على فلسطين وعلى دمشق وجنوبي لبنان سنة ٢٥٢ هجرية (٨٦٩ ميلادية) ودعا الامير اللبناني التنوخي الى مساعدته فانضم اليه ، مما يدل على التدهور الكامل للدولة العباسية . وسار الامير ابراهيم بن اسحق برجاله الى حوران فاجتمع بابن الشيخ في قرية اذرعات ، واصبح معهما عشرون الف رجل ، فارسلت بغداد اماجور التّركي ومعه الف رجل فانتصر على الفريقين . ويقول ابن الاثير في ذلك (الكامل في التاريخ ج٧-ص٢٣٨) «فانفذ المعتمد اماجور، وقلده دمشق واعمالها، فسار اليها في الف رجل، فلما قرب منها انهض عيسى اليه ولده منصوراً في عشرين الف مقاتل، فلما التقوا انهزم عسكر منصور، وقتل منصور ، فوهن عيسى وسار الى ارمينية على طريق الساحل . »

ويقول الشدياق في (اخبار الاعيان ج ٢ -ص٢٨٣) : «ان اماجور التّركي قدم ، ومعه الامير النعمان بن عامر التنوخي (ابن عم الامير هاني ، وكان قد ذهب الى بغداد سنة ٨٦٣ لطلب العلم على الجاحظ والمبرد وغيرهما . فلقي اماجور التّركي اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه وفيهم الامير ابراهيم ، فاقتتلا ، فقتل الابن وانهزم اصحابه . »

من هذين النصين نلاحظ ان الف رجل انتصروا على عشرين الف رجل ، مما يدل على امر لم يشر اليه المؤرخون ، وهو وجود الامير النعمان بن عامر مع اماجور . اذ يبدو ان التنوخيين مالوا الى النعمان وتخلوا عن ابراهيم ، مما رجح كفة اماجور . ومما يشجع على الاخذ بهذا الرأي ان اماجور التّركي عين الامير

النعمان بعد الانتصار « اميراً على بيروت وصيدا وجبلهما ولقب بأمير الدولة . وقد صدرت التواقيع بتقريره على الولايات المذكورة ، وامره بالاقامـــة في بيروت لاجل محافظتهـــا من الروم ودخل الجبل » . (اخبار الاعيان – الشدياق ج ٢ ص ٢٨٣) . امـــا الامير ابراهيم فقد هرب واختبأ ، ثم أمنه الامير النعمان ، فبقي في بيته حتى مات . وبقيام الامير النعمان في لبنان تبدأ الامارة التنوخية الوراثية المعترف بهـــا من خليفة بغداد .

٦ – الاهتمام العباسي بلبنان

بالرغم من ابتعاد مركز السلطة والخلافة عن لبنان ، من دمشق الى بغداد ، فان العباسيين تنبهوا الى اهمية لبنان.واسهمت ثورات الجبليين في لبنان في تنبيه انظار العباسيين لذلك ، فعمدوا كما رأينا الى تشجيع الهجرة العربية الاسلامية الى داخله وساحله وجبله . واهتموا بالساحل فشحنوه بالمقاتلين ، ونقلوا اليه الصناعة (صناعة السفن) مما فتح امام لبنان المجال للتطور . وقد لخص البلاذري هذا الاهتمام بالمقطع التالي :

«لما ولي ابو جعفر المنصور، تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها ، وبنى ما احتاج الى البناء منها . ثم لما استخلف المهدي ، استتم ما كان بقي من المدن والحصون ، وزاد في شحنها . قال معاويـــة بن عمرو وقد رأينا من اجتهاد امير المؤمنين هارون في الغزو ، ونفاذ بصيرته في الجهاد امراً عظيماً ، اقام من الصناعة ما لم يقم قبله ، وقسم الامـــوال في الثغور والسواحل ، واشجـــى الروم ، وقمعهم . وامر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وان تشحن بالمقاتلة.»

وبالمقارنة بين سياسة الامويين والعباسيين تجاه لبنان يمكننا ان نقول : ان الامويين اسهموا في تكوين مقدمية الموارنة ، ومقابل ذلك اسهم العباسيون في تكوين الامارة التنوخية . ولكن لبنان لم يكن عبارة عـــن هاتين الكتلتين ، فقد توزعت القبائل المهاجرة في الشمال والجنوب والبقاع . وبرزت بيروت تلعب دوراً رئيسياً على الساحل اللبناني ، فاستقطبت كثيراً من سكان المناطق الداخلية للقيام بالجهاد وذلك بالمرابطة في وجه الاسطول البيزنطي وغزواته ومنع السكان الجبليين من الاتصال بالبيزنطيين .

وكان العباسيون يولون بشكل عام بلاد الشام وسواحلها اهتماماً خاصاً في هذا العهد الاول من العصر العباسي . ويظهر ذلك من تعيين الخلفاء العباسيين لامراء العائلة المالكة او لكبار موظفيها على ولايـــة دمشق ، ولبنان تابع لها . ويقال ان زبيدة زوجة هارون الرشيد امرت بجر الماء الى بيروت بالقناطر الرومانية القريبة من المدينة فحملت هذه القناطر اسم الملكة . اما من الناحية الدينية فيبدو ان المسيحية ظلت بين ثلاثة مذاهب هي : المارونية في الشمال الجبلي من لبنان ، والملكية في السواحل شمالي بيروت واليعاقبة في السواحل والداخل . ولعل وجود الملكية في السواحل شمالي بيروت كان مشجعاً على مجيء الروم مـــن وقت الى آخر لمهاجمة بعض المناطق اللبنانية . وظل العباسيون يطلقون كلمة انباط على مجموعة المسيحيين في لبنان(لامنس– تسريح الأبصار ج ٢ ص٥٥)واما المسلمون فكانت اكثريتهم قد اصبحت على مذهب الاوزاعي. ويظن ان بعض سكان لبنان الجنوبي ووادي التيم كانوا على مذهب التشيع. وقد مشوا مع ابي العميطر في ثورته لانه المهدي ولانه ابن شيخي صفين اي ان له انتساباً بالامام علي . هذا بالاضافة الى الجماعات اليهودية المقيمة في المدن منذ العهد الاموي .

وبالنسبة الى الحالة الاقتصادية ، فيبدو ان الساحل هو الذي تطور بسبب نقل الصناعة اليه وتمركز الاسطول فيه خاصة في صور ، اما الجبل فالظاهر انه لم يكن قد امتلأ بالسكان بعد ، وان سكانه كانوا ما يزالون ينظرون اليه كملجأ اكثر مما هو وطن انتاج . ويبدو ان الفلاحين في الجنوب والبقاع لم يكونوا راضين من سياسة العباسيين ، مما يفسر مساعدتهم لثورة المبرقع التي قامت على اكتاف الفلاحين . ذلك ان الضرائب والاقطاعات كانت ترهق الفلاحين.

وفي هذا الدور الاول من الحكم العباسي ، ظهر بعض اللبنانيين ونبغوا في بعض علوم العصر ، كالامام الاوزاعي في مطلع هذا العهد وقسطا بن لوقا البعلبكي الأصل (توفي سنة ٩١٢) الذي اشتهر بترجماته، وتيوفيل بن توما الماروني، والمنجم الرهاوي الذي كان رئيس منجمي الخليفة المهدي ، وقيس الماروني المؤرخ ، ومحمد بن الاوزاعي، والوليد بن مزيد القدري ، وابي الفضل ابن العباس ، ومكحول الحافظ وكلهم من بيروت وهشام ابن الغازي ، وابو الحسن محمد الغساني من صيدا ، وابو عبد الله محمد بن علي من صور .

الفصل الخامس

لبنان والدويلات العباسية

(٨٧٠ — ٩٦٩)

١) الامارة التنوخية تصبح وراثية ومعترفاً بها .
٢) لبنان والدولة الطولونية .
٣) لبنان والقرامطة .
٤) لبنان بين الاخشيديين والحمدانيين .

* * *

١ — الامارة التنوخية تصبح وراثية ومعترفا بها

لقد مرت الخلافة العباسية منذ مطلع القرن التاسع الميلادي (مطلع القرن الثالث الهجري) بأزمات خطيرة ، سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية ، كالصراع على مركز الخلافة ، والصراع القومي الذي عرف بالشعوبية ، والصراع المذهبي بين السنة والشيعة ، والصراع بين

الاغنيـــاء والفقراء ، وادى كل ذلك الى ثورات عنيفة ومحـــاولات انفصاليـــة ، كحركة بابك والحركات السفيانيـــة وحركة الزنج ، فأدى كل ذلك الى تفسخ الدولة العباسية . ولكن العباسيين ، بالرغم من أزماتهم ظلوا ينظرون الى الامارة التنوخية في لبنان باهتمام كبير ، فقد كان التنوخيون موالين دائماً لسياسة الخليفة في بغداد .

وقد كان انتصار الامير النعمان بن عامر التنوخي بالتعاون مع اماجور التركي على ثورة عيسى بن الشيخ الشيباني دليلا على هذا الولاء ، وكافأته بغداد بجعله امير الدولة .

وجعل النعمان مركزه مدينة بيروت وحصّن سورها وقلعتها ، وبنى فيها ، فاصبحت بيروت عاصمة التنوخيين منذ سنة ٨٧٥ . وبينمـا كانت مصر تنفصل عن بغداد وتستقل تحت حكم احمد بن طولون منذ سنة ٨٦٧ ميلادية عمد الجبليون من جبال لبنان المشرفة على بيروت إلى الهجوم على المدينة . ويبدو ان هذا الهجوم كان مباغتاً وعنيفاً اذ جرت المعركة بينهم وبين النعمان عند نهر بيروت «ودامت المعركة اياماً انتصر بعدها النعمان انتصاراً ساحقاً جعله يرسل رؤوس القتلى والاسرى الى بغداد ، فاكرم موسى بن بغا رسله وسر بظفره وكتب المتوكل (؟) اليه كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال ، واقره على ولايته تقريراً له ولذريته ، وارسل اليه سيفاً ومنطقة وشاشاً اسود (شعار العباسيين) وكتب اخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها . واعاد رسله مكرمين . فتقلـد الامير السيف وشد المنطقـة ولف الشاش ودعا لامير المؤمنين وزينت البلاد والمدن ، وهادنه الشعراء بالتهاني واشتد امره وعظـم شأنه . » (الشدياق — اخبار الاعيان ج ٢ صفحة ٢٨٤) .

هـذه الرواية بالرغم من أهميتها في انها تشير الى تحول الامارة

التنوخية الى امارة وراثية معترف بها من قبل الخليفة؛ الا انها ضعيفة ، لانها جعلت الحادثة في عهد المتوكل . والمعروف ان المتوكل توفي سنة ٨٦٢ ميلادية (٢٤٧ هجرية) فتكون الحادثة المذكورة قد جرت بعد مقتل المتوكل بسبع سنوات ، اي في عهد الخليفة الموفق بالله ، وممـا يؤيد هذا الرأي ان موسى بن بغا اصبحت له الكلمة في بغداد سنـة ٢٥٦ هجرية (٨٧٢ ميلادية) وهو الذي ارسل الرسائل والهدايا الى الامير النعمان .

وقد ساعد العمر الطويل لهذا الامير ان يركز دعائم اول امارة لبنانية وراثية في التاريخ الوسيط اذ حكم من سنة ٨٧٠ الى ٩٣٦ ميلاديـة ، في فترة مضطربة جداً بين قيام الحكم الطولوني في مصر وقيام الحكـم الاخشيدي ووصول القرامطة الى سوريا ولبنان . في كل ذلك تمكن النعمان من ان يحافظ على كيان امارته وان يبقيها بعيدة عن الاخطار .

٢ — لبنان والدولة الطولونية

كانت العناصر التركية قد بدأت تظهر على مسرح السياسة في بـلاد الشـام منذ اواخر عهد المتوكل ، ذلك ان الاتراك كانت قد اصبحت لهم مكانة في بغداد منذ عهد المعتصم . وقد تمكن التركي اماجور مـن القضاء على ثورة عيسى بن الشيخ التي قامت في لبنان وسوريا . واصبح اماجور حاكماً بعدها على بلاد الشام ، بينما كان النعمان يسيطر عـلى لبنان وقسم من فلسطين .

وفي الوقت ذاته تمكن احمد بن طولون من السيطرة على مصر . ثم انتهز فرصة وفاة والي الشام اماجور ليزحف على فلسطين وسوريـا ولبنان ، ويتبع المنطقة بكاملها بمصر . وعمد احمد بن طولون الى صك النقود باسمه والاستقلال بالبلاد عن بغداد (سنة ٨٧٩) .

وتأكد للامير النعمان بن عامر امير الدولة ان بغداد انتهى دورهـا، فاخلص للعهد الجديد في مصر ، دون ان يقطع الصلة الروحية مع بغداد، واقره احمـد بن طولـون في امارته (الكامل — ابن الاثير ج ٧ — ص ٣١٦) .

وبالرغم من ان الفترة كانت كثيرة التقلبات ، فقد تمكن النعمـان من المحافظة على الاستقرار في امارته . كما ان الموارنة في الجبل اخلدوا للسكينة ، فلم يسجل خلال هذه الفترة اضطراب يذكر . ويبدو من الرخـاء والازدهـار اللذين عرفهما عهد احمد بن طولون ان المنطقة بكاملها شملها هذا الازدهار . وقد رأت بيزنطية ان تستغل الخصام القائم بين مصر الطولونية وما يتبعها من جهة وبغداد من جهة ثانية ، فكانت تتصل بأحمد بن طولون بالهدايا والتفاهم ، وربما ان ذلك التودد كان لكسب الوقت امام الزحف البيزنطي البطيء الذي بدأه البيزنطيون منذ وصول العائلة المقدونية الى الحكم مستغلين التدهور الداخلي الذي اصاب بغداد (ثورة الزنج) .

ولما توفي احمد بن طولون ، اعلن واليه على الشام احمد بن دوغياش الانتقاض على الحكم الطولوني ومال مجدداً الى العباسيين مع بقية امراء ابن طولون في شمالي سوريا واستدعوا الخليفة العباسي المعتضد وانتزعوا بلاد الشام من الحكم الطولوني . وقد طلب الامير احمد بن دوغياش من الامير النعمان المساعدة ، ولكن النعمان رفض ذلك وظل على ولائـه للطولونيين (اخبار الاعيان — الشدياق ج ٢ صفحة ٢٨٤).ثم جـاءت معركة الطواحين في الرملة في فلسطين بين جيش خمارويه بن طولون وقوات الخليفة والولاة معه تثبت بعد نظر الامير النعمان ، فقد هـزم الخليفة هزيمة منكرة ، وعادت بلاد الشام الى الحكم الطولوني (سنة

٢٧١ هجرية ٨٨٤ ميلادية) . فحكم خمارويه ثم حكم ابنه جيش ثم ابنه هارون . وقد قتل خمارويه في دمشق ، ثم قتل ابنه جيش بعد اقل مـن سنة (٢٨٤ هجرية) وحكم هارون بن خمارويه . وفي عهده اضطربت الاحوال وبدأ التفسخ ودبت الفوضى في البلاد . وقد حاول بعض الامراء التنوخيين من لبنان : الامير محبوب والامير هلال شكاية الامير النعمان لوالي الشام الطولوني طغج بن جف ، ولكن النعمان أنقذ البلاد مـن فوضى التدخل بقتل الاميرين في عنجر ثم عمد الى قتـل عائلتيهما لاستئصال اسباب الفتنة (الشدياق — اخبار الاديان ج ٢ ص ٢٨٤) .

وبينما كانت الدولة الطولونية تنهار بسرعة وصلت طلائع القرامطة الى بلاد الشام ، لتبدأ صفحة اضطرابات جديدة .

٣ — لبنان والقرامطة

القرامطة فرقة كبيرة من الشيعة الاسماعيلية تنتسب من حيث اسمها الى قرمط حمدان بن الاشعث ، وهي فرقة باطنية نظمت نفسها تنظيماً دقيقاً واعتمدت في دعوتها على مساوىء الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت تحت الحكم العباسي . وتمكن القرامطة من انشاء دولتهم في منطقة الخليج العربي بعد فشل حركة الزنج الشهيرة . ثم توسعوا غرباً حتى وصلوا الى بلاد الشام سنة ٩٠١ ميلادية في اواخر عهد هارون بن خمارويه بن طولون . وكان على رأس القرامطة المهاجمين الشيـخ يحيى « صاحب الناقة المأمورة » فاتصلوا بوادي التيم من لبنان حيث كان للتنوخيين مركز قوي . بالاضافة الى ان مقدم القرامطة كان من بني تنوخ وهو جهير بن محمد التنوخي (الدروز — سليم ابو اسماعيـل ص ١٦٥) فجرد عليه والي الشام الطولوني طغج بن جف بعد ان

استعان بالحسين بن حمدان التغلبي ، وكانت المعركة في وادي القرن بين (لبنان وسوريا) فانتصر القرامطة وتنوخيو وادي التيم . ويظهر هـذا التحالف بين تنوخيي وادي التيم والقرامطة ان الدعوة الشيعية كانت منتشرة في المناطق الجنوبية من لبنان ، لذلك ظهر التحالف بسرعة ، بالاضافة إلى العصبية القبلية .

ولكن طغج الوالي الطولوني استنجد بالعباسيين من بغداد وبالمصريين فانجدوه وتمكنوا جميعاً من صد القرامطة على ابواب دمشق وقتل يحيى مقدمهم وتشتتت جموعهم في المناطق الجبلية المجاورة . ثم تزعـم القرامطة في سوريا صاحب الشامة الحسين شقيق يحيى ، فجمع القرامطة وحاصر دمشق وارسل الدعوة الى البقاع (بقاع كلب) ووادي التيم وجبل لبنان فاجابوه الى دعوته وتقرمط معظم الناس . (خطط الشام ج ١ ص ٢٠٧) . وسيطر على الشام مصالحة. ثم جعل عاصمته حمص ونادى بنفسه اميراً للمؤمنين وصك النقود باسمه فكتب عليها : قـل جاء الحق وزهق الباطل ، وبذلك يكون صاحب الشامة قد أوجد اول حكومة قرمطية في بلاد الشام . الا ان بعلبك رفضت القرمطية ، فقتل صاحب الشامة معظم اهاليها . وقتل كذلك والي الشام الطولوني طغج.

وكانت سيطرة القرامطة في هذه الفترة (سنة٩٠١ـ ٩٠٢) ايذاناً بانتهاء الحكم الطولوني.ولكن القرامطة اختلفوا مع الدعاة الاسماعيليين في سلمية (شمالي سوريا). واستغل المكتفي العباسي انهيار الطولونيين في الشام وخـلاف القرامطة مع الدعـاة الفاطميين ليجهز جيشاً عظيماً من العراق يجتاح به بلاد الشام ويقضي على دولة القرامطة في المنطقة ، ويعيد البلاد مجدداً تحت الحكم العباسي (سنة ٩٠٥ ميلادية) .

لم يكن يعني زوال الدولة القرمطية القصيرة العمر ، زوال الدعـوة القرمطيـة ، فقد لجأ المتقرمطـون الى المناطق الجبلية في غربي سوريا،

ومنها لبنان ليعتصموا بها خوفاً من المطاردة العباسية ، ونزل جماعة منهم في اعالي الشوف وكسروان ، فبنوا فيها بلدتهم الاولى عين داره . ذكرى لبلدتهم في الاحساء ، وتيروش بلدة في اعالي جبل عين داره . والعبادية ذكرى لاحدى دور الدعوة في سواد الكوفة ، وعبيه ، نسبة الى ميـاه لبني بكر بن وائل ، والمختارة نسبة الى محلـة كانت لهم في الجانب الشرقي من بغداد ، وحماه التي تقع في الجرد الجنوبي مـن جبل لبنـان ، ودير كوشه ذكرى لاحدى قراهـم التي تقع على نهر العاصي قرب حلب . وزكريت التي تقع قرب عين عار في كسروان المتن ذكرى لمركزهم الاول في ما يجاور اليوم امارة قطر على الخليـج الفارسي (الدروز — سليم ابو اسماعيل ص : ١٨١) .

وعين الخليفة المكتفي والياً على الشام احمد كيغلغ سنة ٢٩١ هجرية (٩٠٤ ميلادية) وكان عليه . بالتعاون مع الحسين بن حمدان التغلبي مطاردة القرامطة في بلاد الشام حين ظهورهم ، ومحـاربة الطامعين بالحكم ،والتربص بدعاة الاسماعيليين ، ولكنهما كانا يحاولان الانفصال ببلاد الشام عن الخلافة العباسية . ويبدو خلال هذه الفترة ان تنوخيي الغرب بزعامة الامير النعمان لم يماشوا القرامطة في دعوتهم وظلـوا على ولائهم للعباسيين بدليل ان الامير النعمان زوج ابنه الامير منذر من ام كلثوم حفيدة هارون الرشيد (سنة ٩٢٤ ميلادية) حين مرت مـع عائلتها ببيروت واقامت مدة طويلة . ومن هذا الزواج رزق الامير منذر بولدين هما تميم ومسعود .

وتوفي الامير النعمان بن عامر — امير الدولة — سنة ٩٣٦ ميلادية .

٤) لبنان بين الاخشيديين والحمدانيين

الاخشيديون ينتسبون الى محمد بن طغج الذي كان والده طغج والياً على الشام في عهد الطولونيين . وقد استولى محمد بن طغج على مصر والشام وتمكن من الحصول على لقب أخشيد (لقب فارسي بمعنى امير الامراء) والاخشيديــون كالطولونيين من الاتراك . وقــد ساعدت الثورات العديدة في مصر وسوريا الاخشيد على وصوله الى الحكـم لصالح الدولة العباسية. فلما تمكن من ذلك، اسس في مصر دولة منفصلة عــن بغداد على غرار مــا كان احمد بن طولون قد عمله من قبل . وساعده في الاستيلاء على البلاد قيام محمد بن رائق في بلاد الشام بحركته الانفصالية عن بغداد . ولكن الأخشيد قضى على حركة ابن رائق وضم بلاد الشام اليه .

كــانت فترة الحكم الاخشيدي فترة اضطراب متواصلة في بلاد الشــام (٩٣٥ – ٩٦٩) . فقد وصل الاخشيــد الى الامارة في مصر والشام ، والاهواء تلعب بالمنطقة من كل جهة . فالحركة القرمطيــة الاسماعيلية تتمشى في بلاد الشام ولبنان ، والحمدانيون يعملون عــلى تأسيس امارة خاصة بهم في شمالي سوريا ، والدولة العباسية تحاول جاهدة استعادة البلاد ، والقبائل العربية من بني كلاب تحاول ايجاد امارة لها . في مثل هذا الجو ولدت هذه الدولة الاخشيدية وعاشت ، وتمكنت من القضاء على معظم اخصامها ما عدا العائلة الحمدانية التي اتخذت من حلب مركزاً لها وذلك ابتداء من سنة ٩٤٤ ميلاديــة . واصبحت المنطقة في تجاذب بين الاخشيديين والحمدانيين واتخذ هــذا التجاذب طابع العنف ، لان الاخشيديين كانوا سنّة ، بينما كان الحمدانيون شيعة .

ولقد كان الحكم الاخشيدي عبارة عن حكم شخصين هما : محمد بن طغج الملقب بالاخشيد ، وكافور الاسود مولى الاخشيد وهو الذي برز بعد ذلك وحكم باسم الاخشيديين حوالي ربع قرن من الزمن . وفي اواخر عهده (سنة ٩٦٧ – ٣٥٦) حصل حريق كنيسة القيامة في القدس بسبب الخلاف ما بين الوالي الاخشيدي محمد بن اسماعيل الصنهاجي وبطريرك المدينة . وادى هذا الحادث الى النزاع الدموي الخطير مع البيزنطيين .

وانتهى حكم الاخشيديين في مصر بوصول القوات الفاطمية من شمالي افريقيا ، وانتزاعها البلاد برمتها .

خلال هذه الفترة المضطربة كان الحكم في جبل لبنان وبيروت في أيدي التنوخيين وعليهم الامير المنذر بن النعمان ، ويبدو من سكوت التاريخ ان المنطقة اللبنانية ظلت هادئة وبعيدة عن المشاكل المجاورة .

امــا الحمدانيون فكانــوا قد برزوا في سياسة بلاد الشام في العهد الطولوني ، ثم تمكنوا من الاستيلاء على شمالي سوريا ، وجعلوا حلب عاصمة لهم . وبرز منهم سيف الدولة الذي جعل من امارته الصغيرة قوة كبيرة حاولت التوسع في وسط وجنوبي سوريا . ولكن هذه الامارة لم تشمل جميع المناطق اللبنانية ، بل اكتفت بالمناطق الشمالية .

وكان الحمدانيون متشيعين ، فاسهموا في بث التشيع في الشمال ، بينما كانت القرمطية الباطنية تنتشر في الجنوب ، وبقيت منطقة بعلبك متأثرة بالسنة ومرتبطة بالاخشيديين في دمشق .

اما ما برز من الحمدانيين في عهد سيف الدولة فكانت الغزوات المتواصلــة ضد البيزنطيين الذين كــانوا يتوسعون ببطء على حساب الضعف العباسي . وقيل ان سيف الدولة غزا البيزنطيين اربعين غزوة.

ولعل الغزوات الحمدانية ، بالاضافة الى حريق كنيسة القيامة ، وبالاضافة الى تدهور الخلافة العباسية وتفسخ البلاد الى امارات وممالك منفصلة كان كل ذلك السبب في حدوث امرين مهمين : الاول احتلال الفاطميين لمصر وبلاد الشام ، والامر الثاني هو محاولة البيزنطيين استعادة بلاد الشام والبدء بما يمكن تسميته: الحروب الصليبية البيزنطية .

وقد سجل لنا بعض الرحالة من القرن العاشر الميلادي ملاحظات عما رأوه في لبنان كابن الفقيه الذي كتب عن الساحل اللبناني واشار الى حياة النساك في الجبال ، والاحراج اللبنانية ، واسترعى انتباهه التفاح اللبناني .

وكتب المقدسي الرحالة المشهور عن الحديد المتوفر في جبال بيروت ، وكثرة النساك والاحراج وكثرة انتاج السكر والزجاج في صور ، وعن بعلبك قال المقدسي انها مشهورة بالبانها ومشتقاتها وعنبها ، وعن جبل عاملة انه مشهور بالعسل والعنب والزيتون والفواكه وعيون الماء . وعن جبل لبنان انه كثير الاشجار والثمار المباحة ، وفيه عيون ضعيفة يتعبد عندها قوم قد بنوا لانفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات ويرتفقون بما يحملون منها الى المدن من القصب الفارسي وغيره .

واشار الرحالة الفارسي ابن خرداذبه الى عرقة وطرابلس وبيروت ومناعة حصونها .

يستدل من هذه الملاحظات التي خلفها الرحالة في القرن العاشر ان الصناعة في لبنان كانت مزدهرة ، وكذلك الزراعة ، وان التجارة كانت نشيطة ، أما الجبل فلم يكن بعد قد ازدهرت احواله.

الفصل السادس

لبنان بين الفاطميين والبيزنطيين

(٩٦٩ — ١٠٧٠)

١) الفتوح المضطربة .
٢) التدخل البيزنطي .
٣) السيطرة الفاطمية .
٤) حركة علاّقة .
٥) مذهب الموحّدين « نشأة الدروز »
٦) ازدهار المدن اللبنانية .
٧) تدهور الحكم الفاطمي .

• • •

١ — الفتوح المضطربة

اذا كانت فترة الحكم الاخشيدي والحمداني يكتنفها الغموض بالنسبة الى لبنان ، فان فترة الحكم الفاطمي يكتنفها الاضطراب . ومرد ذلك الى ظهور البيزنطيين في سوريا ووصول الفاطميين الى مصر

وسوريا ، وعودة القرامطة الى التدخل في المنطقة بكاملها . لقد اصبح لبنان بين هذه القوى في اضطراب سياسي متواصل . ففي سنة ٩٦٨ ميلادية (٣٥٨ هجرية) اجتاح الفاطميون مصر بقيادة جوهر الصقلي فانهى بذلك حكم الاخشيديين ، ووجه جيشاً الى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي . وقد ارسل القائد الفاطمي جعفر لامير التنوخيين المنذر بن النعمان الملقب بسيف الدولة « يدعوه الى بيعة مولاه ، فاستشار الامير عشيرته ، واجابه جواباً لطيفاً ليرى ما يكون منه » (الشدياق — اخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٨٦) . واحتل الفاطميون دمشق بالقوة ، وعينوا ريان الخادم حاكماً على طرابلس وابن الشيخ في صيدا وهو رئيس المغاربة ، وظالم بن موهوب على بعلبك. اما الامير منذر فقد قصد القائد الفاطمي الى دمشق وبايعه عن الخليفة الفاطمي ، فاقره القائد الفاطمي في حكم الجبل . ويبدو من سهولة الفتح الفاطمي للمناطق اللبنانية ان هذه المناطق كانت متأثرة بالدعوة الفاطمية قبل وصول الجيش الفاطمي .

ولكن الفتح الفاطمي كان يقابله من جهة ثانية محاولة بيزنطية لاستعادة سوريا ، فقد تمكن الامبراطور البيزنطي نقفور في سنة ٩٦٨ من اجتياح شمالي سوريا واحتلال انطاكية وحمص وحماه واللاذقية وحلب (٩٦٧) وقد وصف يحيى الانطاكي حملة نقفور بما يلي : كانت غزوات نقفور قد اصبحت نزهة لجنوده ، لانه لم يكن يقف في وجههم احد ، فيتقدمون الى حيث يشاؤون ويدمرون ما يشاؤون دون ان يلتقوا بمحارب مسلم واحد او اي معارض كان . وبينما كان الحمدانيون يعلنون الولاء المذهبي للفاطميين، ويرسل الفاطميون حملة الى انطاكية لاستعادتها من ايدي البيزنطيين ، اذا بالقرامطة المتحالفين

مع العباسيين يشنون هجوماً كبيراً على دمشق ويقتلون القائد الفاطمي جعفر بن فلاح ، ويعينون القرمطي احمد بن مستور متولياً على دمشق باسم رئيس القرامطة الحسن الاعصم . وحاول احمد بن مستور القرمطي ان يستميل الامير المنذر امير جبل لبنان فرفض الامير وبقي على ولائه للفاطميين .

ثم وجه المعز لدين الله الخليفة الفاطمي قوة جديدة تمكنت من استرداد دمشق من ايدي القرامطة ، واسهم حاكم بعلبك الفاطمي ظالم بن موهوب في السيطرة على دمشق كما اسهم حاكم طرابلس الفاطمي ريان الخادم في القضاء على التمرد في دمشق وتهدئة الوضع فيها واصبح حاكماً عليها .

ورأى العباسيون ان يستغلوا هذه الفرصة فوجهوا القائد التركي هفتكين « أفتكين » الى دمشق ، فانتزعها من الفاطميين سنة ٩٧٤ ثم حاول الاستيلاء على بعلبك، فكتب الى الامير تميم بن المنذر امير التنوخيين « يطلب منه ان يوافيه بالرجال الى بعلبك ، وان لا يقبل ابن موهوب اذا التجأ اليه فاجابه جواباً غير شاف ، فوقع ذلك بقلبه ، ثم قدم الى بعلبك ، فانهزم ابن موهوب واختبأ عند الامير تميم . وكتب ابن موهوب الى المعز يخبره فامره بالاقامة في صيدا» . (الشدياق — اخبار الاعيان ج٢ صفحة ٢٨٦) .

ويبدو ان انتصار هفتكين التركي العباسي في دمشق والبقاع قد شجعه على مطاردة الفاطميين في فلسطين ، خاصة بعد ان وصلته انباء موت المعز لدين الله الفاطمي . فاحتل هفتكين صيدا بعد قتال عنيف ضد المغاربة فيها وزعيمهم ابن الشيخ ومعه

ظالم بن موهوب العقيلي . يقول ابن الاثير في الكامل (ج ٨ ص ٦٥٧) : «فعمد (اي هفتكين) الى صيدا فحصرها وبها ابن الشيخ ، ومعه رؤوس المغاربة ، ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي ، فقاتلهم وكانوا في كثرة فطمعوا فيه وخرجوا اليه ، فاستجرهم حتى ابعدوا ، ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو اربعة آلاف» ، ويذكر الشدياق في اخبار الاعيان (ج ٢ ص ٢٨٧) ان الامير تميماً ساعد ابن الشيخ وظالم بن موهوب في معركة صيدا ، ثم هزم واختبأ في شقيف تيرون ، وان احد الامراء التنوخيين وهو الامير درويش وقف الى جانب هفتكين في هذه المعركة ، مما جعل امير الشام العباسي هفتكين يعزل الامير تميماً عن امارة الجبل ويعين خلفاً له الامير درويش ويمنحه لقب فخر الدولة .

وحاول الفاطميون مجدداً ، بعد وصول العزيز بالله الفاطمي الى مركز الخلافة ان يستعيدوا لبنان وبلاد الشام ، فوجه العزيز قائده جوهر ، فحاصر دمشق ، وانقسم التنوخيون اللبنانيون ، اذ وقف قسم منهم وعلى رأسهم الامير تميم مع القائد جوهر ، بينما وقف الفريق الآخر بزعامة الامير درويش الى جانب هفتكين العباسي . وتخوف هفتكين من ضراوة الهجوم الفاطمي فاستدعى زعيم القرامطة الحسن الاعصم ، فهزم جوهر في دمشق وفي فلسطين وانسحب الى مصر ، وانسحب معه الامير تميم وظالم وابن الشيخ .

ثم عاد العزيز في السنة التالية فوجه جيشاً كبيراً تمكن به من استعادة البلاد وهزيمة هفتكين وابعاد القرامطة واعادة الامير تميم الى امارته التقليدية في بيروت والغرب . واستقر الحكم في لبنان بأيدي الفاطميين .

٢ — التدخل البيزنطي

لقد حاول الفاطميون السيطرة على بلاد الشام بكاملها ، ولكن الحمدانيين في شمالي سوريا رفضوا الدخول في طاعتهم بالرغم من وحدة المذهب الشيعي الذي يجمع الفريقين. واضطرت الدولة الفاطمية الى مهاجمة الحمدانيين ، ولكن هؤلاء استنجدوا بالبيزنطيين ، مما أدى الى التدخل البيزنطي .

كان البيزنطيون يحلمون منذ مدة بعيدة باستعادة بلاد الشام من ايدي المسلمين ، وفعلا حاولوا ذلك مراراً ، وكانت حملة نقفور آخر هذه الحملات ، ونجم عنها احتلال انطاكية . وجاءت وفاة نقفور توقف حركة التوسع البيزنطي . الا ان وصول الامبراطور جان تزمسيس (٩٦٩ — ٩٧٦) المعروف بابن الشمشقيق ، اعاد حركة التوسع البيزنطي الى ذروتها ، فقد قام هذا الامبراطور سنة ٩٧٤ بهجوم واسع سيطر به على شمالي سوريا ووصل سنة ٩٧٥ الى لبنان فاحتل الساحل بكامله ما عدا طرابلس كما احتل بعلبك ، وفرض الضريبة على دمشق ، وقد وصف احد المؤرخين البيزنطيين المعاصرين له حملة يوحنا زمسيس على سوريا ولبنان فقال :

« كانت الشعوب في خوف عظيم من غضب زمسيس ، وتوسيع امبراطورية الرومان ، كانت أمامه الجماعات الاسلامية والارمنية والفارسية . ومن كل الجهات كان يأتيه الخضوع وطلب الرحمة ، وتقدم اليه الهدايا ، فوصل الى الرها والفرات وامتلأت الارض بمعسكرات الرومان . وسوريا وفينيقيا انداستا تحت اقدام الخيول الرومانية . وانتصر يوحنا انتصاراً عظيماً ، وصار سيف النصارى يحصد كالمنجل . »

ولكن هذه الحملة البيزنطية لم تركز للبيزنطيين حكماً في لبنان وسوريا ، وانما عملت على زيادة الفوضى والاضطراب في المنطقة. ثم انسحب البيزنطيون الى انطاكية ، وانهمكوا في مشاكل الامبراطورية المختلفة .

٣ – السيطرة الفاطمية

أمضى الخليفة الفاطمي العزيز بالله مدة حكمه ، وهو يحاول جاهداً التخلص من الحمدانيين ومن بعض ولاته في بلاد الشام الذين كانوا يحاولون الانفصال عن مصر والاستقلال بما لديهم . وقد تأثرت منطقة طرابلس بهذه الفوضى بسبب قربها من انطاكية منطقة النفوذ البيزنطي ، وقربها من منطقة حلب منطقة النفوذ الحمداني . واتخذ الفاطميون من طرابلس مركزاً رئيسياً لهم على الساحل اللبناني ، فتركز فيها الاسطول الفاطمي ، كما اصبحت مركز التموين .

وتدفقت هجرة كبيرة على المناطق الساحلية من لبنان من المغاربة ، ومنهم العائلة النكدية (اخبار الاعيان) . وقد رافق الحكم الفاطمي وتدفق المهاجرين دعوة دينية للاخذ بمذهب الفاطميين الشيعي . واعتمد العزيز بالله في نشر المذهب الشيعي الفاطمي على التساهل ومجالس الدرس المختلفة . ووصل به التساهل الديني الى درجة انه جعل بعض ولاته وحكامه من المسيحيين واليهود .

وقد ادى الاضطراب المتواصل في المنطقة الى انقسام الامارة التنوخية من حيث الولاء ، فتحزب بعض الامراء للفاطميين ، بينما تحزب فريق آخر للحمدانيين . ولكن هذا التحزب لم يمنع ان تشمل الامارة التنوخية الساحل اللبناني بكامله من طرابلس الى صور (الشدياق–اخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٨٨) .

وقد حاول العزيز تصفية الاضطراب في بلاد الشام وابعاد البيزنطيين ، فهيأ جيشاً كبيراً ، ولكنه مرض في الفترة ذاتها منذ ٩٩١، فقام الامبراطور باسيل الثاني سنة ٩٩٥ بهجوم كبير على شمالي سوريا وصل به الى مشارف طرابلس . وتوفي العزيز بالله سنة ٩٩٦ ميلادية (٣٨٦ هجرية) . واستلم الخلافة الحاكم بأمر الله .

٤ – حركة علاقة

ما ان وصل الحاكم الى الخلافة حتى انتشرت الثورات في انحاء فلسطين وسوريا ولبنان . وقد ساعد الوجود البيزنطي على هذه الثورات ومنها ثورة علاقة في صور . فقد قام سنة ٩٩٧ (٣٨٧ هجرية) علاّقة وهو احد الملاحين في صور ، واستقل بالمدينة وضرب النقود باسمه ، وكتب عليها : عز بعد فاقة الامير علاقة . ثم بلغته الانباء عن تحرك فاطمي . فاتصل بالبيزنطيين طالباً مساعدتهم . وفعلا ارسل البيزنطيون بعض سفنهم لنجدة علاقة ، ولكن الفاطميين وجهوا على المدينة جيشاً بقيادة ابي عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان ، ومعه اسطول فاطمي ، فحاصر المدينة براً وبحراً واصطدم بالسفن البيزنطية فانتصر عليها ، واضطر اهل صور الى الاستسلام . فاحتل القائد الحمداني المدينة ونهبها واخذ علاقة اسيراً وارسله الى مصر . وكانت نهاية المغامرة بسلخ علاقة وصلبه ، وقيل ان الفاطميين حشوا جلده قشاً ، انتقاماً منه . وعين الفاطميون الامير ابا عبد الله بن حمدان اميراً على صور . وقد ساعد في قمع هذه الثورة ابن شيخ حاكم صيدا وعلي بن حيدورة والي طرابلس .

٥ – مذهب الموحدين « نشأة الدروز »

تابعت قوات الحاكم زحفها شمالا حتى وصلت الى مشارف

انطاكية ، وعملت في الوقت ذاته على تشتيت قوى القبائل البدوية في انحاء فلسطين وبعض سوريا. ويبدو ان محاولة الحاكم استعادة انطاكية من البيزنطيين جعلت هؤلاء يعودون الى غزو البلاد ، فقام الامبراطور باسيل الثاني مجدداً سنة ٩٩٩ ميلادية بهجوم كبير اجتاح فيه معظم المناطق الشمالية من سوريا ووصل الى طرابلس ، ونجم عن هذا الهجوم توقيع اتفاقية بين البيزنطيين والفاطميين لمدة عشر سنوات .

وقبل ان تنتهي مدة الاتفاقية امر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة وبعض الكنائس الاخرى ، وفرض على المسيحيين واليهود قيوداً شديدة (سنة ١٠٠٩ ميلادية) كانت سبباً فيما بعد للحروب الصليبية .

ورافق هذا التشدد من قبل الحاكم بأمر الله ضد اهل الذمة الدعوة الى المذهب المعروف بالتوحيد او مذهب « الدروز » ليكون خلاصة المذاهب والاديان . وقد ساعده على ذلك خضوع البلاد الشامية بكاملها للحاكم ، بما في ذلك مملكة حلب التي انتهى حكم الحمدانيين فيها سنة ٤٠٤ هجرية (١٠١٣ ميلادية) . وقد وجد هذا المذهب الارض الخصبة له في الجنوب الشرقي من لبنان (وادي التيم) كما انتشر في مناطق مختلفة من بلاد الشام .

وقد اعلن الموحدون (الدروز) في وادي التيم دعوتهم بتشجيع من ولي عهد الحاكم في دمشق : عبد الرحمن بن الياس ، ولكن هذا الاعلان جلب عليهم المشاكل فقد هاجمهم امير الاكراد ابن تالشليل فقتل منهم وسبى واحرق واهلك خلقاً . (خطط الشام ج ١ ص ١٤٧).

وبعد الحاكم بأمر الله تولى ابنه الظاهر خلافة الفاطميين (سنة ١٠٢١ ميلادية) فانتشرت الفوضى في لبنان وبلاد الشام، واقتسم المملكة ثلاثة

من امراء القبائل العربية : سنان بن عليان امير بني كلب في المناطق الداخلية وحسان امير بني طي في فلسطين وصالح بن مرداس امير بني كلاب في شمالي سوريا ولبنان . وكان صالح بن مرداس من اتباع الدعوة الجديدة في البدء ثم انقلب على الدعوة ، ولذلك اطلق عليه ابن القلانسي لقب « اللعين » وادى قيام القبائل وتعصب المذاهب الشيعية الباطنية كالنصيرية وبقايا القرامطة الى تجمد الدعوة وتقلصها .

وارسل الخليفة الجديد الظاهر لاعزاز دين الله قائداً تركياً نشيطاً من الفاطميين هو الامير انوجور منصور انوشتكين الدرزي(ورد اللقب عند ابن الاثير : الدزبري—البربري) فاجتمع اليه الموحدون في لبنان ، وقاتل انوشتكين ومعه الموحدون جموع القبائل التي قادها صالح بن مرداس وحسان بن طي ، في الاقحوانة بالقرب من طبريا (يقع فيها مقام النبي شعيب الشهير عند الدروز) وكان انتصار انوشتكين والدروز حاسماً فعلق القائد الفاطمي رؤوس القتلى على بوابة صيدا ، وارسل رؤوس الامراء الى مصر . (٤٢٠ هجرية — ١٠٣٠ ميلادية) .

كانت هذه المعركة امتحاناً لقوة الموحدين الدروز وصلابتهم ، لذلك كان لها مقام عظيم في التاريخ الدرزي :

« هناك في سهل الاقحوانة وجوار حطين كان بناء الطائفة الدرزية العسكري المتين ، وفيها تفيأت راية الامير انوشتكين ، وانتسبت بفخر اليه ، وهناك تعاقدت الايدي . وعلى مقام شعيب القائم في الاقحوانة ما بين طبرية وحطين عقدت المواثيق ، وتليت الاقسام ، وعرفت الدرزية باخوة سلاح ومعمودية دماء فرقة عسكرية ... وعلى هذا لا يمكن بحث الدرزية كمذهب ديني لانها ليست من ذلك في شيء (الدروز — سليم ابو اسماعيل صفحة ٦٥) .

قتل صالح بن مرداس في الاقحوانة ، « ولما عرف اصحاب صالح المقيمون في بعلبك وحمص وصيدا ورفينة وحصن ابن عكار قتلـه تخلوا عنها جميعها ، واستعادها اصحاب السلطان . » (خطط الشام ج ٢ ص ١٥٠) .

وعلى هذا الاساس فان الدولة المرداسية لم تدم في لبنان اكثر من اربع سنوات (٤١٦ هجرية الى ٤٢٠ هجرية) ثم استمرت بعد ذلك في حلب وشمالي سوريا .

واندفع انوشتكين شمالا لمتابعة قتاله لبني مرداس ، فاصطدم بالبيزنطيين. وقد نشطت الدعوة الجديدة الدرزية في شمالي سوريا ، وتوقف النزاع مع البيزنطيين بعد اتفاقهم مع الخليفة الفاطمي الظاهر على اعادة تعمير كنيسة القيامة في القدس وتعمير بقية الكنائس التي خربت سابقاً (سنة ٤٢٤ هجرية) كما تمكن انوشتكين من السيطرة على حلب (سنة ٤٢٠ هجرية) وبعد وفاة القائد انوشتكين استقر الدروز في الجبل الاعلى في شمالي سوريا وفي لبنان وفلسطين. واقفل باب الدعوة .

٦ — ازدهار المدن اللبنانية

بالرغم من الفوضى السياسية التي أصابت بلاد الشام والمناطق اللبنانية ، فان السواحل ظلت نوعاً ما بعيدة عن تأثير هذه الفوضى . ذلك ان بعلبك والمناطق البقاعية كانت هي التي تتأثر بسياسة امراء دمشق وبلاد الشام اكثر من الساحل . اما التنوخيون فقد ضعفت امارتهم خلال هذه الفترة ووقع الانقسام بين امرائهم مما اضعف كيانهم السياسي. واما الموارنة في شمال لبنان فقد اخلدوا الى السكينة . بينما انتشرت الدعوة الشيعية في معظم المناطق اللبنانية ، ومنها انبثقت الدعوة الدرزية

في اواسط العهد الفاطمي. ولكن البارز في هذه الفترة كان ازدهار المدن الساحلية اللبنانية . فقد زار الرحالة الفارسي ناصري خسرو (١٠٠٣ — ١٠٦٠) الساحل اللبناني وكتب في كتابه المشهور : سفرنامه ، وصفاً لما شاهد من ازدهار المدن اللبنانية وحياتها الاقتصادية والاجتماعية .

قال ناصري خسرو عن طرابلس :

« وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة الى المدينة من بلاد الروم او الغرب وغيرهما ... وللسلطان — امير المدينة — سفن تحمل تجارته الى بيزنطية وصقلية والغرب . واهل طرابلس كلهم شيعة .

وارباض المدينة تملأها البساتين وقصب السكر ينمو هنا بكثرة ومثله البرتقال والليمون والتمر . وقد كانوا ايام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر . وفنادق المدينة تتألف من اربع طبقات او خمس ، وقد تصل الى ست ... وبيوتها واسواقها حسنة البناء ونظيفة . »

وقال هذا الرحالة ن صيدا : « اسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت انها زينت بمناسبة قدوم السلطان ، او لامر آخر سار . فلما استقصيت عرفت ان ذلك امر عادي » .

وقال ناصري خسرو عن صور : « فنادقها ذات خمس طبقات او ست ، وشوارعها نظيفة تدل على الثروة الهائلة . وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن الشامية الساحلية . واكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سني . »

يتبين من هذه النصوص المعاصرة للفترة المذكورة ان الساحل كان مزدهراً فعلا ، وان التجارة كانت تتم مع مختلف المناطق في البحر

المتوسط ، وخاصة البلاد البيزنطيـــة . ونلاحظ التركيز عند الرحالـــة الفارسي عـــلى اهمية الفنادق وضخامتها ممـــا يدل على وجود اجانب بكثرة ، ويدل على الثروة كذلك ، اما تركيزه على سيطرة الشيعة فربما كان متأتياً من انه كان اسماعيلياً متعصباً ، ونلاحظ استغرابه بالنسبـــة الى قاضي صور السنّي ، علماً بان اكثر سكان المدينة شيعة .

ولا شك ان مدينة صور ومدينة طرابلس كان لهما المكانة الاقتصادية والاجتماعية على طول الساحل الشرقي للمتوسط (الساحل الشامي) .

٧ — تدهور الحكم الفاطمي

بعد وفاة الامير القائد انوشتكين الدرزي ، عادت بلاد الشام الى الفوضى ، فاستولى بنو مرداس على حلب واقاموا فيها دولة لهم تنازع الفاطميين. (ولعل قيام الدولة المرداسية كان احد اسباب اقفال الدعوة الدرزية) ثم استلم بلاد الشام الامير ناصر الدولة الحسن بن حمدان جاعلا هدفه محاربة المرداسيين. ثم استولى على صور ابن ابي عقيل واستقل بها، ثم استغل الفوضى القاضي ابن عمار فاستلم طرابلس واستقل بها . وحاول الفاطميون ان يستعيدوا مكانتهم في بلاد الشام بدون طائل . بينما كان التدخل البيزنطي يزداد في منطقة انطاكية واللاذقية .

واصبحت صور ، كما اصبحت طرابلس ، مستقلة وتعترف فقط بالولاء الفاطمي نظراً لتشيعهما . حتى كان الفتح السلجوقي التركي .

الفصل السابع

لبنان بين السلاجقة والفاطميين

(١٠٧٠ — ١١١٠)

١) إمارة بني عمار في طرابلس .
٢) إمارة بني عقيل في صور .
٣) لبنان تحت الحكم السلجوقي .

* * *

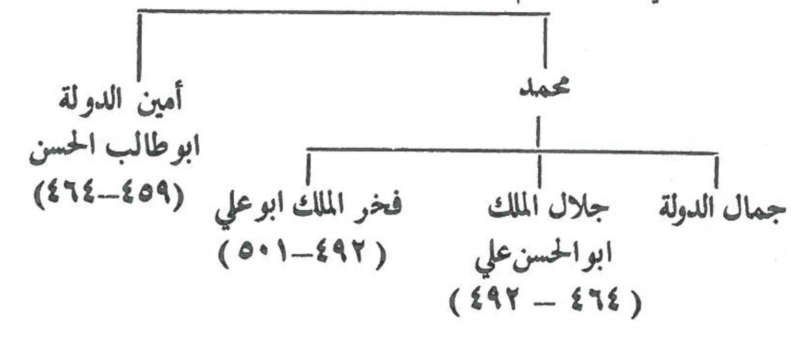
١ — امارة بني عمار في طرابلس

في اواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، كانت الدولة الفاطميـــة تمر في فترة من الانحلال والفوضى ، مما جعلها غير قادرة على حكـــم بلاد الشام . وفي الوقت ذاته كانت الدولة السلجوقية بدأت بالسيطرة على العراق ، وتتوسع على حساب الدولة البيزنطية . واصبح العـــالم الاسلامي الشرقي منقسماً الى قسمين : قسم يسيطر عليه الشيعة بزعامـــة الفاطميين ، وقسم تركي يسيطر عليـــه الاتراك السلاجقة الذين كانوا

متعصبين لمــذاهب السنة . ومنذ اواسط القرن الحادي عشر الميــلادي اصبحت بلادنا واقعة تحت تجاذب الدولتين الفاطمية والسلجوقية . فأدى ذلك الى قيام امارات محلية وطنية في طرابلس ، وحلب وصور ودمشق وفلسطين . وكان أبرز هذه الامارات ، امارة بني عمار في طرابلس .

أسس هذه الامارة (حسب قول المقريزي) القاضي الاجل أمين الدولة ابو طالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن ادريس بن ابي يوسف الطائي . ويرى اكثرية المؤرخين ان استقلال القاضي ابن عمار بطرابلس كان سنة ٤٦٢ هجرية (١٠٧٠ ميلادية) بدليل تدخله بين امير الجيوش الفاطمية بدر الجمالي والامير محمود بن مرداس امير حلب سنة ٤٥٩ هجرية (١٠٦٧ ميلاديــة) واصلاحه الحال بينهما ، مما يدل على انه كان ما يزال قاضياً وليس مستقلا بالمــدينة . وقد حكم بعد استقلالــه بسنتين ثم توفي سنة ٤٦٤ هجريــة . ويعود الفضل الى هذا القاضي بانشاء المكتبة الشهيرة في طرابلس ، وهي المكتبة التي كانت تضم اكثر من مائة الف مجلد في مختلف العلوم والآداب. وكان ابن عمار هذا اديباً مؤلفاً بالاضافة الى شهرته في الفقه والقضاء .

واستلم الامارة بعد القاضي المذكور ابن اخيه جلال الملك ابــو الحسن عــلي الذي حكم حوالي ٢٨ عاماً (٤٦٤ ــ ٤٩٢) .



ويعود الفضل الكبير في الحفــاظ على استقلال طرابلس وتوسيع امارتها من جبلة شمالا الى جبيل جنوباً الى القاضي جلال الملك ، كما يعود اليه الفضل كذلك في وضع سياسة مرنة تجاه الفاطميين وتجــاه السلاجقة الاتراك ، فهو لم يقطع علاقته بالخليفة الفاطمي بسبب تشيعه وتشيع اكثرية السكان في امارته ، وفي نفس الوقت وقف يتصرف مع السلاجقة كصديق وحليف ، وبذلك حافظ على امارته . ومن ذلك ان صهره الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة حاول الاستقلال بدمشق فهاجمه الفاطميون فهرب ملتجئاً الى طرابلس ، ولكن جلال الملك سلمه للفاطميين في القاهرة فاعدم هناك . وعندما جاء السلاجقة الى بلاد الشام بقواتهم الضخمة هاجموا امارة طرابلس وانتزعوا من بني عمار حصن عرقة الشهير وضربوا الحصار على طرابلس ، ولكن جلال الملك راسل امراء السلاجقة ودفع مبلغ ٣٠ الف دينار وأبرز بالحيلة مناشير مــن السلطان السلجوقي تنص على ابقاء طرابلس في حكم بني عمار ، فنجحت حيلته ونجا من السلاجقة (الكامل لابن الاثير ج ١٠ ص ٢٠٣) وكانت مدينة جبلة تحت الحكم البيزنطي ، فأعان جلال الملك ابن عمار قاضي جبلة ابن صليحة على الانفصال عن البيزنطيين ، ثم ضمها الى امارته وبقي ابن صليحة قاضياً ومتسلماً على جبلة من قبل جلال الملك حتى وفــاة هذا الاخير سنة ٤٩٢ هجريــة (١٠٩٨ م) فاستلم الامــارة في طرابلس اخوه فخر الملك ابو علي ، وحكم من سنة ٤٩٢ الى٥٠١ هجرية ، وهي الفترة المناسبة لبدء الحروب الصليبية حتى سقوط امارة طرابلس في ايدي الصليبيين .

واشتهر فخر الملك بمقدرته في حماية امارته من مختلف الاعــداء المحيطين به ، وقد حاول الاستنجاد بالعباسيين فذهب الى بغداد في

محاولة يائسة لانقاذ طرابلس من السقوط امام الصليبيين . وجرت أثناء غيابه محاولة انقلابية في طرابلس نظمها ابن عمه ابو المناقب بن عمار . وبعد سقوط امارة طرابلس انتقل الى دمشق حيث ولي منطقة الزبداني فبقي فيها حتى وفاته سنة ٥١٢ هجرية .

ويعتبر عهد عائلة بني عمار في طرابلس من ازهى عهودها التاريخية من الناحية العلمية والتجارية والزراعية والسياسية (مكتبة بني عمار — الفنادق — نهر ابي علي) .

٢ — امارة بني عقيل في صور

اسس هذه الامارة القاضي عين الدولة بن ابي عقيل سنة ٤٦٢ هجرية أي في نفس السنة التي استقلت فيها طرابلس مع بني عمار . ولكن الفاطميين ارسلوا قائد الجيوش بدر الجمالي لاستردادها نظراً الى اهميتها، ولأنها تشكل المرفأ الرئيسي لمنطقة دمشق . وحاصر الفاطميون صور الا ان ابن ابي عقيل اسرع يستنجد بالاتراك من دمشق وعليهم الامير قرلو، فارسل اليه أحد عشر ألفاً من الجنود فحاصروا مدينة صيدا التي كانت لا تزال تابعة للفاطميين ، فاضطر بدر الجمالي الى فك الحصار عن صور . فعاد الاتراك عن صيدا ، ثم عاد القائد المصري « فشد الحصار بحراً وبراً على صور لمدة سنة وضيق على اهلها ، حتى اكلوا الخبز كل رطل بنصف دينار ولم يبلغ غرضه فرحل منها » (الكامل لابن الاثير — ج ١٠ — ص ٦٠) .

وقد مكن هذا الثبات لابن ابي عقيل في صور من ان يثبت دعائم امارته له ولعائلته من بعده . ولكنه بالرغم من استقلاله فانه لم يقف موقف العداء من الفاطميين ودليل ذلك ان امير دمشق المعلى بن حيدرة هرب من دمشق ومنها الى بانياس ثم وصل الى صور ملتجئاً فمنعه

ابن ابي عقيل من البقاء في صور ، فاضطر للذهاب الى طرابلس (كان المعلى صهراً لجلال الملك) وانتهى الامر به في القاهرة حيث قتل .

وزادت صور مكانة حين اصبحت دمشق والمناطق البقاعية بأيدي السلاجقة ، فاصبح بامكانها ان تستفيد من عداوة الفريقين لبعضهما البعض .

ولكن اولاد ابن ابي عقيل خرجوا عن سياسة التوازن،ودخلوا في تبعية السلاجقة في دمشق الذين كان على رأسهم تاج الدولة تتش شقيق ملكشاه . لذلك عمد المصريون الفاطميون مجدداً الى محاصرة المدينة سنة ٤٨١ هجرية وتمكنوا من انتزاعها من حكم اولاد ابن ابي عقيل، وعينوا عليها حاكماً جديداً فاطمياً لقبه منير الدولة الجيوشي . واحتلوا كذلك صيدا وجبيل. ولكن الحاكم الجديد حاول بعد ذلك باربع سنوات(٤٨٦هجرية) ان ينفصل عن الفاطميين ويعود الى حظيرة السلاجقة، فثار اهالي صور واعلنوا تمسكهم بتشيعهم؛ وادى ذلك الى تدخل الجيش الفاطمي المصري واحتلال صور ، وفرض غرامة كبيرة على البلد بقيمة ٦٠ الف دينار. اما والي المدينة وأعوانه فقد سيقوا الى مصر وقتلوا جميعاً فيها (الكامل لابن الاثير ج ١٠ ص ٢٢٣) ثم عين المصريون والياً جديداً على صور اسمه كتيلة ، فما ان استقر له الامر حتى اعلن عصيانه واستقل بالمدينة عن الفاطميين سنة (٤٩٠) . فارسل الخليفة الفاطمي المستعلي ابن المستنصر جيشاً الى صور ، فحاصروا المدينة وضيقوا على جميع من فيها ، ثم افتتحوها بالسيف ، وقتل فيها خلق كثير ، ونهب منها المال الجزيل ، واخذ الوالي اسيراً وحمل الى مصر فقتل بها (الكامل لابن الاثير ج١٠ ص ٢٦٤) . وبقيت صور بعد فشل ثوراتها المتكررة بايدي الفاطميين حتى وصول الصليبيين .

وهكذا يبدو ان صور لم تتمكن من الاستقلال لمدة طويلة كما حدث لطرابلس ، بالرغم من المحاولات المتعددة التي قامت بها خلال حوالي اربعين سنة .

٣ – لبنان تحت الحكم السلجوقي

بينما كان بنو عمار يستولون على طرابلس ومنطقتها ويستقلون بها عن الفاطميين ، ويتبعهم في نفس الخطة ابن ابي عقيل في صور ، كانت المناطق الداخلية من سوريا مع دمشق تسقط تحت سيطرة دولة تركية نشيطة هي دولة السلاجقة التي كانت تعمل لبسط نفوذ الخلافة العباسية والقضاء على الفاطمية. ففي سنة ١٠٧٩ ميلادية (٤٦٨ هجرية) تدفقت جيوش السلاجقة على دمشق بقيادة اتسيز (اقسيس) السلجوقي فاذاقتها اقسى انواع العذاب وعمت فيها المجاعة. ثم دخلها تاج الدولة تتش بن الب ارسلان الذي اقطعه اخوه السلطان ملكشاه بلاد الشام (سنة ٤٧١ هجرية) ، اما البقاع فتأخر سقوطه بيد السلاجقة حتى سنة ٤٧٦ هجرية عندما سلم ابن صقيل حاكم بعلبك الفاطمي المدينة لتاج الدولة تتش . وقد ارسل تاج الدولة الى الامراء التنوخيين في الغرب كتاباً باسم اميرهم شجاع الدولة ابي الغارات يدعوهم بموجبه الى الطاعة والاعتراف بتبعيتهم للسلاجقة والطلب منهم حفظ البلاد من غارات الفرنجة والجبليين .

وهكذا اصبح لبنان موزعاً بين حكومات محلية وسيطرة سلجوقية وبدا ان النفوذ الفاطمي قد انتهى من البلاد . ولكن الفاطميين لم يستسلموا للامر الواقع فقد كانت فلسطين باقية بيدهم ، ولذلك ارسل الفاطميون جيشاً كبيراً جهزه بدر الجمالي (الارمني الاصل) وجعل على رأسه القائد الفاطمي نصير الدولة الجيوشي فاحتل صور وصيدا

وعكا واندفع الى البقاع وحاصر بعلبك فسلمها اليه واليها ابن ملاعب واعلن الولاء للفاطميين. ثم حاول الفاطميون القضاء على امارة بني عمار فلم يتمكنوا ، كما انهم هاجموا دمشق مراراً ولكن السلاجقة ظلوا مسيطرين فيها . ثم عاد تاج الدولة تتش فهاجم بعلبك واستردها من يد ابن ملاعب الموالي للفاطميين . وبقيت سيطرة الفاطميين في جنوبي لبنان وسيطرة السلاجقة في البقاع ، وسيطرة التنوخيين في بيروت والجبل وسيطرة بني عمار في طرابلس والشمال وسيطرة مقدمي الموارنة في جبال الشمال. حتى مجيء الصليبيين اي حتى اواخر القرن الحادي عشر (١٠٩٨ ميلادية) .

اما التوزيع الطائفي في لبنان فكان كما يلي : الشيعة في الجنوب وبعض البقاع وطرابلس والشمال ومنطقة جبيل . واقليات منهم في بقية المناطق وكانت الدرزية في وادي التيم وبعض الشوف وفي الغرب والمتن ، وكانت السنة في بيروت وبعلبك وصيدا ، وكان المسيحيون في جبال طرابلس وفي بعض الاقسام الجبلية الشمالية وكانت النصيرية في وادي التيم وعكار .

بهذا التوزيع المذهبي الذي سببه الاحتماء بالجبال اللبنانية قابل اللبنانيون الحملة الصليبية الاولى .

الفصل الثامن

الاحتلال الصليبي المناطق اللبنانية

(١٠٩٨ — ١١٢٤)

١) مقدمة عن الحركة الصليبية في الغرب والشرق .
٢) مرور الصليبيين في الساحل اللبناني .
٣) سقوط امارة بني عمار في طرابلس والشمال .
٤) سقوط بيروت .
٥) سقوط صيدا والمناطق الجنوبية .
٦) مهاجمة الصليبيين للبقاع ، واحتلال جبل عامل .
٧) سقوط صور .
٨) تنظيم الحكم في المناطق الصليبية من لبنان .

* * *

١ — مقدمة عن الحركة الصليبية في الغرب والشرق

بعد ان ضعف المد الاسلامي في الغرب ، واستقر المسلمون في اسبانيا وجنوبي فرنسا وصقلية ، اخذت اوروبا تقوم بحركة معاكسة تهدف

الى طرد المسلمين من المناطق المحتلة ، وقد بدأت هذه الحركة في جنوبي فرنسا منذ اواخر القرن التاسع واستمرت في القرن العاشر ، ثم تمكن النورمان من السيطرة على صقلية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر . وكانت الانقسامات السياسية والدينية الاسلامية في شمالي افريقيا واسبانيا من العوامل التي سبّبت نجاح الزحف الاوروبي العكسي . وفي الشرق ، قام البيزنطيون منذ اواسط القرن العاشر بسلسلة من الهجمات على سوريا ولبنان وفلسطين وبعض جزر البحر المتوسط لانتزاعها من ايدي المسلمين الذين فرقتهم المذاهب الدينية المختلفة والسياسات والاطماع ، وانتهت بسقوط الساحل الشمالي من سوريا بايدي البيزنطيين وتمركزهم في منطقة انطاكية . هذه الحركة الواسعة التي قامت بها اوروبا وبيزنطية ضد العالم الاسلامي كانت بدءاً للحروب الصليبية ، بالرغم من انها لم تعرف بهذا الاسم .

ثم تحركت اوروبا في نهاية القرن الحادي عشر للسيطرة على البلاد المقدسة ، بعد ان تضافرت الاسباب الداخلية والخارجية التي هيأت الجو لتلك الاصطدامات الدموية التي كانت بلادنا مسرحاً لها خلال قرنين من الزمن . فبالاضافة الى الوضع الاقطاعي الفيودالي المسيطر في اوروبا ، كانت البابوية تعمل جاهدة للتوسع نحو الشرق البيزنطي والاسلامي .

وكانت الفوضى السياسية والاجتماعية والمذهبية في الشرق المسلم قد وصلت على ايدي دويلات متناحرة الى درجة رهيبة لم تعرفها هذه البلاد من قبل ، فوقعت اضطهادات كثيرة على الاقليات ، وقد اصاب بعضها المسيحيين . كما كان لهجوم السلاجقة وانتصاراتهم على الدولة البيزنطية واحتلال الاقسام الشرقية من الامبراطورية وانتصارهم في معركة ملازكرد (منزكرت) على البيزنطيين ، ثم هجومهم على انطاكية

وانتزاعها من يد بيزنطية بعد احتلال دام اكثر من قرن ، كل ذلك جعل الدولة البيزنطية في خطر حقيقي ومهددة بالزوال . وبما انها خط الدفاع الشرقي عن اوروبا المسيحية في وجه المسلمين ، فان اوروبا شعرت بخطر السكوت ، فوسعت نطاق حروبها الصليبية من الاندلس غرباً الى سوريا ولبنان وفلسطين شرقاً .

وتميزت الحملات الصليبية على الشرق عن غيرها في الغرب بالعنف الديني بعد ان قام بطرس الناسك بحملته في اوروبا ، وبعد قرار البابا بالجهاد الديني (كليرمون فران ١٠٩٥) .

ثم القت اوروبا بعد سنة ١٠٩٥ ميلادية بثقلها البشري الملتهب حماساً دينياً ، في منطقة انهكها الصراع الداخلي ، فتمكنت اوروبا من السيطرة والاحتلال .

وقد صادفت فكرة الزحف على الشرق لاستخلاص الاراضي المقدسة هوى في نفوس فرسان اوروبا وامرائها واقطاعييها ، كما صادفت هوى واستحساناً لدى تجار ايطاليا الذين تأثرت تجارتهم كثيراً بفوضى الحالة في الشرق ، وتأثير ذلك على خطوط المواصلات التجارية بين الشرق والغرب .

ولقد كان من عمق الحركة الصليبية في اوروبا ان اثرت في جميع طبقات المجتمع . فزحفت في البدء جماعات شعبية من العجّز والاولاد والرجال محاولة الوصول الى بيت المقدس ، قبل قيام الجيوش المنظمة . وبالرغم من فشل هذه المحاولات وعدم تمكن هؤلاء من الوصول الى الشرق ، فانها تدلنا على عمق التيار الديني المتعصب والمتدفق من اوروبا ، والذي كان مقدّراً له ان ينجح في الوصول الى هدفه .

لقد كان امام الصليبيين عقبات كثيرة ، وكان عليهم الاستعداد لتذليلها كي تنجح فكرتهم : بعض هذه العقبات استعدوا لها ، والبعض الآخر لم ينتبهوا له ولم يقدروه حق قدره . كان الوجود البيزنطي ، مثلا ، عاملا مشجعاً في البدء ، وفي الظاهر ، لانتصار الصليبيين ، والتمكين لهم في الشرق ، ولكنه كان في الحقيقة وفي المدى البعيد ، عامل ضعف ، بسبب الاختلاف المذهبي بين البيزنطيين وكاثوليك اوروبا ، ورفض المسيحيين الشرقيين الذوبان في البوتقة الكاثوليكية . ويظهر ذلك واضحاً مما دار من مشاكل حول موضوع انطاكية . والعقبة الثانية التي اعترضت استمرار ونجاح الوجود الصليبي في الشرق هي ان الاتفاق تم ما بين الاوروبيين لاستخلاص الارض المقدسة بسرعة حركتها العاطفة ، فلم يبحث مصير الارض المقدسة بعد احتلالها ، وبيد من يجب ان تكون وتبقى . لقد كان الاعتماد على الروح الدينية في السيطرة على الشرق عامل نجاح في البدء ، فلما ضعفت هذه الروح ، انهارت السيطرة . ومن جهة ثانية فان اوروبا لم تستعد لليقظة التي كان من المحتمل ، بل ومن المحتّم ، ان تحدث في الشرق . ولقد حدثت تلك اليقظة فعلا فيما بعد ، بعد الفوضى السابقة في الشرق واثر الغزو الاوروبي .

هذه النقاط تظهر كم كان في تقديرات القادة الاوروبيين من اخطاء ونواقص دفعوا ثمنها فيما بعد غالياً وكلفهم ذلك كل ما بنوه خلال القرنين الاثنين من الحكم الصليبي في الشرق .

٢ — مرور الصليبيين في الساحل اللبناني

لم يقدر الحكام السلاجقة في بلاد الشام ولا الحكام الفاطميون في مصر وفلسطين حقيقة الاهداف الصليبية واخطارها . ولذلك عمد الفاطميون

الى الاتصال بالصليبيين امام انطاكية لمفاوضتهم على محاربة السلاجقة واقتسام البلاد فتكون بلاد الشام للصليبيين وتكون فلسطين للفاطميين . وعدم التقدير هذا افاد الصليبيين كثيراً اذ وفّر عليهم التعرض لتجمع اسلامي كبير .

وقد انعكس هذا الوضع على لبنان كذلك ، اذ توجه الصليبيون بعد احتلالهم لانطاكية شرقاً نحو المناطق الداخلية ، ودخلوا لبنان من الشمال الشرقي لعكار ، فكان ذلك اول احتكاك مع امارة بني عمار في طرابلس . وانقسم الصليبيون في عكار قسمين : قسم اتجه شمالا على شاطىء البحر فاحتل طرطوس في ١٧ شباط سنة ١٠٩٩ ، وهي ميناء تابع لبني عمار ، وذلك لتأمين الاتصال البحري والتموين . وقسم آخر ضرب الحصار على عرقة ، وهي مدينة وقلعة حصينة تتحكم بالمواصلات بين طرابلس والمناطق الداخلية . واجتمع على حصار عرقة ريموند دي سان جيل ، وغودفروا دي بويون ، وروبرت دي فلاندرز . وارسل ريموند دي سان جيل رسلا للمفاوضة الى طرابلس بعد ان كان الامير ابو علي فخر الملك قد اظهر استعداداً لذلك .

ولكن الصليبيين غيّروا رأيهم عندما لمسوا ثروة طرابلس وغناها ، فعدلوا عن الاتفاق وعملوا على احتلال المدينة . وشدّد الصليبيون حصارهم لعرقة دون نتيجة . ثم اختلف الصليبيون مع بعضهم ، اذ توجه غودفروا دي بويون وروبرت دي فلاندرز الى جبلة فسيطروا عليها بعد حصار قصير من ٢ الى ١١ آذار ١٠٩٩ ، وكانت تابعة لطرابلس ، وبسقوط جبلة اصبح الساحل الشمالي بكامله بأيدي الصليبيين من اسكندرونة الى طرطوس .

ثم عاد الصليبيون الى التشدد بمحاصرة عرقة ، فنقبوا اسوارها عدة نقوب ولم يقدروا عليها . وفي الوقت ذاته عمد فخر الملك امير طرابلس الى استرضائهم بالمال . وكانت محاولتهم الاخيرة بالهجوم على طرابلس فانتصروا على قوات ابن عمار خارج طرابلس ، ولكنهم فشلوا في اخذ المدينة . واخيراً استقر رأي الصليبيين على التوجه نحو القدس لاحتلالها ، اذ هي الهدف الرئيسي مخالفين بذلك رأي ريموند دي سان جيل الذي كان يريد الاستيلاء على طرابلس اولا ليقيم فيها امارة على غرار ما فعله بوهمند في انطاكية . وعلى هذا الأساس فقد رفع الصليبيون الحصار عن عرقة بعد محاصرة دامت أربعة أشهر وذلك في ١٦ ايار سنة ١٠٩٩ . ثم توجهوا نحو بيروت متبعين طريق الساحل بارشاد ادلاء مسيحيين من منطقة طرابلس . وكان اهل الجبل في منطقة طرابلس قد عاونوا الصليبيين في محاصرتهم لطرابلس . قال ابن الاثير : (ج ١٠ صفحة ٣٤٤) واتاه (اي ريموند دي سان جيل) اهل الجبل فاعانوه على حصارهم ، وكذلك اهل السواد ، واكثرهم نصارى ، فقاتل من بها اشد قتال ، فقتل من الفرنج ثلاثماية ، ثم ان (فخر الملك) هادنهم على مال وخيل » ولقد مرّ الصليبيون عبر الساحل الشمالي من لبنان دون ان يجدوا اية مقاومة ، وقد وجدوا متطوعين من الموارنة في جهات البترون فمشوا في ركابهم ، ووصلوا الى بيروت في ١٩ ايار ١٠٩٩ . قال الشدياق (ج١ ص ٢٥٠) «وفد اليهم (الصليبيين) اناس من المردة من جبل سير وصقع الضنية وجبيل وتلك التخوم ورحبوا بهم وسار معهم بعض وهدوهم الطرقات » وبذلك حدث الاحتكاك الاول بين الصليبيين والفاطميين لان بيروت كانت قد اصبحت قبيل ذلك بايدي الفاطميين الذين وصلت حدودهم الى نهر الكلب . كان

الفاطميون قد عرضوا على الصليبيين اثناء وجودهم في منطقة طرابلس ان يسمحوا لهم بالحج الى بيت المقدس بشرطين : اولا بدون سلاح ، ثانياً بمجموعات بسيطة لا تسبّب المشاكل . وكان رفض الصليبيين معناه الحرب . ولقد اثّر جو التفاوض في عدم اعتراض طريق الصليبيين ، ذلك ان هؤلاء حين وصلوا الى بيروت في ١٩ ايار سنة ١٠٩٩ عرض عليهم اهالي بيروت امدادهم بالتموين ، بالاضافة الى تقديم مبالغ كبيرة من المال على ان لا يعتدي الصليبيون على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب ، كما تعهد اهل بيروت بالدخول في طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم اذا نجحوا في احتلال بيت المقدس. (ولعلّ هذا الموقف عائد الى عدم وجود قوة فاطمية تحميهم ، والى الخلاف المذهبي مع الفاطميين، والى ما خلّفه الوالي الفاطمي سعد الدولة الطواشي او القواصي من اضرار في المدينة بسبب اقتلاعه لبلاط الشوارع خوفاً من ان ينزلق به حصانه) .

ولكن صيدا رفضت التفاهم وعمدت حاميتها الى مهاجمة الصليبيين مما اجبر هؤلاء على اتلاف المزارع المجاورة والاعتداء على القرى القريبة . وتابع الصليبيون طريقهم مارّين بصور في ٢٣ ايار ١٠٩٩ ومتجهين نحو عكا ومنها الى القدس . وهكذا لم يتمكن الصليبيون اثناء زحفهم على فلسطين من احتلال اي موقع لبناني ، لكنهم وجدوا معونة من مسيحيي الشمال ومهادنة من طرابلس وبيروت ومخاصمة من صيدا والقرى التابعة لها .

٣ – سقوط امارة بني عمار في طرابلس والشمال

بعد استتباب الامر للصليبيين في القدس ، توالت النجدات الصليبية في البحر ، وبـدأ توزع الامراء الصليبيين على مناطـق السواحل لاحتلالها ، لأنهم شعروا بضرورة تأمين السواحل لاستقبال نجـدات البحر وتأمين الطريق البرية مع البلاد البيزنطية . وقد عاد بوهمند امير انطاكية الصليبي وبودوان امير الرها من القدس عن طريق البقاع فأسرع حاكم دمشق الملك دقاق محاولا الظفر بالاميرين الصليبيين عند بعلبك ، ولكنه لم يتمكن اذ افلتا من المحاولة (وليم الصوري) . اما ريموند دي سان جيل فقد عاد بحراً الى اللاذقية ، حيث بدأ منها عملياته في التوسع وبناء امارته .

ثم جـاءت وفاة غودفروا دي بويون سنة ١١٠٠ تسبب مشكلـة للصليبيين بالنسبة الى عرش المملكة الصليبية ، فعاد اخوه بودوان من الرها ومعه ٥٠٠ مقاتل ومرّوا بطريق طرابلس بيروت . وبينما كان فخر الملك ابو عـلي بن عمـار يقدم المعونة اذا بالملك دقاق من دمشق والاميرجناح الدولة بن ملاعب من حمص يقطعان الطريق عليه عند نهر الكلب شمالي بيروت ، ويقتلون كثيراً من جماعته ولكنة تمكن مـن النجاة ، ووصل الى القدس حيث توّج ملكاً على الصليبيين . وقد سبّب هذا الحادث اصرار الصليبيين على احتلال السواحل اللبنانية ، ولكنـه في الوقت ذاته اوجد الاختلاف الظاهر بين سياسة سلاجقة الشام المعادية للفرنج ، وسياسة بني عمـار المهادنة لهم وربما المواليـة كذلك . وقـد اقتدت صور كذلك بطرابلس ، فأرسلت وفوداً لتهاني بودوان بتتويجـه وحملوا اليه الاموال . وبقيت دمشق بزعامـة الملك دقاق

معادية . ثم مضت اربع سنوات من المهادنة بين الصليبيين والسواحـل اللبنانية تمكن خلالها ريموند دي سان جيل من بناء حصن طرابلس سنة ١١٠٣ وفي مطلع اذار سنة ١١٠٤ قدم اسطـول جنوي كبـير الى اللاذقيـة فانتهز هـذه الفرصة الامير ريموند دي سان جيل وطلب مساعدة الاسطول في احتلال طرابلس ، ولكن الهجوم على طرابلس فشل ، فرفعوا الحصار عن المدينة واتجهوا الى جبيل . قال ابن الاثير (الكامل–ج١٠ ص ٣٧٢). «ان الفرنجة حاصروا مدينة جبيل وقاتلوا عليها قتالا شديداً . فلما رأى اهلها عجزهم عن الفرنج اخذوا اماناً ، وسلموا البلد اليهم فلم تف الفرنج لهم بالامان ، واخذوا اموالهم واستنفذوهـا بالعقوبات وانواع العذاب » . وكان سقوط جبيل في ٢٨ نيسان سنة ١١٠٤ وهي اولى المدن اللبنانية التي سقطت بايدي الفرنجة .

وبسقوط جبيل بدأ يظهر تطويق ريموند دي سان جيل لامـارة طرابلس : من الشمال : جبلة وطرطوس ومن الجنوب جبيل . فلـم يبق امام طرابلس الا البحر وبعض مناطق عكار الموصلة الى الداخـل . وتمكن ريموند من احتلال اقسام كبيرة من منطقة عكار ، فعمد فخر الملك ابوعلي بن عمار الى ارسال اصحابه في المراكب يغيرون عـلى البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا ، وقصد بذلك ان يخلـو السواد ممن يزرع لتقل المواد عن الفرنج فيرحلوا عنه (ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٦٦) . وهكذا يكون حصار طرابلس الجدّي قد بدأ سنة ١١٠٤ ميلاديـة . وفي السنة ذاتهـا ، واثر سقوط جبيل هاجم الصليبيـون بمساندة الاسطول الجنوي مدينة عكـا فسقطت في ايديهم بالقـوة . وقـد اظهر سقوط عكـا ضعف الفاطميين في الدفـاع عن المناطق التابعة لهم ، ولعلّ ذلك هو الذي جعل بقية المناطق اللبنانية تتجه نحو

حكام دمشق وبغداد لطلب المساعدة . وقد استغل فخر الملك ابن عمار انصراف معظم الصليبيين من منطقة عكار وطرابلس الى عكا ، فهاجم الحصن الذي بناه ريموند دي سان جيل « فقتل من به ونهب ما فيه واحرق واخرب » واخذ منه السلاح والمال والديباج والفضة » (خطط الشام ج ١ – ص ٢٨٦) وفي دمشق استلم الحكم بعد وفاة الملك دقاق الاتابك طغتكين (سنة ١١٠٤) . وحين عاد ريموند دي سان جيل الى حصنه ، وجده مهدماً . ويقول ابن الاثير ان ريموند وقف على بعض سقوفه المحترقة فانخسفت به وسببت له جروحاً مات متأثراً بها (في ٢٨ شباط سنة ١١٠٥) فحمل جثمانه ودفن في القدس . ثم استلم زعامة الصليبيين في منطقة طرابلس ابن اخت الامير المتوفي وليم جوردان ، فتابع اعمال الحصار واستنجد بالبيزنطيين فامدوه بحراً بالمعونة ، ولكنها وقعت في يد اسطول بني عمار في طرابلس فاستفادوا بها .

ولم ييأس الصليبيون بل جددوا الحصار على طرابلس براً وبحراً ، فاستنجد فخر الملك بامراء المسلمين وملوكهم في دمشق وحلب والموصل وديار بكر وماردين . ولكن النجدة المطلوبة لم تصل بسبب اختلاف هؤلاء الامراء والملوك فيما بينهم . فوقعت الضائقة الاقتصادية في طرابلس ، حتى اضطر فخر الملك ابن عمار الى مصادرة اموال الاغنياء وتوزيعها على الفقراء ، مما ادّى ببعض الاغنياء الى الهرب والاتصال بالصليبيين ومعاونتهم على القضاء على حكم بني عمار (ابن الاثير ج ١٠ ص ٤١٢) .

ودام الحصار الشديد على طرابلس دون اية نجدة من الخارج حتى سنة ١١٠٨ حين رأى فخر الملك ان يقوم بنفسه بالذهاب الى بغداد ليحصل على مساعدة تقضي على الحصار المضروب على المدينة ، فتوجه

مع ٥٠٠ رجل من جماعته الى دمشق ، وعيّن محله ابن عمه ابا المناقب ابن عمار بعد ان امّن له الامور والاموال . ولكن ابا المناقب استغل الفرصة فانقلب على فخر الملك واعلن تبعيته للدولة الفاطمية على امل الحصول على المساعدة من مصر . فعرف فخر الملك بذلك وهو في دمشق فأرسل الى جماعته يطلب منهم القبض على ابي المناقب ، فقبضوا عليه ، وتابع سفره الى بغداد حيث حصل على وعود كثيرة لم ينفذ منها شيء . ويبدو أنه مما أسهم في الانقلاب على فخر الملك أنه أراد الاعتماد على بغداد ، ممثلة السنة في مساعدة طرابلس بدلاً من القاهرة ممثلة الشيعة . فكان انقلاب الشيعة عليه . ومما يقوي هذا الرأي هو ان اهل طرابلس نادوا بشعار الفاطمية بعد ان انهوا عملياً حكم بني عمار . فعين الوزير المصري الافضل والياً فاطمياً على المدينة هو شرف الدولة ابن ابي الطيب ، ولمّا وصل الوالي الجديد قبض على جميع بني عمار وانهى حكمهم رسمياً . وقد تمكن الفاطميون من السيطرة على طرابلس بسبب ضائقتها الاقتصادية اذ حملوا اليها المؤن والاغذية وطمأنوا اهاليها بقوة الاسطول الفاطمي المصري .

وحين عاد فخر الملك من بغداد الى دمشق ساعده الاتابك طغتكين بجنوده على استرداد مدينة جبلة من الصليبيين فأقام فيها .

ورأى حاكم عرقة من قبل فخر الملك أنه اصبح عاجزاً عن حماية المدينة فسلمها الى طغتكين . وبدا ان طغتكين هو الذي سيقوم بمهاجمة الصليبيين والفاطميين معاً. الا ان الامير الصليبي وليم جوردان هاجم قلعة عرقة واحتلها، وبذلك تنشط الصليبيون. ثم وصل من اوروبا برتران بن ريموند دي سان جيل على رأس اربعة آلاف جندي واسطول جنوي كبير . ودعا برتران الملك الصليبي بودوان لمساعدته . وعقد في قلعة

طرابلس الصليبية مؤتمر صليبي كبير اعلن خلاله برتران ولاءه للملك بودوان ، واتفق على ان تكون عرقة وطرطوس لوليم جوردان وتكون طرابلس حتى جبيل لبرتران ويكون للجنويين امتيازات تجارية . وعلى هذا الاساس اطبق الصليبيون على طرابلس من البر والبحر واستعملوا عليها الابراج وقذفوها بالنيران . وتخاذل الحاكم الفاطمي في الدفاع ، كما ان الفاطميين لم ينجدوا المدينة ، فسقطت المدينة في يوم عيد الاضحى (١٢ تموز سنة ١١٠٩) ٥٠٢ هجرية .

ويقول ابن الاثير في ذلك (ج ١٠ ص ٤٧٦) : « ومدّ الفرنج القتال عليها من الابراج والزحف ، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهروا يوم الاثنين في الاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة ، ونهبوا ما فيها واسروا الرجال ، وسبوا النساء والاطفال ، ونهبوا الاموال وغنموا من اهلها من الاموال والامتعة ، وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يحصى ، فان اهلها كانوا من اكثر اهل البلاد اموالا وتجارة ، وسلم الوالي الذي كان بها ، وجماعة من جندها كانوا التمسوا الامان قبل فتحها » .

وهكذا سقطت طرابلس وتحولت الى كونتية صليبية . ثم سقطت جبلة في ايديهم وانتهى فخر الملك بن عمار اميراً في الزبداني من قبل الامير طغتكين .

٤ — سقوط بيروت

كانت بيروت قد صالحت الصليبيين حين مرورهم امام المدينة سنة ١٠٩٩ وقدمت اليهم المساعدات . ولم يعترض الامراء التنوخيون في الغرب سبيل القوات الصليبية المتوجهة الى فلسطين . ولكنهم في السنة

التالية حين مرور بودوان بالساحل اللبناني متوجهاً الى القدس ، بعد وفاة اخيه ، كمن له التنوخيون بقيادة الامير عضد الدولة علي وبناء لطلب من الملك السلجوقي في دمشق الملك دقاق . وكانت موقعة نهر الكلب بين الفريقين فنجا بودوان واكمل طريقه الى فلسطين . وقد اثرت جرأة عضد الدولة التنوخي لدى السلاجقة ، فولاّه الملك دقاق بالاضافة الى امارة الغرب وبيروت امارة صيدا ، وامره بتحصين البلدتين (اخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٩٤) . وكانت بيروت تتلقى المساعدة المتواصلة من سلاجقة دمشق ومن الاسطول الفاطمي في البحر . ويبدو ان وجود التنوخيين في الجبال المشرفة على بيروت منع الصليبيين من اقامة الحصار عليها ، كما فعلوا بطرابلس . ولذلك مرت الفترة الاولى من الوجود الصليبي في الشرق (حوالي عشر سنوات) دون ان تقع حوادث مهمة بالنسبة الى بيروت . ولكن سقوط جبيل سنة ١١٠٤ قرّب من بيروت الخطر الصليبي . ولما سقطت طرابلس انتقل النشاط الصليبي نحو الجنوب . وفي الوقت ذاته وصلت قوة بحرية فاطمية كبيرة لتنجد السواحل اللبنانية (وصلت بعد ثمانية ايام من سقوط طرابلس) فابعدت هذه القوة موقتاً خطر سقوط بيروت وصيدا حتى كانت سنة ١١١٠ ميلادية .

بدأ الصليبيون بهجومهم على بيروت في شهر شباط سنة ١١١٠ بزعامة برتران دي سان جيل ومعاونة الملك الصليبي بودوان . ويصف ابن القلانسي ، كما يصف الشدياق حصار بيروت وسقوطها على الوجه التالي : شرع الصليبيون في بناء برج ونصبه على سور بيروت ، ولما اتموا صنعه زحفوا به ، ولكن اهل بيروت قذفوه بحجارة المجانيق ، فكسروه ، فشرع الصليبيون في عمل غيره ، وصنع

برتران برجاً آخر . ثم وصل اسطول فاطمي كبير مؤلف من ١٩ سفينة حربيــــة ، فتغلب عـــلى مراكب الفرنج واستولى على بعضها ، وبذلك تمكن المصريون من فك الحصار عن بيروت وتموينها ، فقويت نفوس اهل المدينة على القتال ، وفشل الحصار الصليبي .

ولكن الملك بودوان استنجد بالامراء الصليبيين وبالسفن الجنــوية فقدم اربعون سفينة جنويـــة ، وقـــدم الموارنة من الشمال (ذكرهم الشدياق باسم المردة) وقدمت قوات صليبية من جنوبي لبنـــان . وقد ركّز الصليبيون هجومهم على منطقة الغرب اولا (اخبار الاعيان — الشدياق ج ٢ ص ٢٩٤) فسيطروا على المنطقة وقتلوا كثيراً من اهلها، وفي الوقت ذاته جرت معركة بحرية بين الاسطولين الجنوي والمصري، فانتصر الاسطول الجنوي . وبذلك انكشفت بيروت من البحر ومـــن البر ، فشدّد الصليبيون هجومهم واحتلوا بيروت بالقوة في ٢٧ نيسان سنة ١١١٠ بعد ان دام حصارها حوالي شهرين . وقد احدث الجنويون والبيازنة مذبحة رهيبة في اهل بيروت ، ولم يستطع الملك بودوان استعادة الامن في بيروت الا بصعوبة (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٨ — ١٦٩) .

٥ — سقوط صيدا والمناطق الجنوبية

كانت مدينة صيدا والقرى المجاورة لها قد اعترّضت طريق الصليبيين اثناء زحفهم على فلسطين في صيف سنة ١٠٩٩ ميلادية ، وقابـــل الصليبيون ذلك باتلاف بعض المزارع والقرى . وظلت صيدا تنعـــم بعدها بالهدوء والاستقرار بحماية الاسطول الفاطمي من البحر وقوات طغتكين من البر حتّى سنة ١١٠٦ حين قرر الملك بودوان احتـــلال

المدينة . وقد استغل بودوان وجود مجموعة كبيرة من الحجاج الصليبيين من الانكليز والفلمنكيين والدانماركيين فتحرك بهم نحو صيدا . الا ان حاكم صيدا اسرع يسترضي بودوان بمبلغ كبير من المال ، فرضي بودوان وعدل عن مهاجمة المدينة . وظلت صيدا بعد ذلك بعيدة عن هجمات الصليبيين حتّى سنة ١١٠٨ حين وصل في شهر آب مـــن تلك السنة اسطول كبير من المدن الايطالية : بيزا وجنوا والبندقيــة وغيرها فدعاه بودوان الى مهاجمة صيدا. وبالفعل ضرب الاسطول عليها الحصار من البحر بينما حاصرها بودوان من البر .

ولكن الفاطميين اسرعوا فارسلوا اسطولهم الذي تمكن من ايقاع الهزيمة بالسفن الصليبية فارتفع بذلك الحصار البحري عن المدينة ، وفي الوقت ذاته وصلت قوة كبيرة من دمشق ارسلها الاتابك طغتكين تلبية لطلب حاكم صيدا . وقيل ان هذه القوة كانت من ١٥ الف جندي . فانسحب الملك بودوان امام هذا التطور السريع الى فلسطين . وبذلك نجت صيدا مرة ثانية .

ويبدو ان صيدا شعرت بفاعلية الحماية الفاطمية لها فتنكرت لطغتكين ورفضت ان تدفع له مال الحماية المتفق عليه فهددها طغتكين باستدعاء الملك بودوان لاحتلالها . فدفعت له حوالي ثلث المال المطلوب . وكان هذا الموضوع من اسباب سقوطها النهائي بعد ذلك بسنتين .

ثم كان سقوط طرابلس في صيف سنة ١١٠٩ ، فتخوفت صيدا وبيروت ، ولكن الاسطول الفاطمـــي الذي وصل متأخراً لنجـــدة طرابلس ، ضرب الحماية الفعلية على صيدا وصور . ثم سقطت بيروت في ايار سنة ١١١٠ ، فدب الذعر في صيدا ، خصوصاً بعد ان لاحظ

سكان المدينة ان الاسطول الفاطمي متمركز في صور فقط حتّى اذا ما كان صيف سنة ١١١٠ وصل اسطول نروجي كبير بقيادة ملك النروج « سيجورد » فاستغله الملك بودوان وضرب الحصار على صيدا من البحر والبر . ثم وصل اسطول بندقي آخر في خريف السنة بزعامة دوق البندقية فاشترك مع النروجيين وبودوان في احكام الحصار .

قال ابن الاثير في الكامل في اخبار سنة ٥٠٤ هجرية : « وكان الاسطول المصري مقيماً على صور ، فلم يقدر على انجاد صيدا ، فعمل الفرنج برجاً من الخشب ، واحكموه ، وجعلوا عليه ما يمنع النار عنه والحجارة ، وزحفوا به ، فلمّا عاين اهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم ، واشفقوا ان يصيبهم مثل ما اصاب اهل بيروت ، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنج ، وطلبوا من ملكهم الامان ، فأمنهم على انفسهم واموالهم ، والعسكر الذي عندهم . ومن اراد المقام بها عندهم امّنوه ، ومن اراد المسير عنهم لم يمنعوه . وحلف لهم على ذلك . فخرج الوالي ، وجماعة كثيرة من اعيان اهل البلد ، في العشرين من جمادي الاول الى دمشق ، واقام بالبلد خلق كثير تحت الامان . وكانت مدة الحصار سبعة واربعين يوماً . ورحل بودوان عنها الى القدس ، ثم عاد الى صيدا ، بعد مدة يسيرة ، فقرّر على المسلمين الذين بها عشرين الف دينار ، فأفقرهم واستغرق اموالهم » .

وبسقوط صيدا في ٤ كانون اول سنة ١١١٠ تكون المنطقة الجنوبية من لبنان قد اصبحت ، ما عدا صور ، بمعظمها في ايدي الصليبيين . وقد حصل البنادقة بفضل مساعدتهم لبودوان في احتلال صيدا على امتيازات تجارية كبيرة في عكا .

لقد تضاءل النفوذ الفاطمي بسقوط صيدا ، وظهر ان النجدات

المؤثرة هي تلك التي تأتي من الداخل ، من دمشق . لذلك اخذ تعلق الناس في صور وفي غيرها من مناطق الجنوب يشتد بطغتكين اتابك الشام . كما ان سقوط صيدا نبّه طغتكين ان الساحل اصبح بيد الفرنجة ، وفي ذلك تأثير كبير على الحركة التجارية مع الداخل ، فابتدأ طغتكين بالاهتمام الجدي بصور وهي آخر مدن الساحل بيد المسلمين .

٦ – مهاجمة الصليبيين البقاع ، واحتلال جبل عامل

حاول الصليبيون بعد احتلالهم للقدس ان يعودوا الى شمالي سوريا عن طريق البقاع ، فمر بودوان وبوهيمند بقواتهما امام بعلبك . ولكن الملك السلجوقي دقاق عمد الى مهاجمتهما في مطلع كانون الثاني سنة ١١٠٠ محاولا اسرهما والقضاء على خطر احتلالهما للبقاع وبعلبك . ولكنهما نجحا في الافلات منه ، ونجا البقاع كذلك (الحركة الصليبية – عاشور – ج ١ – صفحة ٢٧٢) .

ثم عمد ريموند دي سان جيل الى مهاجمة شمالي البقاع اثناء محاصرته لطرابلس ، فكان يصطدم تارة بسلاجقة دمشق وتارة بحاكم حمص .

وحاول الصليبيون مهاجمة البقاع بتشجيع من بعض الامراء السلاجقة اخصام طغتكين (عائلة الملك دقاق) ، ولكن الاتابك طغتكين تمكن من انقاذ بعلبك والمحافظة على المنطقة ، حتّى كانت سنة ١١١٠ حين نشطت القوى الصليبية في فتح السواحل وتهديد الداخل ، فطلب المسلمون الهدنة ، ولكن الصليبيين اصروا على الحصول على المال والمؤن لقاء الهدنة ، فاعطاهم المسلمون ثلث غلال البقاع ، وسلموهم حصن المنيطرة وحصن عكار . وبعد سقوط المدن الساحلية اللبنانية تخوف

والي بعلبك كمشتكين من هجوم صليبي فراسل بودوان عارضاً عليه المصافاة ومشجعاً له على شن الغارات ، لكن طغتكين اسرع الى بعلبك واستولى عليها وابعد عنها كمشتكين . وظل الاتفاق بين طغتكين وبودوان مستمراً على حصة الصليبيين من غلة البقاع .

اما في جبل عامل فقد بنى الصليبيون قلعة كبيرة في تبنين لمراقبة حصار مدينة صور . وقد تولى امر تشييد قلعة تبنين الامير الصليبي هيو فالكنبرغ حاكم طبريا والجليل سنة ١١٠٥ . وقد قتل هذا الامير الصليبي على يد طغتكين . وتولى بعد هيو فالكنبرغ في الجليل وجبل عامل الامير الصليبي « جرفيه » فقتل بدوره على يد طغتكين سنة ١١٠٨. وبقيت منطقة جبل عامل بعد سنة ١١١٠ المنطقة الوحيدة التي تربط دمشق بميناء بحري هو صور ، لذلك كان طغتكين يهتم كثيراً بابقاء المنطقة خارج الحكم الصليبي ، بينما كان الصليبيون يرون في المنطقة ، نقطة ضعف مستمرة ، واصبح تاريخها بعد سقوط صيدا مرتبطاً بمعركة وبمصير مدينة صور .

٧ – سقوط صور

اتخذ الفاطميون مدينة صور مركزاً لاسطولهم البحري يغيرون به على المراكز الصليبية المختلفة ، وعهد الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله بمدينة صور للامير عز الملك الاعز . وقد ساير اهل صور الصليبيين حين مرورهم بساحلها . ولكن الصليبيين عمدوا الى بناء قلعة تبنين سنة ١١٠٥ على يد هيو فالكنبرغ حاكم الجليل ثم عمد بودوان سنة ١١٠٨ (٥٠١ هجرية) الى بناء حصن آخر خارج صور عند تل المعشوق لتشديد الحصار على المدينة . ولكن حاكم صور عمد بدوره الى مهاجمة

هذين المركزين . ولم يجد بودوان مجالاً للوصول الى المدينة . ثم وقعت الهدنة بين طغتكين وبودوان فدفعت صور مبلغاً من المال لقاء الهدنة (٧ آلاف دينار) . وشعرت صور ان الحماية الفاطمية ليست كافية بعد سقوط صيدا وبيروت وطرابلس ، فعمدت الى الاتصال بطغتكين طالبة منه المساعدة ، لان اهالي صور لاحظوا ان دور السلاجقة في دمشق في محاربة الصليبيين هو دور فعّال اكثر من دور الفاطميين . ففي سنة ٥٠٥ هجرية (تشرين الثاني سنة ١١١١) ضرب بودوان الحصار على المدينة من البر ، اما من جهة البحر فكانت بعض السفن البيزنطية تحاصر المدينة حصاراً ضعيفاً . وقد وصف ابن الاثير هذا الحصار في اخبار سنة ٥٠٥ هجرية : (اقام بودوان ثلاثة ابراج خشبية متحركة على المدينة ، وفي كل برج الف رجل ، وان رجلا شيخاً من صور استعمل سائلا ووقوداً احرق به الابراج . وارسل اهل البلد الى طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبونه ليسلموا البلد اليه ، فسار في عساكره الى نواحي بانياس ، وسيّر اليهم نجدة مائتي فارس فدخلوا البلد ، فامتنع من فيه بهم ... ثم ان عز الملك ، صاحب صور ، ارسل الاموال الى طغتكين ليكثر من الرجال ، ويقصدهم ليملك البلد، فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه وصول المال ..... وسار الى صيدا واغار على ظاهرها ، فقتل جماعة من البحرية واحرق نحو عشرين مركباً على الساحل ، وهو مع ذلك يواصل اهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر ، والفرنج يلازمون قتالهم . وقاتل اهل صور من يئس من الحياة . فدام القتال الى اوان ادراك الغلات ، فخاف الفرنج ان يستولي طغتكين على غلات بلادهم ، فساروا عن البلد ، عاشر شوال الى عكا ، وعاد عسكر طغتكين اليه ، واعطاهم اهل صور الاموال

وغيرها . ثم اصلحوا ما تشعث من سورها وخندقها ، وكان الفرنج قد طمّوه) (انظر التفاصيل الكاملة في تاريخ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق صفحة ١٧٨) .

وهكذا نجت صور بفضل ثباتها ونجدة السلاجقة من دمشق بعد حصار شديد دام اربعة اشهر ونصف الشهر . وقد ساعد طغتكين في نجدته لصور اهالي جبل عامل (ابن القلانسي) بالرغم من وجودهم تحت السيطرة الصليبية .

وتلا هذا الانتصار لصور ولطغتكين ، ان اهل المدينة طالبوا تسليمها لطغتكين فقبل وعيّن عليها حاكماً من قبله هو الامير مسعود . فاصبحت صور بذلك تابعة للسلاجقة ولكنها ابقت الخطبة والدعوة للخليفة الفاطمي لتستعين بالاسطول المصري .

ثم بدأ طغتكين يتصل بالامراء المسلمين من شمالي سوريا والعراق للقيام بهجوم كبير على الصليبيين . فشعر بودوان بخطر التجمع الاسلامي ، لذلك اسرع يفاوض طغتكين على ان يتخلى عن جبل عامل وقلعة تبنين ، وعدم التعرض لامارة دمشق . ولكن طغتكين رفض ، واجتمعت قوات الامراء المسلمين فاندفعت عبر البقاع الى وادي التيم وبانياس . وبعضها هاجم قلعة تبنين . وتوغلت هذه القوة في فلسطين حيث وقعت معركة الاقحوانة (حزيران ١١١٣) .

وبالرغم من توفر جميع اسباب النصر للمسلمين ، فقد فشلوا في القضاء على الصليبيين بسبب اختلاف الامراء المسلمين فيما بينهم . فعمد بودوان في السنة التالية (٥٠٧ هجرية ١١١٤ ميلادية) الى الاتصال بامير صور الامير مسعود عارضاً عليه الهدنة فقبلها الامير واستقرت

الحال بين الفريقين على المهادنة لتعمر الاعمال بعد خرابها ، فامنت المسالك وصلحت الاحوال . (خطط الشام ج ١ ص ٢٩٩) .

ويبدو ان خلاف طغتكين مع امير الموصل : مودود ومقتل هذا الاخير ، جعل طغتكين يتخوف على مركزه كحاكم في الشام فبدأ سراً يهادن الصليبيين مما شجّع صور على اتخاذ هذا الموقف .

وعمد بودوان بعد ذلك معتمداً على التفسخ في صفوف المسلمين الى بناء قلعة جديدة لتطويق صور وذلك في جنوبيها وهي قلعة اسكندرونة (شمالي الناقورة اليوم) وذلك سنة ١١١٦ . وكان ذلك آخر ما قام به الملك بودوان من اعمال بالنسبة الى صور ، اذ توفي بعد ذلك سنة ١١١٨ ميلادية ليخلفه في الحكم ابن عمه بودوان الثاني . واستمرت صور صامدة حتى وصل اليها اسطول فاطمي سنة ٥١٦ هجرية (١١٢٢ ميلادية) فالقى القبض على الامير مسعود واعيدت المدينة الى الحكم الفاطمي المباشر . قال ابن الاثير في اخبار سنة ٥١٨ هجرية :

« ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها ، وحدثوا نفوسهم بملكها ، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها . فسمع الوالي بها للمصريين الخبر ، فعلم ان لا قوة له ، ولا طاقة على دفع الفرنج عنها ، لقلة من بها من الجند والميرة ، فارسل الى الآمر بذلك ، فرأى ان يردّ ولاية صور الى طغتكين ، صاحب دمشق، فارسل اليه بذلك ، فملك صور ورتّب بها من الجند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية .

وسار الفرنج اليهم ونازلوهم في ربيع الاول من هذه السنة (٥١٨ هـ) وضيقوا عليهم ، ولازموا القتال ، فقلّت الاقوات ، وسئم

من بها القتال ، وضعفت نفوسهم ، وسار طغتكين الى بانياس ليقرب منهم ، ويذب عن البلد ، ولعلّ الفرنج اذا رأوا قربه منهم رحلوا ، فلم يتحركوا ، ولزموا الحصار . فارسل طغتكين الى مصر يستنجدهم، فلم ينجدوه ، وتمادت الايام واشرف اهلها على الهلاك ، فراسل حينئذ طغتكين صاحب دمشق وقرر الامر على ان يسلم المدينة اليهم ، ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون عليه من اموالهم ورجالهم وغيرها ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وفتحت ابواب البلد ، وملكه الفرنج ، وفارقه اهله وتفرقوا في البلاد ، وحملوا ما اطاقوا ، وتركوا ما عجزوا عنه . ولم يعرض الفرنج لاحد منهم ، ولم يبق الا الضعيف الذي عجز عن الحركة . وملك الفرنج البلد في الثالث والعشرين من جمادي الاول من السنة (٥١٨ هـ) وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين » .

اما اخبار المؤرخين الصليبيين ، خاصة وليم الصوري فتقول ان البنادقة وجهوا اسطولا عظيماً مؤلفاً من ٣٠٠ سفينة و١٥ الف جندي ، واتفق البنادقة مع الوصي على عرش المملكة الصليبية (كان الوصي هو بارون صيدا Eustache Garnier ، وبعد وفاته صار الوصي بارون طبريا وليم بور Bures وكان الملك بودوان الثاني اسيراً بيد سلاجقة حلب) على ان تكون لهم مجموعة امتيازات اقتصادية وتجارية ، فتكون لهم احياء خاصة ، وتكون نشاطاتهم ومرافقهم معفاة من الضرائب ، وتكون موازينهم ومقاييسهم خاصة بهم ، ويكونون احراراً في شؤون الاستيراد والتصدير ، ويكون لهم ثلث المدينة . وبعد الاتفاق اطبق اسطول البنادقة الضخم على صور ، كما حاصرها الصليبيون من البر ، فاضطرت الى التسليم ، بعد حصار دام من اواسط شباط ١١٢٤ الى اوائل تموز (٧ تموز) سنة ١١٢٤ . وبذلك تكون قد صمدت امام الصليبيين ربع

قرن من الزمن . وبسقوط صور كملت السطرة الصليبية على الساحل اللبناني .

٨ – تنظيم الحكم في المناطق الصليبية في لبنان

لم تسقط جميع المناطق اللبنانية تحت السيطرة الصليبية . فالبقاع مع بعلبك والشوف والمتن والاقسام العليا من الغرب ، ومنطقة وادي التيم ظلت تحت حكم امرائها الوطنيين المرتبطين فعلا بدمشق . الا ان وادي التيم ظلّ مدة طويلة في وضع مشبوه بين السلاجقة في دمشق والصليبيين. وفي مطلع الحكم الصليبي في سنة ١١٢٠ قدم المعنيون بزعامة الامير معن الى الشوف (اخبار الاعيان — الشدياق — ج ١ ص ٢٠٢) لحماية المناطق الجبلية من الصليبيين . قال الشدياق : « سنة ١١٢٠ لما رجع طغتكين صاحب دمشق من قتال الافرنج في الديار الحلبية ، امر الامير معن الايوبي الذي كان معه ان يقوم بعشيرته الى البقاع ، ومنها يصعد الى جبال لبنان المشرفة على الساحل ، وينزلها ويتخذها حصناً ، ومنها يطلق الغارة على الافرنج الذين في الساحل ، واجرى له الاقامات الوافرة . فنهض الامير معن الى الشوف الذي كان قفراً من السكان ، ونزل في صحراء بعقلين ، وجعل مودة مع آل تنوخ امراء الغرب الذين كان اميرهم حينئذ الامير بحتر ، فمال الامير بحتر الى الامير معن ، واتخذه حليفاً وعضداً على الافرنج » .

اما بقية المناطق اللبنانية فاصبحت تحت الحكم الصليبي . وقد كانت المناطق الصليبية في جنوبي لبنان ووسطه تابعة بكاملها الى المملكة اللاتينية في القدس ، ولكنها كانت تتمتع بكيانات ذاتية وخاضعة في الوقت ذاته للنظام الفيودالي الاوروبي .

اما شمال لبنان فكان تابعاً لطرابلس ، ويشكل معها كونتية على رأسها عائلة سان جيل التولوزية ، التي اسسها ريموند دي سان جيل ثم ابنه من بعده برتران دي سان جيل .. وقد حاول وليم جوردان ابن اخت ريموند ان يكون هو الوريث ، ولكنه لم يتمكن من السيطرة الا على منطقة عكار وقلعة عرقة التي قام هو باحتلالها . ثم اصبحت هذه المنطقة تابعة لبرتران بعد وفاة وليم جوردان .

وقد امتدت كونتية طرابلس من شمالي طرطوس (المرقب) الى نهر الكلب شمالي بيروت . وكانت منطقة جبيل تشكل بحد ذاتها بارونية ذات كيان خاص وهي بعهدة احد امراء جنوى هيو امبرياتشي مكافأة للجنويين على مساعدتهم الكبرى بتقديم اسطولهم لحصار طرابلس والسواحل اللبنانية . وقد حصل الجنويون على ثلث جبيل وامتيازات تجارية عديدة . وتمكنت عائلة امبرياتشي من ان تبقى حاكمة في جبيل طيلة الوجود الصليبي في الشرق . وامتدت كونتية طرابلس في الداخل فوصلت الى حصن المنيطرة وحصن عكار ، وحصل برتران من طغتكين على ثلث انتاج البقاع . وبعد وفاة برتران سنة ١١١٣ تابع إبنه « بونز » سياسة التوسع في المناطق الداخلية فبنى قلعة بعرين في الشمال الشرقي من عكار لحفظ المنطقة من هجمات الداخل (قلعة بعرين هي قلعة في الشمال الشرقي من سهل عكار) .

وكانت مدة حكم بونز صراعاً متواصلا مع السلاجقة في دمشق وحمص، كما كان على خلاف مع حكام القدس الصليبيين، حتى أنه منع الملك فولك سنة ١١٣١ من المرور بمنطقة طرابلس. وقد قتل بونز في معركة مع قوات دمشق اثناء هجومها على قلعة طرابلس سنة ١١٣٧ . والجدير بالذكر أن الموارنة في جبال طرابلس عاونوا حكام دمشق في مهاجمتهم لطرابلس .

فانتقم منهم بعد بونز خليفته ريموند الثاني وقتل منهم . وتولى الحكم بعده ابنه ريموند الثاني فأسر في نفس السنة في معركة بعرين على يد عماد الدين زنكي ؛ ولكن زنكي اطلق سراحه ليتفرغ لمجابهة الحملة البيزنطية التي قادها جان كومينوس على شمالي سوريا وانطاكية .

كانت امارة طرابلس الصليبية تتعرض اكثر من بقية المناطق الصليبية في لبنان لهجمات السلاجقة المسلمين من الداخل . ذلك ان الثقل السلجوقي الاسلامي كان يأتي دائماً من الشرق اي دمشق وحمص ، واما من الشمال اي حلب والمناطق الشمالية من العراق (الموصل) . كما ان كونتية طرابلس باعتبارها غير تابعة مباشرة لحكم الدولة الصليبية في القدس ، وانها كانت تحاول مراراً ان يكون لها سياسة مستقلة عن القدس تجاه البيزنطيين ، وتجاه امارة انطاكية الصليبية وتجاه المسلمين ، كل ذلك جعلها تمر في ادوار من الضعف ؛ بحيث كانت تضطر الى الاستنجاد مرغمة بالدولة الصليبية

وقد قتل ريموند الثاني امير طرابلس سنة ١١٥٢ على يد بعض الباطنيين من الحشاشين فخلفه ريموند الثالث الذي تمكن خلال مدة حكمه الطويل (١١٥٢ — ١١٨٧) من ان يلعب ادواراً رئيسية في محاربة نور الدين زنكي وصلاح الدين من بعده ، وان يصبح وصياً على العرش في القدس ، وان يكون احد ابطال الصليبيين في معركة حطين الشهيرة . خلال هذه المدة الطويلة من حكم عائلة سان جيل التولوزية في طرابلس ، ظهرت ملامح التنظيم الصليبي في شمالي لبنان . فقد منح حكام طرابلس المنظمات الصليبية من فرسان « الاسبتارية » وفرسان « الداوية » امتيازات اقطاعية متعددة وقلاعاً كثيرة ، فاصبحت هذه المنظمات تقوم بدورين : ديني وعسكري . ويعود الفضل لهم

في حفظ الكونتية من السقوط بأيدي المسلمين في عهد نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ؛ اذ كوّنوا القوة العسكرية الدائمة والمتحركة لصد ايّ هجوم . وهذه المنظمات هي التي حافظت على الطابع الديني للوجود الصليبي في امارة طرابلس . بينما انصرفت الجماعات الايطالية من جنوية وبنادقة وغيرها الى استثمار الوجود الصليبي اقتصادياً وتجارياً . ووجد حكام طرابلس العون الكبير من موارنة الشمال الذين قدموا مراراً الرماة المهرة ذوي الاقواس الشديدة (باستثناء حادثة بونز في سنة ١١٣٧) كما استقلت طرابلس بالنقد ، فكان لها عملتها الخاصة من الفضة والذهب .

ويمكن القول ان علاقة كونتية طرابلس بالملك الصليبي في القدس كانت علاقة تبعية اسمية فقط ، وفي الحقيقة كان الكونت الحاكم في طرابلس يتصرف تصرف الند للند مع حاكم القدس الصليبي ، فهي امارة شبه مستقلة . وظلت عائلة سان جيل مسيطرة حتّى سنة ١١٨٧ عندما انتقل الحكم بوفاة ريموند الثالث الى البيت النورماني الحاكم في انطاكية .

اما بالنسبة الى بيروت فقد خضعت للحكم الصليبي منذ سنة ١١١٠ ، بينما بقيت المناطق الجبلية المجاورة لها بيد التنوخيين حلفاء السلاجقة في دمشق ، وكان على رأسهم الامير بحتر التنوخي الذي اصبح التنوخيون في الغرب من بعده يعرفون باسمه : بني بحتر وذلك منذ سنة ١١٢٤ .

وقد بنى الصليبيون في منطقة (بيت مري) المشرفة على بيروت قلعة (على انقاض هيكل روماني) لتأمين المدينة وعرفت هذه القلعة باسم « دير القلعة » .

وكان الحكم في بيروت تابعاً مباشرة للملك الصليبي في القدس ؛ إذ كان الملك يعيّن من قبله من يشاء من الامراء الصليبيين حتّى سقوط بيروت بيد صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٧ . فبقيت المدينة بايدي المسلمين حوالي عشر سنوات وهي بامرة الامير عز الدين اسامة بن منقذ حتّى استعادها الصليبيون بعد ذلك ؛ وبرزت فيها عائلة « ابلان » التي تمكنت من ان تتزعم الصليبيين فترة طويلة حتّى نهاية الحكم الصليبي في الشرق . وحصل التجار الجنويون والبيزيون على امتيازات تجارية كبيرة في بيروت بسبب مساعدتهم البحرية للصليبيين في احتلال المدينة .

اما في صيدا وفي صور فقد كان للبنادقة الدور الاول في الامتيازات التجارية لأنهم قدموا اساطيلهم اثناء احتلال المدينتين . وكان حكم صيدا في الفترة الاولى لعائلة « غوتيار » التي امتد نفوذها من بارونية بيروت الى بارونية صور (من الدامور الى الليطاني.) وفي عهد اميرها « اوستاش غرونييي » (توفي سنة ١١٢٣) تركز الوضع الصليبي في صيدا . ثم عمد الصليبيون في الجنوب الى اقامة قلعة الشقيف سنة ١١٣٥ لسد المنافذ امام سلاجقة دمشق من الوصول الى الساحل .

وكان للفرسان الاسبتارية والداوية اهمية كبرى في حفظ القلاع والحصون في منطقتي صيدا وصور وانشاء المزيد منها . وبالفعل لولا نشاط هذه المنظمات العسكرية الدينية (ومعها منظمة فرسان التوتون في فلسطين) لانتهت الحروب الصليبية نهائياً في ايام صلاح الدين الايوبي .

وقد ترك الصليبيون لسكان البلاد حريتهم في مختلف شؤونهم الخاصة : الدينية والاقتصادية ؛ وكانوا يحاولون التقرب منهم في كثير من الاحيان (اورد اسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار كثيراً من الامثلة على العلاقات الطيبة ما بين المسلمين والصليبيين) ولكن الصليبيين لم يختلطوا

بهم بل ظلوا يكونون جاليات في المدن او في القلاع بعيدين عن الاندماج بالوطنيين. وقدسبّب التقارب بين الصليبيين والوطنيين في لبنان وغيره من المناطق الصليبية في الشرق ظهور اجيال من الصليبيين يفهمون عادات الشرق وتقاليده وطرق معيشته . وهذه الاجيال نقمت عليها فرنجة اوروبـا واتّهمتها بالابتعاد عن الروح الصليبية ، واطلقوا عليها لقب (Poulain). كما أنهم أنشأوا فرقاً عسكرية من مرتزقـة مختلفة المذهب والعنصر . وعرفت هذه الفرق باسم توركوبولي Turcopoli

اما من الناحية العسكرية فان الصليبيين اعتمدوا دائماً اسلوب الحرب السريعة الخاطفة وذلك بجعل قوتهم العسكرية متحركة ومتمركزة في العديد من القلاع والحصون ، مما سمح لهم بسهولة مراقبة تحركات القوى الاسلامية ومهاجمتها قبل ان تستكمل استعدادها .

* * *

الفصل التاسع

لبنان بين الصليبيين والاتابكة الاتراك

(١١٠٤ — ١١٥٤)

١) طغتكين يتزعم محاربة الصليبيين .
٢) سياسة الاتابكة التوازنية .
٣) المسلمون الباطنيون في لبنان .
٤) النزاع الزنكي — الاتابكي وتأثيره في لبنان .
٥) سقوط الرها والحملة الصليبية الثانية .
٦) احتلال الزنكيين للبقاع ولدمشق .

* * *

١ — طغتكين يتزعم محاربة الصليبيين

كان على رأس الحكم في دمشق ، حين وصول الصليبيين إلى الشرق الملك دقاق بن تتش السلجوقي ، وهو الذي تولى محاربة الصليبيين حتّى سنة ١١٠٤ حين توفي تاركاً ولداً صغيراً واخاً صغيراً . وتولى الاتابك

طغتكين الامارة بصفته وصياً على ابن دقاق (تتش الصغير) الذي كان في السنة الاولى من عمره . ثم عمد طغتكين بعد قليل إلى خلع تتش الصغير ، وتنصيب الامير ارتاش (او بكتاش) شقيق دقاق ولياً للعهد، وكان في الثانية عشرة من عمره . وتخوف ارتاش والامراء السلاجقة من مطامع طغتكين ففروا إلى جانب الصليبيين على امل اذ يساعد الصليبيون على اعادة ارتاش إلى الحكم . وقد ادّى هذا الفرار إلى ضعف الموقف السلجوقي في دمشق والتمكين لطغتكين في بناء الدولة الاتابكية من سنة ١١٠٤ حتّى سقوطها سنة ١١٥٤ . ولكن ذلك جرّ على طغتكين نقمة الامراء السلاجقة في حلب وشمالي سوريا والعراق ، مما جعله يتحول إلى محاربة الصليبيين بشدة ليكسب العطف الاسلامي .

وقد امضى طغتكين ست سنوات في قتال متواصل ضد الصليبيين في منطقة طبريا وشمالي فلسطين وشمالي لبنان حتّى سقطت السواحل اللبنانية سنة ١١١٠ ؛ فركّز طغتكين جهوده على الاحتفاظ بصور .

وقد اثار سقوط السواحل اللبنانية بايدي الفرنجة ، بالاضافة إلى التحريض البيزنطي للمسلمين ضد هؤلاء ، حماس المسلمين ، فتحرك امير الموصل الامير مودود بطلب من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي محمد في اصفهان ومشى معه كثير من الامراء المسلمين باتجاه فلسطين، ولاقاهم طغتكين في شمالي سوريا في معرة النعمان «واجتمع بهم طغتكين ، صاحب دمشق ، ونزل على الامير مودود فاطلع من الامراء على نيات فاسدة في حقه ، فخاف ان تؤخذ منه دمشق ، فشرع في مهادنة الفرنج سراً» . (ابن الاثير — الكامل في التاريخ ج ١٠ — اخبار سنة ٥٠٥ هجرية) . وفشلت الحملة الاسلامية الاولى . لكن الامير مودود اعاد المحاولة بعد ذلك بسنتين ومعه كثير من الامراء الاتراك

والاكراد ، فسأسرع بودوان الملك الصليبي يتصل بطغتكين عارضاً عليه الوقوف إلى جانبه على ان يتركوا له حصن تبنين وجبل عامل وان لا يتعرضوا لامارة دمشق وان لا يتعرض هو بدوره للممتلكات الصليبية. ولكن طغتكين رفض ومشى مع القوات الاسلامية فالتقاها في سلمية ومنها انطلقت القوات الاسلامية إلى البقاع ومرت ببانياس واندفعت في شمالي فلسطين ، كما اندفعت فرقة منهم نحو حصن تبنين وقد اوقع المسلمون هزائم كبيرة بالصليبيين . وكانت اقصى معركة هي التي حدثت بالقرب من طبريا في الاقحوانة (او جسر الصنبرة) في ٢٨ حزيران سنة ١١١٣ وانتصر فيها المسلمون . وكان من الممكن ان تكون هذه الحملة فاصلة وقاضية على الوجـــود الصليبي في الشرق لولا الاختلاف الذي دبّ في صفوف المسلمين وتخوف طغتكين على امارته. وكانت النتيجة ان انسحب المسلمون ، وقتل الامير مودود في دمشق اغتيالاً . وكان لهذه الحملة التأثير الكبير في جمع كلمة الصليبين ، وفي تغير سياسة طغتكين الذي مال بعد ذلك إلى مهادنة الصليبيين .

٢ — سياسة الاتابكة التوازنية

اتّهم الاتابك طغتكين بتدبير مقتل الامير مودود على يد احـــد النصيريين ، كما اتّهم بمحالفة الصليبيين خفية ، فنقم عليه الامراء المسلمون وعـــلى رأسهم السلطـــان السلجوقي محمـــد . وقد ارسل السلاجقة سنة ١١١٥ حملة ثانية بقيادة الامير برسق تستهدف الصليبيين والاتابك طغتكين معاً . وادت هذه الحملة إلى تمتين العلاقة بين طغتكين والصليبيين وإلى فشل عسكري سلجوقي .

واصبحت السياسة بين بودوان الاول وطغتكين قائمة على حماية الواحد للاخر ضد العدو المشترك ، مع المحافظة على مدينة صور مركزاً

بحرياً لدمشق . واستغل بودوان هذا التفاهم ليوجه نشاطه نحو مصر وليحاول غزوها . وظلّ بودوان محافظاً للعهد مع طغتكين حتى وفاته سنة ١١١٨ ، فتابع طغتكين الالتزام بنفس السياسة مع بودوان الثاني . ورأى طغتكين ان يقوي مركزه الداخلي في الشام بسبب نقمة المسلمين عليه فتحالف مع النصيريين الذين كانوا يتمركزون في بانياس ووادي التيم ، كما فتح دمشق امام الباطنيين الهاربين من العراق . فتكاثر عددهم حتى اصبحوا القوة الرئيسية في الشام .

وقد ادّى سقوط صور سنة ١١٢٤ إلى اختلال التوازن التقليدي الذي اوجده طغتكين وبودوان الاول ، فعمد بودوان الثاني سنة ١١٢٦ إلى مهاجمة دمشق محاولاً احتلالها من جهة حوران ، ولكنه لم يتمكن . وبالرغم من شعور طغتكين بالوحدة والانفراد امام الصليبيين فانه ظل متابعاً ومحافظاً على خطته التوازنية ، الا انه زاد من اعتماده على الباطنية وسلمهم حصن بانياس ليجعلوا منه مركز تجمع ودعوة لهم . وتوفي طغتكين في شباط سنة ١١٢٨ وهو على هذه السياسة . واستلم الحكم في دمشق بعده ابنه تاج الملوك بوري فحافظ على العهد مع الصليبيين الا انه عمل على التخلص من الباطنية الذين اتفقوا مع الصليبيين على تسليمهم دمشق وبانياس مقابل تسليمهم مدينة صور ليقيموا فيها مملكة خاصة بهم ، ولكن خطتهم افتضحت وادّى ذلك إلى محاربتهم وتشتيت قواهم . ونجت دمشق سنة ١١٢٩ مرة جديدة من السقوط بايدي الصليبيين . وكادت هذه السياسة الصليبية التي اتبعها بودوان الثاني مع دمشق ان تخرج الشام من خطة التوازن الصليبي الاسلامي إلى السير في ركاب سياسة الجهاد الديني الذي كان قد بدأها امير الموصل عماد الدين زنكي . لكن وفاة بودوان الثاني سنة ١١٣١ ووصول الملك فولك إلى الحكم غيّرت الموقف لان فولك عاد إلى سياسة بودوان الاول معتبراً نفسه حامي دمشق وحليف الاتابكة .

٣ — المسلمون الباطنيون في لبنان

على اثر سقوط صور بايدي الصليبيين سنة ١١٢٤ حاول الصليبيون ان يسيطروا على مدينة دمشق . وفي الوقت ذاته كثر عدد الباطنيين من الاسماعيليين في دمشق بزعامة بهرام وهو ابن اخت ابراهيم الاسد اباذي زعيم الباطنية في العراق الذي كان قد قتل هناك وتشتت امر الاسماعيليين بعده في العراق ؛ كما ان الب ارسلان ابن رضوان ملك حلب كان قد نفذ مذبحة كبيرة في حلب وجوارها بالاسماعيليين والشيعة عموماً . فادّى هذا الضغط في العراق وفي حلب إلى تجمع الاسماعيليين في دمشق في محاولة خفية للسيطرة عليها . وقد ساعد طغتكين على هذا التجمع الباطني في دمشق حماية له من الامراء المسلمين ونكاية بهم . وتمكن بهرام زعيم الاسماعيليين من السيطرة على بانياس بمعونة طغتكين فاصبح صاحب النفوذ في دمشق والمناطق المجاورة لها (الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٦٣٢) ثم حاول بهرام من قلعة بانياس السيطرة على وادي التيم حيث تقيم النصيرية والدرزية والمجوس (ابن الاثيرج ١٠ ص ٦٥٦) وكان عليهم الضحاك بن جندل التميمي بعد مقتل اخيه بيرق . فوقعت معركة بين الفريقين سنة ١١٢٨ اشترك فيها من جماعة الضحاك حوالي الف رجل انتصر بهم ، وقتل كثيراً من الاسماعيليين كما قتل بهرام ذاته . وتولى بعد بهرام في زعامة الاسماعيليين رجل منهم يدعى اسماعيل فجمع شمل جماعته ، واعانه في ذلك المزدقاني وزير تاج الملوك بوري اتابك دمشق. وجعل اسماعيل مندوباً له في دمشق اسمه ابو الوفا . ثم حصل اتفاق بين اسماعيل والمزدقاني وابي الوفا على مراسلة الصليبيين لتسليمهم دمشق مقابل استلامهم مدينة صور لتكون لهم مركز امارة ، وتقرر تنفيذ ذلك في يوم معين . ولكن الامر افتضح في دمشق ، فقام تاج الملوك بوري بتصفية الاسماعيليين .

وقدّر من قتل من الاسماعيليين في دمشق بحوالي ستة الاف شخص . وكانت نتيجة هذه المذبحة ان اسماعيل المستلم لقلعة بانياس خاف على نفسه وعلى جماعته ، فسلّم بانياس للصليبيين ، وانتقل إلى البلاد الخاضعة لحكمهم وذلك سنة ١١٢٩ . وقد حاول الصليبيون اثر ذلك مهاجمة دمشق ، فلم يتمكنوا من احتلالها . وفي الوقت ذاته كان عماد الدين زنكي يصل إلى حماة وينتزعها من حكم تاج الملوك ، ويهدد دمشق من جهة الشمال .

وقد تمكن الاسماعيليون من قتل تاج الملوك بوري انتقاماً للمذبحة التي اجراها بينهم. وانقسمت مملكة دمشق بعد بوري بين ولديه: شمس الملوك اسماعيل الذي اصبح على دمشق ، وشمس الدولة محمد على بعلبك . واختلف الاخوان فزحف شمس الملوك اسماعيل على البقاع واحتل اللبوة ثم حصن الراس وحاصر بعلبك واحتلها . وبذلك اعاد شمس الملوك وحدة مملكة دمشق ، ولكنه ابقى اخاه شمس الدولة محمد متولياً على بعلبك من قبله (ابن الاثيرج ١٠ ص ٦٨٠) .

وكان مما شجّع شمس الملوك على ذلك ان الملك الصليبي فولك عاد إلى السياسة التقليدية في حماية دمشق لتبقى شوكة اسلامية في جانب المسلمين .

وعمد شمس الملوك في السنة التالية ١١٣٣ إلى مهاجمة بانياس فاحتلها واحتل قلعتها جواباً على اضطهاد الصليبيين في بيروت لمجموعة من تجار دمشق كانوا فيها وتعرضوا للاذية . ثم تابع شمس الملوك اخضاع المناطق المتمردة عليه فهاجم سنة ١١٣٤ قلعة شقيف تيرون (قلعة نيحا) التي كانت بيد الضحاك بن جندل امير وادي التيم . وكان الضحاك

يتصرف كأمير مستقل غير تابع للصليبيين ولا لحكام دمشق مستغلاً وجوده في منطقة جبلية تشكل حدوداً بين الفريقين . وتضايق الصليبيون من وصول شمس الملوك اسماعيل إلى قلعة نيحا وتهديده لهم في كل وقت ، فعمدوا إلى مهاجمة حوران وتخريبه . ولكن شمس الملوك ردّ بسرعة بمهاجمة طبريا ومنطقة عكا ، مما اجبر الصليبيين على تجديد الهدنة معه (ابن الاثيرج ١١ ص ١١) . وادت الاضطهادات المتواصلة للاسماعيليين والشيعة والنصيرية إلى احتماء هؤلاء بالمناطق الجبلية تحت السيطرة الصليبية ، واصبح بين الفريقين تحالف ومساعدة لمدة طويلة .

٤ – النزاع الزنكي – الاتابكي وتأثيره في لبنان

كان السلطان السلجوقي قد عيّن عماد الدين زنكي بن آقسنقر اتابكا على الموصل بعد ان ظهرت له كفاءته الحربية في العراق ، وكلفه بمحاربة الصليبيين سنة ١١٢٧ . ووضع عماد الدين زنكي سياسته على اساس توحيد بلاد الشام الاسلامية بيده وضرب الصليبيين في الوسط ، أي في منطقة طرابلس . وبدأ بتنفيذ مخططه ، فاستولى اولاً على حلب سنة ١١٢٨ ثم خضعت لهِ حمص بالولاء ثم انتزع حماة من تاج الملوك بوري . وبدا ان الجو مناسب له . ولكن الاختلافات الشديدة في البيت السلجوقي في ايران والعراق جمدّت نشاط عماد الدين حتّى استقرت الامور مجدداً. فعاد عماد الدين يستغل مقتل شمس الملوك اسماعيل في دمشق ومحاولاً احتلال المدينة ، لان اهالي المدينة ضجوا من تطرف شمس الملوك واعماله الدنيئة ، وقيل ان والدته دبرت مقتله ، واستلم الحكم في دمشق شهاب الدين محمود الابن الاصغر لتاج الملوك ، وكانت والدته قد تزوجت بعد وفاة بوري من عماد الدين زنكي .

وعاد زنكي يهتم مجدداً باضطرابات العراق حتى كانت سنة ١١٣٧ ، حين جددت دمشق الهجمات على الصليبيين في منطقة طرابلس التي ادت إلى مقتل اميرها بونز ؛ فعاد عماد الدين زنكي واجتاح في طريقه اقساماً من امارة طرابلس محاولاً احتلال هذه الامارة والفصل بين صليبيي الشمال وصليبيي الجنوب . فاستنجد ريموند الثاني امير طرابلس بالملك فولك واتجهت قواتهما نحو زنكي الذي كان يضرب الحصار حول حمص . ورأى زنكي مجابهة الصليبيين بعيداً عن حمص حتى لا يجتمع عليه الصليبيون وحاكم حمص معين الدين اونور من قبل اتابكية دمشق. فجرت المعركة امام بعرين في غربي بحيرة حمص ، فأسر امير طرابلس ريموند الثاني ، وكذلك الملك فولك وسقطت القلعة في يد زنكي . ولكن زنكي اطلق سراح اسراه بسبب تخوفه من الحملة البيزنطية التي كان يقودها جان كومينوس . ثم تحول زنكي إلى حمص فاحتلها وهرب منها اميرها معين الدين اونور إلى دمشق ليقود من هناك المقاومة ضد زنكي ، متحالفاً مع الصليبيين . وتطورت الامور في دمشق بسرعة فقد قتل حاكم دمشق شهاب الدين محمود واستلم بعده اخوه محمد الذي كان متولياً على بعلبك ، فتأثرت والدة شهاب الدين محمود لقتله ، وهي زوجة لعماد الدين زنكي ، فدعته إلى الانتقام واحتلال دمشق . لذلك توجه زنكي سنة ١١٣٨ من شمالي سوريا نحو دمشق . ولكن اهالي دمشق « استعدوا واستكثروا من الذخائر ، ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون اليه الا وبذلوا في تحصيله ، واقاموا ينتظرون وصوله اليهم » (ابن الاثيرج ١١ ص ٦٩) . ولكن زنكي تحول عن دمشق نحو بعلبك ، فاحتلها بعنف بالغ. وفي ذلك يقول ابن الاثير (الكامل–ج١١ ص٦٩) : « سار اتابك إلى بعلبك فوصل اليها في العشرين من ذي الحجة من السنة

(٥٣٣ هـ ١١٣٨ م) فنازلها في عساكره ، وضيّق عليها ، وجدّ في محاربتها ، ونصّب عليها من المنجنيقات اربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً . فأشرف من بها على الهلاك ، وطلبوا الامان ، وسلموا اليه المدينة . وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الاتراك ، فقاتلهم فلما ايسوا من معين ونصير طلبوا الامان فامّنهم فسلموا اليه القلعة ، فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وامر بصلبهم فصلبوا ، ولم ينج منهم الا القليل . فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه ، وخافه غيرهم وحذروه لا سيما اهل دمشق ، فانهم قالوا : لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء ، فازدادوا نفوراً وجدّوا في محاربته » .

ونظّم عماد الدين زنكي بعلبك واصلح شؤونها ورمّمها وعيّن عليها نجم الدين ايوب بن شاذي (والد صلاح الدين) ثم احتل بانياس وتوجه إلى دمشق سنة ١١٣٩ فهزم الدمشقيين وكاد يدخل المدينة حين توفي حاكمها جمال الدين محمد وولي الحكم بعده ابنه مجير الدين آبق وتولى تدبير دولته معين الدين اونور . فراسل معين الدين اونور الصليبيين طالما منهم النجدة لقاء اعطائهم بانياس ، وكان المفاوض بين الفريقين الامير الطبيب اسامة بن منقذ صاحب قلعة شيزر فوافق الملك فولك . وتوجهت القوات الصليبية إلى دمشق للنجدة فاضطر عماد الدين زنكي إلى الانسحاب.ثم سلّم معين الدين اونور بانياس للصليبيين سنة ١١٤٠ . اما البقاع وبعلبك فبقيت في يد زنكي ، وعليها نجم الدين ايوب حتى مقتل عماد الدين زنكي سنة ١١٤٦ فاستردها معين الدين اونور واتبعها بدمشق .

٥ — سقوط الرها والحملة الصليبية الثانية

نجت دمشق من السقوط بيد عماد الدين زنكي بفضل نجدة الصليبيين

لها ، ولكن زنكي عوّض عن ذلك بالرها . فقد استغل عماد الدين زنكي وفاة الملك الصليبي فولك في خريف سنة ١١٤٣ ووصول ابنه القاصر بودوان الثالث إلى الحكم (كان عمره ١٣ سنة) وعليه والدته « مليزند» ليقوم بهجوم كبير ومفاجىء على ابعد الامارات الصليبية وهي الرها فاحتلها سنة ١١٤٤ ، ولكن اميرها جوسلين الثاني كان غائباً عنها مما سمح له بعد ذلك بالعمل على استردادها . وقتل عماد الدين زنكي سنة ١١٤٦ فاستغل الفرصة جوسلين الثاني واسترد الرها بمساعدة سكانها من الارمن . ولكن نور الدين محمود زنكي بن عماد الدين ظهر بسرعة يملأ الفراغ الذي احدثته وفاة ابيه وهاجم الرها بعد اسبوع فقط من عودتها إلى ايدي الصليبيين واحتلها ونهبها وقتل معظم سكانها ، مما اوجد الذعر في صفوف جميع الصليبيين ، واثار اوروبا مجدداً ، اذ رأت في هذه الضربة خطراً حقيقياً يهدد الوجود الصليبي في الشرق . هذا ، بالاضافة إلى ان الصليبيين والبيزنطيين فكروا معاً قبل سنوات قليلة (١١٣٩ — ١١٤٠) بتنظيم حملة صليبية مشتركة تستهدف استكمال المناطق الداخلية : حلب وحماة وشيزر وحمص ودمشق .

لقد كانت اذن فكرة الحملة الثانية مهيأة ، وجاء سقوط الرها يعمل على تنفيذها بسرعة . وبالفعل توجهت سنة ١١٤٧ حملة عظيمة بقيادة ملكي فرنسا والمانيا : لويس السابع وكونراد الثالث .

وصلت هذه الحملة إلى لبنان وسوريا سنة ١١٤٨ بعد ان تعرضت في آسيا الصغرى لهجمات ضارية من السلاجقة (اتهم الصليبيون فيما بعد البيزنطيين بأنهم تآمروا مع السلاجقة على ضرب قوى الحملة الصليبية الثانية). وقد فقدت هذه الحملة معظم قواها . وبدلا من ان تتوجه الحملة لاسترداد الرها او لمحاربة عائلة زنكي ، اتجهت اولاً إلى القدس للحج . وبذلك سجلت

اول فشل لها . وبعد الحج عمدت الحملة إلى مهاجمة دمشق للتعويض عن خسارة الصليبيين لامارة الرها . ولكن ذلك كان معناه التغيير الجذري في السياسة الصليبية التي ارتضاها الصليبيون منذ عهد بودوان الاول إلى عهد فولك، ومنذ عهد طغتكين إلى عهد معين الدين اونور، وهي السياسة التوازنية بين قوى المسلمين والصليبيين . كان هذا التغيير المفاجىء في السياسة من تخطيط الملكين الفرنسي والالماني والوصية على العرش مليزند ، ولم يكن الامراء الصليبيون الشرقيون براضين عن ذلك . وفي ٢٤ تموز سنة ١١٤٨ هاجم اركان الحملة بعنف بالغ مدينة دمشق وضربوا الحصار عليها . كان ذلك الهجوم مفاجئة للدمشقيين ولمعين الدين اونور الصديق التقليدي للصليبيين فاتصل بهم مظهراً خطر تصرفهم وانه سيكون مضطراً للاستنجاد بالعدو المشترك : اولاد زنكي. وفي الوقت ذاته اتصل بسيف الدين زنكي ونور الدين زنكي، ولدي عماد الدين طالباً منهما النجـدة . فتحرك الاميران من حلب بسرعـة نحو دمشق .

قال ابن الاثير (الكامل— ج١١ صفحة ١٣٠) : «وارسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء : ان ملك المشرق قد حضر ، فان رحلتم ، والا سلمت البلد اليه ، وحينئذ تندمون ، وارسل إلى فرنج الشام يقول لهم : بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا ، وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية . واما انا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين ، وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام ، فاجابوه إلى التخلي عن ملك الالمان ، وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم» .

ورفع الصليبيون الحصار عن دمشق ، خوفاً من قوات الامراء الزنكية

وسقوط دمشق بايديها من جهة ، ولوقوع الخلاف بين صليبيي الشرق والفرنجة الجدد ؛ فقد اتهم صليبيو الحملة الثانية الصليبيين الشرقيين انهم اصبحوا نصف مسلمين ولقبوهم بالافراخ (Poulains) ، بينما اتهم الصليبيون الشرقيون جماعات الفرنجة الجدد بانهم متعصبون ولا يفهمون ضرورات السياسة المحلية . وانسحب لويس السابع في نيسان ١١٤٩ عائداً إلى بلاده ، بينما كان كونراد قد سافر في ايلول ١١٤٨. ولم ينجم عن الحملة الصليبية الثانية سوى اتمام مراسم الحج ، واستلام بانياس ، وايجاد فجوة كبيرة بين عقلية صليبيي الشرق وفرنجة اوروبا. ولكن المستفيد الحقيقي من هذه الحملة كان نور الدين زنكي ، الذي برز بعد وفاة اخيه سيف الدين سنة ١١٤٩ اميراً متفرداً في الحكم . فقد هاجم نور الدين امارة انطاكية الصليبية في حزيران ١١٤٩ واوقع بالصليبيين في شرقي نهر العاصي هزائم مهمة كان بينها مقتل امير انطاكية ريموند دي بواتيه وسقوط جميع الممتلكات الصليبية شرقي نهر العاصي .

٦ – احتلال الزنكيين للبقاع ودمشق

شعر الصليبيون والدمشقيون بخطأ تصرف الحملة الصليبية الثانية فأسرع الفريقان في اوائل حزيران ١١٤٩ إلى توقيع صلح بينهما . ثم اتجه الفريقان نحو التحالف فيما بينهما ضد نور الدين زنكي ، لان كلاً منهما كان بحاجة إلى اعادة تنظيم وضعه الداخلي ، فالصليبيون كانوا يتعرضون في منطقة انطاكية إلى ضغط متزايد من قبل نور الدين ، خاصة بعد مقتل امير انطاكية الصليبي ؛ وكذلك كانت امارة طرابلس قد بدأت تتعرض بدورها لخطر زنكي .

وتوفي معين الدين اونور في آب ١١٤٩ ، فضعفت السياسة الاتابكية في دمشق ، واصبح مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد هو الحاكم الفعلي ، واضطربت سياسته مع امرائه ، فنقموا عليه . وحاول نور الدين احتلال دمشق سنة ١١٥١ ، ولكن التحالف الصليبي الدمشقي السريع انقذ المدينة . وكان مما يعطي فكرة عن التوتر الشديد بين نور الدين ومجير الدين تبادل الرسائل بينهما ، فقد جاء في رسالة لنور الدين إلى مجير الدين : « ولا يحل لي التعود عنهم (المسلمين) والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ اعمالهم والذب عنها ، والتقدير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي ... » وكان من جواب مجير الدين على ذلك « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت علينا » (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين — ابو شامة — ج ١ ص ٧٠) .

وفشل زنكي مجدداً امام دمشق . وتوّج بودوان الثالث ملكاً على الصليبيين سنة ١١٥٢ ، فدشّن عهده في ١٩ آب ١١٥٣ باحتلال عسقلان وانتزاعها من ايدي الفاطميين . وكانت عسقلان منذ بدء الحروب الصليبية تشكل شوكة دائمة في جنب الدولة الصليبية في الجنوب . وتأثر العالم الاسلامي لسقوط عسقلان ، كما تأثر من قبل العالم الاوروبي لسقوط الرها ، فكان جواب نور الدين زنكي سريعاً إذ تمكن في نيسان سنة ١١٥٤ من اثارة الشعب في دمشق على حكامه ، ومن استلام المدينة ، لان دمشق اصبحت منذ سنة ١١٤٩ تحت الحماية الصليبية ، وتدفع ضريبة الحماية سنوياً . وبسقوط دمشق في يد زنكي يكون نور الدين قد اكمل توحيد بلاد الشام ، جامعاً ما بين دمشق وحلب . ثم عمد نور الدين في السنة التالية فاحتل بعلبك سلماً اذ كان عليها حاكم يعرف

بالضّحاك البقاعي من قبل مجير الدين آبق ، فتخوف زنكي من ان يستدعي الضّحاك الصليبيين لمساعدته ، فكان سقوط بعلبك في هذه المرة بالسلامة ، على غير ما حدث ايام عماد الدين زنكي ، وبذلك اصبحت المناطق الداخلية من لبنان تابعة للدولة الزنكية الجديدة .

وكان على جبال الغرب المشرفة على بيروت الامير بحتر التنوخي ، بموجب قرار من مجير الدين آبق حاكم دمشق (تاريخ بيروت . صالح بن يحي ، ص ٤٠ ، المكتبة الشرقية) فدخل في طاعة الحاكم الجديد الملك العادل نور الدين زنكي . وفي ما يلي نص المنشور الذي وجهه مجير الدين آبق إلى الامير بحتر سنة ٥٤٢ ﻫ (١١٤٥) (ورد التاريخ في اخبار الاعيان انه سنة ١١٤٧) : «الامير الاجل ناهض الدولة ابو العشاير بحتر بن علي بن ابراهيم بن ابي عبد الله ادام الله تأييده وتسديده وتمهيده باجرايه على رسوم المستمرة ، وقاعدته المستقرة من الضياع المنسوبة إلى رسمه المعروفة باسم والده واسمه ، وان يتناول ما يخص الخاص السعيد منها بحيث يصرفه في مصالحه ويتقوى به على الذمة ، واجرى على معهوده من الامارة بالغرب من جبل بيروت ، وهو معروف منعوت لما عرف من نهضته وكفايته وحسن سيرته وامانته والواجب على الرؤساء والفلاحون اعزهم الله تعالى سماع كلمته والدخول تحت طاعته فيما يلتمسه منهم من استخراج الحقوق السلطانية وموافقته على ما يطرأ من الخدم الديوانية ، وليحذروا من الخلاف،فيعود عليهم الحيف والاجحاف وسبيله ، ادام الله تأييده والذب عنهم وايصال شكاويهم إلى النواب والمتصرفين والاصحاب بحيث يجرون على عادتهم من غير تحديد رسماً ولاحادث لحيف اسما ، والواجب على الولاة والنواب المستجدين والاصحاب اجرى الامير المقدم ذكره على ما رسمناه ، وليعتمد على العلامة الكريمة في اعلاه ان شاء الله» .

الفصل العاشر

لبنان بين الصليبيين والدولة الزنكية

(١١٥٤ — ١١٧٤)

١) السياسة الزنكية .
٢) الاسطول الفاطمي يهاجم المدن الساحلية اللبنانية .
٣) نشاط القبائل العربية في لبنان .
٤) مناورات نور الدين زنكي .
٥) بروز العائلة الايوبية والسيطرة على مصر .

* * *

١ — السياسة الزنكية

بعد سقوط دمشق وتوحيد المناطق السورية الداخلية بيد نور الدين زنكي ، بدأت تظهر سياسة واضحة ، وتهدف إلى توحيد البلاد دينياً وسياسياً . اما من الناحية الدينية فان نور الدين زنكي كان متعصباً للخلافة العباسية وهو على مذاهب اهل السنة ، وقد رأى الملك الجديد منذ استيلائه على بلاد الشام وحلب ان البلاد مليئة بفرق الشيعة المختلفة

كالاسماعيليين والجعفريين والنصيريين وغيرهم . وان هؤلاء بسكوتهم او بتفاهمهم مع الصليبيين يشكلون نقط ضعف في بناء دولته . لذلك عمد إلى ملاحقتهم للقضاء عليهم . وقد سبّبت هذه الملاحقة عداء شديداً بين الفريقين . (ابو شامة — كتاب الروضتين ج ١ ص ٥٧) (اخبار سنة ٥٤٣ هـ) .

وتعود اسباب هذا العداء إلى ان الفرق الشيعية المختلفة وجدت نفسها في لبنان وبلاد الشام تشكل اكثرية السكان ، منذ السيطرة الفاطمية والحمدانية . وكانت قد بدأت بتكوين الامارات الشيعية في طرابلس وصور وحمص وسلمية وحلب حيث تعرضت للهجمات التركية السلجوقية التي حاولت القضاء على حركة التشيع في المنطقة .

فلما جاء الصليبيون شعرت الفرق الشيعية بان الضغوط عليها قد خفت ، كما ان الصليبيين لم يكن قصدهم القيـام بدعوة تبشيرية مسيحية ، بل تركوا للطوائف الدينية المختلفة حرية المعتقد والتصرف . لذلك نشأ بين الصليبيين والفرق الشيعية تعاون وصداقة طيلة اقامة الصليبيين في الشرق .

ثم قامت الدولة الزنكية تبطل الشعائر الشيعية وتلاحق المتمسكين بها (ابطال الآذان الشيعي) ابتداء بحلب حتى المناطق الداخلية من لبنان وذلك بقصد توحيد المسلمين في وجه الصليبيين (ابو شامة — كتاب الروضتين ج ١ ص ٥٧) .

واما من الناحية السياسية فان السياسة الزنكية رمت إلى توحيد الامارات والممالك الاسلامية المختلفة في دولة واحدة يمكنها التخطيط لضرب الصليبيين . وبعد ان تمكن نور الدين زنكي من ذلك في بلاد الشام ،

عمد يفكّر بمصر التي تشكل الجناح الجنوبي الاسلامي ليجعل الصليبيين بين فكيّ الكماشة .

ولكن هذه السياسة المزدوجة : الدينية والسياسية لم تمنع نور الدين زنكي من مهاجمة الصليبيين من وقت إلى آخر لانتزاع بعض مراكزهم ، والاستفادة من فترات ضعفهم ، والابقاء على الحماس الاسلامي في الاوساط الاسلامية المختلفة .

٢ — الاسطول الفاطمي يهاجم المدن الساحلية اللبنانية

لم يكن لنور الدين زنكي اسطول في البحر لعدم اتصاله بالساحل . لذلك كان نشاط الدولة الزنكية مركزاً دائماً على المناطق الداخلية . ولكن مصر الفاطمية كانت تملك اساطيل قوية . وكانت السفن الحربية المصرية تهاجم من وقت إلى آخر السفن الصليبية والنجدات الاوروبية الآتية إلى الشرق ، دفعاً لاخطار الصليبيين ، بالرغم من الضعف الشديد الذي اصاب الخلافة الفاطمية ووقوعها تحت سيطرة الوزراء .

ولكن هجمات الاسطول الفاطمي المصري لم تكن منسقة مع جهود حكام بلاد الشام لذلك لم يكن لها التأثير العميق في التطورات السياسية في العهد الفاطمي . وربما ان عدم التنسيق كان ناجماً عن الخلاف المذهبي بين الفاطميين الشيعة والزنكيين السنة ، خصوصاً بعد اضطهاد الشيعة في بلاد الشام على يد نور الدين زنكي .

منذ ان سقطت صور بايدي الصليبيين (سنة ١١٢٤) انقطع تواجد الاسطول المصري امام السواحل اللبنانية . واصبح هم مصر الاكتفاء بالجنوب الفلسطيني (منطقة عسقلان) . فلما هاجم الصليبيون عسقلان واحتلوها سنة ١١٥٣ عمدت مصر الى توجيه اسطولها لمهاجمة المراكز الساحلية الصليبية في فلسطين

وفي لبنان . خصوصاً ان دمشق كانت قد سقطت بيـد نور الدين ، فتغيرت بذلك اوضاع المنطقة سياسياً وعسكرياً ومذهبياً . فقد ذكر «ان الاسطول المصري هاجم بسبعين سفينة حربية مشحونة بالرجال ، مدينة يافا . واستولى على عدة مراكب للفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك . وظفر الاسطول المصري بجماعة من الحجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود زنكي ملك الشام ، فهمّ بقصد الفرنج في البر ليكون هو في البر والاسطول المصري في البحر ، فعاقه عن ذلك الشغل باصلاح دمشق .

ثم هاجم الاسطول المصري ببحارة البسوا ثياب الصليبيين ميناء صور فاحتلوا ميناءها ثلاثة ايام ونهبوا واحرقوا ثم رجعوا ، كما هاجم الاسطول المصري مرة ثانية بيروت بعد صور بسنتين (٥٥٢ هـ ١١٥٤ ميلادية) فاوقع بالفرنجة خسائر كبيرة . ثم هاجم سنة ٥٥٣ هـ ١١٥٥ ميلادية) السواحل الشامية فدوخ ساحل الشام وظفر بمراكب الفرنجة (خطط الشام ج ٢ ص ٣٣) .

وقد تعرضت بلادنا خلال هذه الفترة (١١٥٣ — ١١٥٨) لكثير من الزلازل والهزات الارضيـة العنيفة التي اوقعت كثيراً من الخسائر في المدن والقرى وتهدم العديد من القلاع والحصون في لبنـان وسوريا (ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٤) .

٣ — نشاط القبائل العربية في لبنان

وطدّ الملك العادل نور الدين محمود زنكي علاقته الطيبة مع بني بحتر التنوخيين في لبنان ، وكان على رأسهم الامير زهر الدولة كرامة بن بحتر المعتبر حارساً لثغر بيروت ومركزه حصن سرحمول . وقد

اورد صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ٤٣) منشور تولية الملك العادل نور الدين زنكي للامير زهر الدولة جاء فيه :

« الامير النجيب زهر الدولة ، مفيد الملك ، امير الغرب ، كرامة ، ادام الله تعالى عزه وسلامه ، مملوكنا وصاحبنا ، ومن اطاعه فقد اطاعنا ، ومن اعانه في جهاد الكفار فقد عمل برضانا ، وكان مشكوراً منا ، ومن خالفه في هذا الامر وعصاه ، فقد خالف امرنا ، واستحق المقابلة والسياسة على العصيان» . وكتب هذا المنشور في ١٤ ربيع اول سنة ٥٥٢ هجرية (١١٥٥ م) . ثم اصدر الملك العادل منشوراً آخر سنة ٥٥٦ هـ (١١٥٩ م) باعطاء الامير زهر الدولة كرامة بن بحتر « غالب قرايا الغرب ، ومن غير الغرب ، القنيطرة من البقاع ، ظهر الاحمر من وادي التيم ، تعلبايا من البقاع ايضاً ، برجه من صيدا ، بعاصر منها المعاصر الفوقا ، الدامور ، شارون ، مجدلبعنا ، كفرعميه» . وفرض عليه عدة من اربعين فارساً وما امكنه وقت المهمات الشريفة (تاريخ بيروت ، صالح بن يحيى ، ص ٤٣) .

اما المسلمون الشيعة في جبل عامل (عاملة) فلم يكونوا على وفاق مع نور الدين ، بسبب ما اصاب الشيعة على يده في حلب ودمشق وبقية المناطق السورية من اضطهاد ، لذلك مالوا في هذه الفترة إلى الجانب الصليبي ، فقد ذكر ابن القلانسي في اخبار سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧) (ص ٣٣٩) ان جيش نور الدين اوقع بالصليبيين هزيمة كبيرة امام بانياس « ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الافرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين اليهم» . بالرغم من ان الشيعة كانت على اتم وفاق مع طغتكين وخلفائه في دمشق في السابق ، وحاربت الصليبيين معه . وقد رأى نور الدين ان بانياس اصبحت مصدر خطر كبير عليه فهاجمها

في نفس السنة وتمكن من احتلالها ، بعنف بالغ ، مما فرض على الصليبيين ان يطلبوا الهدنة من نور الدين فقبلها ، اذ كانت الزلازل قد هدمت وخرّبت الكثير من القلاع والمناطق التي اصبحت بحاجة إلى ترميم وفترة هدوء وسلام. ولكن الصليبيين عادوا فاستردوا بانياس بعد شهر واحد من سقوطها . والجدير بالذكر ان معركة بانياس اشترك فيها نور الدين نفسه وبودوان الثالث ملك الصليبيين . ومرض نور الدين بعد ذلك مرضاً خطيراً في حلب ، فانتقلت المبادرة إلى ايدي الصليبيين في القتال .

٤ – مناورات نور الدين زنكي

كانت مهاجمة نور الدين لبانياس بدءا للمشاكل الجديدة بينه وبين الصليبيين فقد تكتلت ضده القوى الصليبية : ريموند الثالث كونت طرابلس ورينولد دي شاتيون امير انطاكية والملك الصليبي بودوان الثالث ، بالاضافة إلى الارمن ، ليهاجموا نور الدين الذي اصبح خطراً عظيماً عليهم بعد استيلائه على دمشق. واستولى الصليبيون على شيزر وعلى افامية. وفي اثناء ذلك مرض نور الدين في حلب مرضاً خطيراً ظنه الناس انه النهاية لنور الدين ، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة وانتزعوا حارم في شمالي سوريا ، وبدا ان الجبهة الشمالية من سوريا بدأت تتفكك امام ضربات الصليبيين. ثم عمد بودوان الثالث إلى مهاجمة اقليم دمشق وحوران. ولما تعافى نور الدين في مطلع سنة ١١٥٨ امر قائده اسد الدين شيركوه ان يغير على منطقة صيدا للانتقام وذلك في ايار سنة ١١٥٨ فنهب القرى واسر وغنم كثيراً . (ابن القلانسي – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٢) ثم هاجم نور الدين وشيركوه شمالي فلسطين ، وتمكن الصليبيون من ايقاع هزيمة كبرى بنور الدين وقواته في البطيحة بالقرب من طبريا (تموز ١١٥٨) ومن انتزاع منطقة السواد من يده .

ثم عاد الصليبيون يحاولون اكمال الهزيمة بنورالدين فتحالفوا مع مانويل كومنينوس امبراطور البيزنطيين، (عن طريق زواج بودوان الثالث من ابنة اخ مانويل) . وتوجهت قوات بيزنطية ضخمة بقيادة مانويل إلى سوريا الشمالية في نيسان ١١٥٩ . فوجد نور الدين نفسه في خطر كبير لذلك عمل على التفاهم مع البيزنطيين ، فعاد مانويل كومنينوس إلى بيزنطية .

وفي هذه الاثناء هرب حاكم صيدا الصليبي جوليان والتجأ إلى نور الدين ، فاعاده مع قوة اسلامية إلى صيدا . وذلك ليقسم صفوف الصليبيين . ويبدو أنه نجم عن هذه العملية توسع نور الدين في منطقة صيدا ، ودليل ذلك المنشور الذي اعطاه نور الدين للامير كرامة (صالح بن يحيى – تاريخ بيروت ص ٤٣) .

وتمكن نور الدين من ان يدفع عنه خطر السلاجقة في الشمال ، وخطر الصليبيين في انطاكية بعد ان اسرت قواته رينولد دي شاتيون المعروف بارناط سنة ١١٦٠ . وقد ابقاه نور الدين اسيراً لديه. ولم يفرج عنه فيما بعد الا سنة ١١٧٧ ، اي بعد وفاة نور الدين . وحاول الملك الصليبي ان يدعّم الجبهة الشمالية في سوريا ، فلم يتمكن وتوفي في بيروت سنة ١١٦٢ وقيل انه مات مسموماً . وقد خلفه اخوه آموري ملكاً على الصليبيين في شباط من السنة نفسها .

وقد اتجه آموري بسياسته اتجاهاً جديداً ، بعد ان قطع الصليبيون الامل من ضرب نور الدين وفك دمشق عن حلب . كانت سياسته الجديدة هي محاولته السيطرة على مصر الفاطمية الضعيفة التي كانت تدفع منذ سنة ١١٦٠ جزية سنوية لبودوان الثالث قدرها ١٦٠ الف دينار (وليم الصوري – ص ٨٩٠) . وقد استغل آموري فوضى

الوزارة في مصر ، وانحلال الخلافة الفاطمية فهاجم سنة ١١٦٣ الأراضي المصرية ووصل إلى بلبيس ثم عاد بسبب فيضان النيل . هذه السياسة الجديدة جعلت نور الدين يقبل انجاد شاور الوزير المصري الذي هرب من مصر منَ وجه خصمه ضرغام . ويبدو ان ضرغام كان على صلة مع التنوخيين البحتريين في لبنان بدليل انه ارسل إلى الامير عرف الدولة علي يطلب منه مناصرته ضد خصمه شاور الموجود في بلاد الشام عند نور الدين . ولكن الامير زهر الدولة كرامة بن بحتر شقيق عرف الدولة ظلّ على ولائه لنور الدين ، فلم تنجح مناصرة عرف الدولة لضرغام .

وقرّر نور الدين استغلال وجود شاور لديه فلباه وارسل معه قوة كبيرة على رأسها القائد اسد الدين شيركوه سنة ١١٦٤ . وبذلك بدأ التدخل الزنكي في مصر .

اثار التدخل الزنكي في مصر مخاوف الصليبيين ومخاوف شاور الوزير المصري بعد استقراره وسيطرته في مصر ؛ فاستنجد شاور بالملك الصليبي آموري ، فانجده بقوة حاصرت قوات شيركوه الزنكية . واضطر نور الدين إلى القيام بمناورة واسعة في انحاء مختلفة من بلاد الشام لتخفيف الضغط عن قواته المحاصرة في مصر فهاجم نور الدين قلعة حارم في شمالي سوريا وانتزعها بانتصار عظيم (١١٦٤) ثم هاجم بانياس فاحتلها واحتل كذلك قلعتها ، واجبر بذلك الصليبيين على فك حصارهم عن قواته في مصر . وكانت خسائر الصليبيين في معركة حارم ضخمة اذ اسر فيها امير انطاكية بوهيمند الثالث وامير طرابلس ريموند الثالث بالاضافة إلى امراء آخرين .

وبالرغم من عودة قوات نور الدين من مصر سليمة ، فان نور الدين زنكي تابع في السنة التالية (١١٦٥) هجماته على بعض المواقع الصليبية

الحصينة فاحتل قلعة المنيطرة وشقيف تيرون (نيحا) . قال ابن الاثير (الكامل – ج ١١ ص ٣٢٢) عن فتح المنيطرة :

« في هذه السنة (٥٦١ هـ) فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام ، وكان بيد الفرنج . ولم يحشد له ، ولا جمع عساكره وانما سار اليه جريدة على غرة منهم ، وعلم انه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا وانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصره ، وجدّ في قتاله ، فاخذه عنوة وقهراً وقتل من بها وسبى » .

وقد امّن نور الدين مواصلاته باحتلال الجناحين الحصينين : المنيطرة في الشمال وقلعةنيحا في الجنوب من ايدي الصليبيين . فانكشف امامه الطريق إلى منطقة التنوخيين الذين يسيطرون على قلب الجبل اللبناني (منطقة الغرب). وبعد هدوء قصير عاد نور الدين يوجه قواته بقيادة اسد الدين شيركوه إلى مصر ، بناءعلى طلب الخليفة الفاطمي العاضد الذي شعر بفقدان نفوذه بسبب شاور. فكان ذلك بمثابة التدخل العسكري الثاني (١١٦٧) في مصر. واصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين . ومن جديد استنجد الوزير شاور بالملك الصليبي آموري ، فوقعت القوات الزنكية الموجودة في مصر في ضيق اجبر نور الدين على القيام بمناورة واسعة في مناطق مختلفة من لبنان ، فقد هاجم منطقة عكار وحاصر عرقة وحلبا وكاد يصل إلى طرابلس كما انه حاول مهاجمة بيروت . وكانت النتيجة أن الصليبيين والمصريين وافقوا على إنسحاب شيركوه لقاء مبلغ من المال ، وأن يبقى للصليبيين حامية في القاهرة (آب ١١٦٧) .

كانت مناورة نور الدين زنكي في سنة ١١٦٧ ذات اهمية كبيرة بالنسبة إلى لبنان ، ذلك ان الملك آموري شعر بخطر نور الدين على المناطق البعيدة والمتطرفة من بلاد الصليبيين ، لذلك عمد الملك آموري

الامراء الصليبيون إلى توزيع القلاع والمراكز الحساسة على فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية لتحصينها بعد تهديم الزلازل لها وحمايتها من الهجمات المفاجئة .

وتطورت الامور في مصر بسرعة بسبب محاولة الصليبيين احتلال البلاد ، فاستنجد الخليفة الفاطمي بنور الدين فانجده من جديد باسد الدين شيركوه سنة ١١٦٩ ومعه ابن أخيه صلاح الدين . وكان ذلك التدخل نهائياً اذ وقعت مصر في قبضة نور الدين زنكي لان الخليفة العاضد عيّن شيركوه وزيراً له . وبذلك جعل نور الدين ممتلكات الصليبيين بين فكّي الكماشة من الشمال والجنوب . وبعد شهرين من انتصار شيركوه وتوليه الوزارة في مصر توفي ، فعيّن الخليفة الفاطمي العاضد صلاح الدين وزيراً له .

وبينما كان الملك اموري يحاول التفاهم مع البيزنطيين لتنظيم حملة صليبية مشتركة تمنع تدهور الاوضاع في البلاد (سنة ١١٧١) اذا بممثل نور الدين في مصر ، صلاح الدين الايوبي يهاجم بالاسطول المصري مناطق عكار المختلفة ويحتل عرقا وينهبها ويهاجم كذلك طرابلس . كما ان قبائل عربية وصلت إلى وادي التيم سنة ١١٧٣ لتستقر فيها حماية لتلك المنطقة الحساسة . هذه القبائل هي القبائل الشهابية . قال الشدياق في اخبار الاعيان (ج ١ ص ٤٢) :

« فقاموا (اي الشهابيين) إلى وادي التيم ونزلوا في بيداء الظهر الاحمر من الكنيسة إلى الجديدة . وكانت الافرنج حينئذ قد استولت على وادي التيم وتوطنوا حاصبيا ، وحصنوها بالالات الحربية والعساكر الوفية. فلما بلغهم نزول آل شهاب بعشائرهم في الظهر الاحمر جمع قنطورا قائدهم خمسين الف مقاتل وطلب الامداد من ذخائر الافرنجي صاحب

قلعة الشقيف وما يليها ، فامدّه بخمسة عشر الف مقاتل ، وزحف بعساكره لقتال الشهابيين . فلما التقى الجيشان استل الامير منقذ سيفه وتبعه قومه ، وغاروا على الافرنج فكسروهم ، وقتلوا منهم ثلاثة الآف رجل ، وقتل من عشائر الشهابيين ثلاثماية فارس فدفنوهم بثيابهم ، وكتبوا إلى نور الدين يبشرونه ... وفي اليوم العاشر قصد الشهابيون الافرنج وتدرجوا إلى حاصبيا ليلاً فتملكوها بالسيف . وقتلوا قنطورا واصحابه وارسل الامير منذر رؤوسهم إلى نور الدين فسرّ بذلك وولاه اميراً على تلك البلاد التي فتحها» .

ومن الملاحظ في هذه الرواية تضخيم القوات الصليبية وجعلها خمسين الف مقاتل في منطقة وادي التيم ، مع العلم ان مثل هذا العدد لم يتوفر للملك الصليبي آموري ، فكيف يتوفر لحاكم حاصبيا . وربما ان هذا التضخيم بالعدد هو لاعطاء الاهمية الخاصة للقبائل الشهابية . والمهم في الامر ان نزول الشهابيين في حاصبيا ووادي التيم دعّم خطط نور الدين الهجومية والدفاعية ، اذ ان هذه المنطقة كانت دائماً تهدد منها مناطق دمشق والمناطق البقاعية . كما ان هذا النزول الشهابي في وادي التيم ، اوجد مع المعنيين في الشوف والتنوخيين البحتريين في الغرب تفوقاً لنور الدين في كسب المواقع الستراتيجية .

٥ – بروز العائلة الايوبية والسيطرة على مصر

العائلة الايوبية عائلة كردية من اشراف الاكراد ، دخلت في خدمة آل زنكي . وقد اقامت حاكمة في بعلبك عندما احتلها عماد الدين زنكي ، وفي بعلبك نشأ صلاح الدين يوسف بن ايوب . وكان اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين من اكابر قادة نور الدين ، حتى أنه اصبح

حاكماً لدمشق اثناء مرض نور الدين سنة ١١٥٧ . وقد وقع اختيار نور الدين على قائده اسد الدين شيركوه للذهاب إلى مصر . وذهب اسد الدين ثلاث مرات في سنوات ١١٦٤ و ١١٦٧ و ١١٦٩ ، انتهت باستيلائه على البلاد والقضاء على الفتن ، لذلك كافأه الخليفة الفاطمي بتعيينه وزيراً وقائداً لجيوشه . وكان صلاح الدين في كل ذلك مرافقاً له . فلما توفي اسد الدين شيركوه ، احلّ الخليفة الفاطمي صلاح الدين محل عمه ، فاصبح صلاح الدين نائباً عن نور الدين زنكي في مصر ، اي انه يمثل الخلافة العباسية وهو وزير وقائد للفاطميين .

وقد شعر الصليبيون بسرعة بخطر سقوط مصر بيد نور الدين زنكي ، لان ذلك معناه توحيد البلاد الاسلامية للقضاء على الصليبيين ، فأسرع الملك اموري يستنجد باوروبا اولا ، وعندما لم تجب استنجد بالبيزنطيين فتوجهت حملة مشتركة برية وبحرية إلى دمياط ، ولكنها لم تعط نتيجة ايجابية ، فازدادت مكانة صلاح الدين في مصر . وبينما كان نور الدين يحاول ضم اقاليم السلاجقة في آسيا الصغرى ومناطق الموصل إلى دولته اعلن صلاح الدين في مصر المبايعة للخليفة العباسي منهياً بذلك عهد الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ . وبذلك عادت الوحدة المذهبية إلى المنطقة بكاملها . فكان ذلك بمثابة الانذار النهائي للصليبيين . وقد ارتبط اثر ذلك اسم صلاح الدين باسم نور الدين ، وتساوى الرجلان في الامجاد امام الناس وامام خليفة بغداد . وقد حاول نور الدين ان يربط بلاد الشام بمصر بطريق برية مؤمنة ، كما حاول ان يبعد صلاح الدين عن مصر بعد ان شعر بمطامعه ، الا ان المنية عاجلته فتوفي سنة ١١٧٤ تاركاً المسرح السياسي والعسكري لصلاح الدين .

اما الملك الصليبي آموري فقد حاول ان يستغل الفرصة بزوال نور الدين والفراغ الذي صارت اليه بـلاد الشام ، فهاجم بانياس ، ولكن ابن المقدم الذي كان في دمشق من قبل نور الدين ارضى الصليبيين وهددهم في نفس الوقت باستدعاء صلاح الدين فتراجع آموري . ثم كانت وفاة آموري بعد شهرين من وفاة نور الدين في ١١ تموز ١١٧٤ م .

• • •

الفصل الحادي عشر

لبنان بين الصليبيين وصلاح الدين الايوبي

(١١٧٤ - ١١٩٣)

١) تدهور الاوضاع السياسية عند المسلمين والصليبيين .

٢) زعامة ريموند الثالث امير طرابلس بين الصليبيين .

٣) صلاح الدين يحاول توحيد المناطق الاسلامية .

٤) صلاح الدين يهاجم من لبنان .

٥) وضع لبنان في ايام صلاح الدين .

٦) التطرف الصليبي يسيطر على الحكم : معركة حطين .

٧) صلاح الدين يحتل المناطق اللبنانية .

٨) صلاح الدين وحصار صور .

٩) الحملة الصليبية الثالثة .

١٠) الاتفاق الصليبي الاسلامي .

* * *

١ – تدهور الاوضاع السياسية عند المسلمين والصليبيين

جاءت وفاة الملك العادل نور الدين محمود زنكي سنة ١١٧٤ م ضربة للمشاريع التوحيدية التي حلم بها الملك . ذلك انه في الوقت الذي تم فيه توحيد مصر وسوريا (دمشق وحلب) والموصل في يد واحدة ، توفي الملك الذي فيه اجتمعت في ذلك الحين آمال المسلمين . ولو قيض للملك الصليبي آموري ان يطول عمره فلا يموت بعد نور الدين بشهرين، لتمكن الصليبيون من استرداد الكثير مما خسروه . وبالفعل نرى ان الملك آموري بدأ فوراً ، اثر وفاة نور الدين ، يستغل الفرصة بمحاصرة بانياس .

لقد ضعضعت وفاة نور الدين قادة المسلمين ، فحدث الاختلاف بينهم بسرعة ، وظهرت الاطماع ، لان الوريث الشرعي لنور الدين وهو ابنه اسماعيل الملقب بالملك الصالح لم يكن قد بلغ الرشد بعد . وبرز البعض من قادة نور الدين يستغلون الفرصة كابن المقدم في دمشق وابن الداية كمشتكين في حلب ، وانتقل الملك الصالح الى حلب متخذاً منها عاصمة له . وفي الموصل قام سيف الدين غازي « الثاني » مع اخيه عز الدين مسعود، اما في مصر فكان صلاح الدين الايوبي واخوته. وهكذا اصبحت الوحدة الاسلامية التي حققها نور الدين موزعة بين عائلتين قويتين : العائلة الزنكية في سوريا والموصل ، والعائلة الايوبية في مصر، وكان لا بد من التصادم بين العائلتين لتنفرد احداهما بالحكم والمسؤولية تحت اسم الوصاية على الملك القاصر الصالح اسماعيل .

اما في الجانب الصليبي فلم يكن الوضع افضل ، فالملك اموري توفي وهو يحاول استغلال وفاة نور الدين ، محاصراً لبانياس ، وكان وريثه

الشرعي ابنه بودوان الرابع الذي كان في الثالثة عشرة من العمر ، وكان مريضاً بالجذام ، فكان لا بد من وصاية عليه ، وقد برز بسرعة الامير الصليبي ميلون دي بلانسي Milon de Plancy فاصبح وصياً وقبض على امور الصليبيين بحزم ، فلم يتمكن احد من الامراء الصليبيين الاعتراض في البدء ثم دبروا مؤامرة انتهت بمقتل الوصي ووصول الامير الصليبي الكونت ريموند الثالث امير طرابلس الى الوصاية (سنة ١١٧٤) وكان هذا الوصي قد امضى من قبل ثماني سنوات في الاسر عند نور الدين زنكي اثر وقوعه اسيراً في معركة حارم (١١٦٤) ثم اطلق سراحه سنة ١١٧٢ بفدية كبيرة . وكان هذا الكونت يتقن اللغة العربية ويتفهم اوضاع البلاد . ومما زاد في مكانته زواجه من الاميرة الصليبية الحاكمة لبلاد طبريا والجليل (الاميرة أشيفا)، وبعد بلوغ الملك بودوان الرابع رشده ، بقي ريموند مستشاراً ، وهكذا تمكن الصليبيون بسرعة من جمع صفوفهم ، بينما كان المسلمون مستمرين في مخاصماتهم ومطامعهم .

٢ – زعامة ريموند الثالث امير طرابلس بين الصليبيين

بقيت الكلمة الاولى لريموند الثالث في شؤون الصليبيين منذ اواخر سنة ١١٧٤ الى سنة ١١٨٥ اي حتى وفاة بودوان الرابع ، كان خلالها مستشاراً للملك واليد اليمنى له . ثم اصبح مجدداً وصياً على الطفل بودوان الخامس (١١٨٥ – ١١٨٦) حتى وفاته في ايلول ١١٨٦ ، وكاد ريموند الثالث يصبح بعد بودوان الخامس ملكاً على الصليبيين ، لولا المؤامرات عليه . وفي الوقت ذاته ظل اميراً على طرابلس (١١٥٢ – ١١٨٧) .

ويعود الفضل الكبير لهذا الزعيم الصليبي انه ابعد مراراً خطر الانهيار الصليبي وانه اعاد وشجع السياسة التقليدية الصليبية في منع توحيد المناطق الاسلامية ، معتبراً ان الخطر الاكبر على الصليبيين سيأتي عن طريق صلاح الدين وليس عن طريق الامراء الزنكية . وقد اسهم ريموند الثالث في تكوين حلف عسكري جمع الامراء الزنكية وقادة الباطنية (الحشاشين) والصليبيين ليكونوا جبهة متراصة ضد صلاح الدين ، بالرغم من اختلاف اهداف هؤلاء المتحالفين .

وقد تركز جهد هؤلاء المتحالفين على منع سقوط حلب بيد صلاح الدين ، بعد تمكنه من دمشق . وظلّ هذا التعاون قائماً حتى سقطت حلب سنة ١١٨٣ . ولقد اظهر الكونت ريموند الثالث خلال هذه المدة (١١٧٤ — ١١٨٦) عن ذكاء ودهاء كبيرين فتميز بتوقيع الهدنات مراراً ، والضغط واستغلال فرص ضعف صلاح الدين مراراً ، مما جعل المؤرخ ابن الاثير يقول عنه : (الكامل — ج ١١ ص ٤١٩) .

« كان عظيماً منهم من اعيان شياطينهم ... فلما توفي (اموري) خلّف ابنه مجذوماً عاجزاً عن تدبير الملك ، فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القمص ريموند الملك واليه الحل والعقد عن امره يصدرون » .

٣ — صلاح الدين يحاول توحيد المناطق الاسلامية

كان صلاح الدين قد بدأ يظهر طموحه في ايام الملك العادل نور الدين ، فلما توفي نور الدين ، وجد صلاح الدين الفرصة المناسبة ، ليضم اليه بلاد الشام ، وقد استفاد من الخلاف الذي وقع بين دمشق

وحلب بشأن الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، وانتقال هذا الاخير الى حلب وكذلك استفاد من التحالف الذي تم بين الامراء الزنكية وقادة الباطنية والصليبيين ضده ، فتفاهم مع زعماء دمشق وعلى رأسهم ابن المقدم ، وجاء من مصر الى دمشق على رأس ٧٠٠ فارس فقط ، فاستولى على المدينة بدون قتال في اواخر تشرين الثاني سنة ١١٧٤ ، وبذلك اصبح البقاع تابعاً له ، فعين ابن المقدم على بعلبك ، وتابع صلاح الدين توجهه شمالا فاستولى في كانون اول من السنة نفسها على حمص وحماه ، ثم توجه نحو حلب في مطلع سنة ١١٧٥ .

كان لمحاصرة صلاح الدين لمدينة حلب ردة فعل سريعة ، فقد استنجد الزنكيون من حلب بالصليبيين وبالباطنية (الحشاشين في بلاد العلويين) فتحرك الصليبيون بقيادة كونت طرابلس ريموند الثالث وهاجموا منطقة حمص لقطع خط الرجعة على صلاح الدين . فاضطر صلاح الدين الى التخلي عن حلب والعودة الى حمص للدفاع عنها ولتحصينها .

وكانت مكافأة الزنكيين في حلب للصليبيين على مساعدتهم انهم اطلقوا سراح ارنولد دي شاتيون المعروف بارناط وسراح جوسلين الثالث .

وقد سبب هجوم صلاح الدين على حلب ان الامراء الزنكية من الموصل وحلب قاموا بهجوم على صلاح الدين لتخليص بلاد الشام من يده ، فجرت معركة بين الفريقين في منطقة حماه عرفت باسم معركة قرون حماه (نيسان ١١٧٥) كانت نتيجتها : اولا ان صلاح الدين قطع الخطبة للملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، وصارت

الدعوة لنفسه ، ثانياً ان الاتفاق تم بين الفريقين على ان تكون حلب مملكة للملك الصالح اسماعيل وتكون بقية بلاد الشام لصلاح الدين .

ولكن الهدوء لم يحدث مطلقاً بين صلاح الدين ومملكة حلب ، وكان على صلاح الدين ان ينتقل دائماً ما بين مصر ودمشق ، كما ان الباطنية النصيرية حاولت مراراً اغتياله بالاتفاق مع الصليبيين . ثم وصلت نجدة صليبية كبيرة بقيادة فيليب الالزاسي (كونت دي فلاندر) سنة ١١٧٧ من اوروبا ، وهاجمت من طرابلس مناطق حماة ، واوقعت بهذه المناطق خسائر جسيمة ، وكان صلاح الدين قد تعرض في الفترة ذاتها كانون اول سنة ١١٧٧ الى هزيمة كبيرة في الرملة في فلسطين (معركة تل الصافية) فاضطر بسبب ذلك الى البدء بمهاجمة الصليبيين .

٤ — صلاح الدين يهاجم من لبنان

رأى صلاح الدين ان الصليبيين يهاجمون في الشمال والوسط ، وانهم بدأوا باقامة الحصون في منطقة الحولة (حصن بنات يعقوب وحصن هونين) ، وان الصليبيين نشطوا كثيراً بعد انتصارهم في معركة تل الصافية ، وانهم حاولوا اجتياح البقاع واحتلال بعلبك ، ولولا نجدة ابن المقدم حاكم بعلبك وطوران شاه من دمشق ومهاجمتهما للصليبيين في عنجر لكانت المنطقة قد اصبحت بكاملها في ايديهم . ثم ان ابن المقدم عصي ببعلبك محاولا ان يستقل بها عن صلاح الدين .

رأى صلاح الدين كل ذلك فقرر العمل بسرعة رداً على محاولات الصليبيين ، فبدأ بالبقاع وانتزع بعلبك من ابن المقدم واعطاها لاخيه الاكبر طوران شاه . قال ابن الاثير حول هذا الموضوع : في هذه

السنة (٥٧٤ هـ) عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، على صلاح الدين ببعلبك ، وكانت له قد سلمها اليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له من حيث سلم اليه ابن المقدم دمشق ، فلم تزل بيده الى الآن فطلب شمس الدولة بن ايوب اخو صلاح الدين منه بعلبك، والح عليه في طلبها لان تربيته ومنشأه كان بها ، وكان يحبها ، ويختارها على غيرها من البلاد (الكامل — ج ١١ ص ٤٥١) .

ثم انتقل صلاح الدين لمهاجمة الحصن الجديد الذي اقامه الصليبيون بقيادة بودوان الرابع على جسر بنات يعقوب جنوبي بانياس فحاصره، وكان فرسان الداوية templiers يدافعون عنه ويستعملونه لقطع الطريق على قوافل المسلمين ، وقد جرت اتصالات بين الفريقين لهدم الحصن بدون قتال وتعهد صلاح الدين بدفع مائة الف دينار تعويضاً ، ولكن الاتفاق لم يتم . وهاجم صلاح الدين قوات الصليبيين في منطقة بانياس فانتصر عليهم ثم بدأ بمهاجمة حصن بيت الاحزان (بنات يعقوب) في ايار سنة ١١٧٩ . واتخذ صلاح الدين مركزاً لعملياته في تل القاضي غربي بانياس (الحدود اللبنانية) ، وارسل قوة الى شمالي البقاع لتجمد تحركات الصليبيين نحو حمص ، وقوة اخرى لتجمد تحركات الصليبيين في انطاكية . وهكذا انفرد صلاح الدين بقوات الصليبيين التابعة لمملكة القدس . ثم ارسل صلاح الدين عساكره ومعها قبائل العرب الى منطقتي صيدا وصور حتى يحصدوا غلات العدو(ابن الاثير ـ الكامل ـ ج ١١ ـ اخبار سنة ٥٧٥) وبذلك استدرج صلاح الدين الصليبيين الى معركة هيأ لها ظروفها المناسبة، فجرت المعركة في سهل مرجعيون، وكان بودوان الرابع يقود الجيش الصليبي بنفسه . وانتصر صلاح الدين بعد ان كاد يأسر الملك الصليبي . ثم اجتاح صلاح الدين حصن بيت الاحزان فاحتله

وهدمه (آب ١١٧٩) وانتقل صلاح الدين بعدها يهاجم مناطق صور وصيدا وبيروت ، ووجه اسطوله البحري من مصر فهاجم عكا . فاضطر الصليبيون امام هجمات صلاح الدين الى طلب الهدنة ، فوافق صلاح الدين ووقعت الهدنة في ايار سنة ١١٨٠ مع بودوان الرابع . ثم هاجم اسطول صلاح الدين كونتية طرابلس فضرب طرطوس في حزيران ١١٨٠ فاضطر ريموند الثالث الى طلب الهدنة كذلك فوقعت معه .

وبهاتين الهدنتين ، اوجد صلاح الدين لنفسه الفرصة المناسبة لمعالجة توحيد بقية المناطق الاسلامية ، وبخاصة مملكة حلب .

٥ – وضع لبنان في ايام صلاح الدين

بعد مرور حوالي ثلاثة ارباع القرن على الوجود الصليبي في لبنان ، كان الوضع كما يلي : البقاع بكامله بيد صلاح الدين وتابع لدمشق ومركزه بعلبك ، ويتبعه حصن المنيطرة في جبل لبنان . ووادي التيم ومنطقة مرجعيون بيد صلاح الدين (بعد معركة تل القاضي) ومنطقة الشوف والغرب تابعتان لصلاح الدين ويشرف منهما على صيدا وبيروت ويهددهما بشكل دائم . وكان على رأس التنوخيين في الغرب الامير جمال الدين بن حجي بن كرامة ، بينما كان الشهابيون في وادي التيم والمعنيون في الشوف . اما في جبل عامل فقد كانت الشيعة خاضعة للحكم الصليبي .

وقد وصف الرحالة الاندلسي ابن جبير اوضاع البلاد الداخلية خلال رحلته الى الشرق ومروره ببعض المناطق اللبنانية (١١٨٢ – ١١٨٥) فقال عن جبل لبنان (رحلة ابن جبير – ص ٢٥٩) : « ومتى سئم (اي الغريب) المقام خرج الى ضيعة

اخرى او يصعد الى جبل لبنان او الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله ، عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء . ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم .

وهذا الجبل من اخصب جبال الدنيا ، فيه انواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض . ومن اعجب ما يحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان . ويقع المصاف بينهم وارفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك . وتجار النصارى ايضاً لا يمنع منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الامنة على غاية . وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب . »

يستفاد من هذا النص الذي اورده ابن جبير ان الجبال اللبنانية كانت وما تزال قليلة السكان ، وان الطابع الغالب في هذه الجبال انها موطن التبتيل والزهادة . كما يستفاد ان الوفاق كان مسيطراً بين المسلمين والنصارى من سكان لبنان ولا اختلاف بينهم ، بالرغم من الحروب القائمة بين المسلمين والصليبيين ، مما يدل على عدم تأثر الشعب بالفريقين المتحاربين ، وعلى عدم تأثير الصليبيين في الحياة الداخلية اللبنانية .

ويذكر ابن جبير علاقة المسلمين بالصليبيين فيقول : « وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين ، وهو موضع تمكيس القوافل ..... والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطاً ..... ورحلنا من تبنين ، دمّرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها من المسلمين ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند اوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضاً . ومساكنهم بايديهم وجميع احوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل . رساتيقهم كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع .وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعمالهم ،لأنهم على ضد احوالهم من الترفيه والرفق.» (رحلة ابن جبير- ص٢٧٥).ويستفاد من هذا النص الثاني المتعلق بالنواحي الاقتصادية ان وضع المسلمين تحت الحكم الصليبي كان افضل وارحم من وضع المسلمين تحت الحكم الاسلامي . فالضرائب اقل على الرؤوس ، وعلى مختلف انواع الانتاج ، بالاضافة الى الحرية الذاتية التي كان يتمتع بها المسلمون ، بينما كان يسود النظام الاقطاعي حيث يقوم الحكم الاسلامي . لذلك قابل عامة المسلمين تحت الحكم الصليبي هذه المعاملة بالرضاء والقبول ، ولم يتحركوا لمحاربة الصليبيين . وقد اعتبر ابن جبير هذه الحالة بمثابة الفتنة بين المسلمين .

اما من الناحية الصليبية فقد كان الصليبيون يعيشون في المدن وفي القلاع الحربية ، وكان اهتمامهم منصباً على التجارة والامور العسكرية . وقد اهتموا بتحصين السواحل ، وقد وصف ابن جبير ميناء صور فقال :

« مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد اعدّها الافرنج مفزعاً لحادثة زمانهم وجعلوها بمثابة لامانهم ، هي انظف من عكا سلكاً وشوارع ، واهلها الين في الكفر طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم اسجع ومنازلهم اوسع وافسح ، واحوال المسلمين بها اهون واسكن ، وعكة اكبر واطغى واكفر . واما حصانتها ومناعتها فاعجب ما يحدث به ، وذلك انها راجعة الى بابين : احدهما في البر ، والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب . واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها . وعلى ذلك الباب حراس وامناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع .... » (رحلة ابن جبير ص ٢٧٧) .

٦ – التطرف الصليبي يسيطر على الحكم:

معركة حطين

كانت هدنة سنة ١١٨٠ ضرورية للفريقين المتحاربين ، ذلك ان

الصليبيين كانت اوضاعهم الداخلية مضطربة ، كما ان صلاح الدين كان يريد اكمال توحيد المناطق الاسلامية بالسيطرة على الموصل وعلى حلب حتى تصبح البلاد الشامية بكاملها في يده . ولكن بعض الزعماء الصليبيين المتطرفين وصلوا الى مركز القيادة مثل غي دي لورننيان صهر الملك وارنولد دي شاتيون الذي صار اميراً للكرك . وقد سبب هؤلاء الزعماء اعادة التوتر بين الفريقين ، فقد عقدوا تحالفاً مع المملكة الزنكية في حلب ومع الباطنية في جبال العلويين لمنع سقوط حلب بيد صلاح الدين . وجاءت وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي في حلب سنة ١١٨١ لتثير ازمة مصير حلب . فقد حاول صلاح الدين مجدداً الاستيلاء على حلب والموصل . فلم يتمكن من ذلك واضطر الى العودة لمقابلة الصليبيين الذين خرقوا الهدنة بهجوم ارنولد دي شاتيون على شمالي الحجاز وتحركهم في حوران ومحاولة الهجوم على دمشق . فاضطر صلاح الدين الى مهاجمة منطقة طبريا ، ثم جمع قواته في جنوبي البقاع وانتقل باتجاه بيروت ليضرب الحصار عليها بمؤازرة التنوخيين امراء الغرب كما امر اسطوله المصري بمحاصرة بيروت من البحر . ولكن الملك الصليبي بودوان الرابع بالرغم من مرضه امر السفن الصليبية من عكا وصيدا بمهاجمة الاسطول المصري لتخليص بيروت (ولّيم الصوري ص ١٠٩٩) . فتخلى صلاح الدين عن محاصرة بيروت وعاد الى دمشق في تموز ١١٨٢ . ثم حاول ارنولد دي شاتيون غزو الحجاز والاستيلاء على المراكز الاسلامية المقدسة ونقل بعضها الى الكرك ، فسبب ذلك مزيداً من النقمة الاسلامية ، وبالرغم من فشل المحاولة فان صلاح الدين استعاض عن هذه الاعتداءات بالسيطرة على حلب في سنة ١١٨٣ .

واضطر الصليبيون مجدداً الى عقد هدنة جديدة لتسوية اوضاعهم المتردية ، وذلك في صيف سنة ١١٨٣ .

وعاد ارنولد دي شاتيون امير الكرك يقطع خطوط المواصلات بين سوريا ومصر ، فهاجم صلاح الدين الكرك في ايلول ١١٨٣ دون نجاح ، ثم عمد الى مهاجمة الكرك مرة ثانية سنة ١١٨٤ ولم يوفق بسبب نجدة الصليبيين للقلعة المذكورة .

وساءت حالة الملك الصليبي بودوان الرابع وتوفي في ١٦ اذار سنة ١١٨٥ فعين ريموند الثالث امير طرابلس وصياً على العرش سنة ١١٨٥ . فعقد ريموند الثالث هدنة جديدة مع صلاح الدين ، وكان الملك الصليبي الجديد الطفل بودوان الخامس مريضاً لذلك اجتمعت السلطة الصليبية في يد ريموند الثالث ، فتمكن من انقاذ المملكة الصليبية بحسن سياسته وتعاونه مع صلاح الدين .

ولكن سرعان ما توفي الملك الطفل بودوان الخامس في آب سنة ١١٨٦ واصبح غي دي لوزينيان ملكاً على الصليبيين ، وابعد ريموند الثالث ، فاصبح المتطرفون الصليبيون يسيطرون على البلاد . واستغل ارنولد دي شاتيون الفرصة فهاجم قافلة كبيرة لتجار المسلمين كانت في طريقها بين مصر وسوريا في مطلع سنة ١١٨٧ فقرر صلاح الدين العمل بسرعة ، فعقد هدنة مع بوهيمند الثالث امير انطاكية ، ثم انتقل الى مهاجمة الكرك بعنف بالغ .

ودعا صلاح الدين الامراء المسلمين من مختلف المناطق الى الجهاد المقدس ثم هاجم طبريا ، فاجتمع الصليبيون للدفاع عن المدينة فوقعت بين الفريقين معركة حاسمة هي معركة حطين (قرب طبريا) في الرابع من تموز سنة ١١٨٧ . ووقع الملك الصليبي غي دي لوزينيان وارنولد

دي شاتيون ومعظم القادة الصليبيين في الاسر . وتلقى دي شاتيون عقوبة الاعدام بيد صلاح الدين .

٧ – صلاح الدين يحتل المناطق اللبنانية

تدهورت اوضاع الصليبيين اثر معركة حطين فقد فقدوا عشرين الف جندي بين قتيل واسير فاندفع صلاح الدين يحتل شمالي فلسطين ، فسقطت عكا في يده في ١٠ تموز ١١٨٧ ، ثم ضرب الحصار على تبنين فاخذها في ٢٩ تموز ، واثناء الحصار سيطر على مناطق جبل عامل ، ما عدا قلعة الشقيف . وقد سقطت صرفند وصيدا سلماً بعد ان سلمها الامير الصليبي رينو وانتقل الى قلعة الشقيف . وتابع صلاح الدين اندفاعه شمالا فاحتل بيروت في ٦ آب ١١٨٧ بالقوة وكذلك استسلمت له جبيل بعد ان سلمها له اميرها هيو . وعين صلاح الدين على بيروت الامير اسامة بن منقذ حاكماً عليها . واحتل صلاح الدين منطقة عكار واندفع شمالا فاحتل معظم المناطق التابعة لانطاكية . ولم يبق في ايدي الصليبيين من لبنان سوى طرابلس المدينة وصور وقلعة الشقيف .

وفي ١٢ تشرين اول سنة ١١٨٧ احتل صلاح الدين مدينة القدس واكمل احتلال المناطق الفلسطينية . وبذلك سقطت المملكة اللاتينية الصليبية . وبالرغم من ان صلاح الدين لم يطرد الصليبيين من المدن والقرى الا من القدس فقط فقد اخذ الصليبيون ينزحون اما الى صور واما الى طرابلس .

وفي طرابلس رفض الحكام الصليبيون استقبال النازحين الصليبيين ، ووصل الامر بهم انهم نهبوهم وعاملوهم معاملة سيئة ومنعوهم من دخول المدينة . وكان ريموند الثالث كونت طرابلس قد توفي بعد ان عهد بحكم المدينة الى عائلة بوهيمند الحاكمة في انطاكية . وبذلك انتهى

حكم عائلة سان جيل التولوزية التي استمرت منذ بدء الحروب الصليبية حتى صيف سنة ١١٨٧ .

اما صور فقد امتنعت على صلاح الدين ، ثم تدفق اليها النازحون الصليبيون ، كما وصلت نجدة صليبية من اوروبا بقيادة كونراد دي مونتفرا في تموز سنة ١١٨٧ . فتزعم كونراد الجموع الصليبية في صور ونظمها واعاد اليها الامل ، فلم يعد باستطاعة صلاح الدين السيطرة على المدينة .

واضطر صلاح الدين في السنة التالية ١١٨٨ ان يطلق سراح الملك الصليبي غي دي لوزينيان لتنظيم ترحيل الصليبيين من صور . ولكن غي دي لوزينيان غير تعهده لصلاح الدين وتزعم جموع النازحين الى صور ، ثم سار بهم بعد اختلافه مع كونراد دي مونتفرا ، الى عكا فضرب عليها الحصار محاولا احتلالها واتخاذها مركزاً له . واضطر صلاح الدين الى الاسراع لمحاصرة غي دي لوزينيان حول عكا وذلك ابتداء من صيف سنة ١١٨٩ .

واثناء حصار الصليبيين حول عكا ، عمد صلاح الدين الى محاصرة قلعة الشقيف . وقد اتخذ مركزاً له في مرجعيون . وكان الامير الصليبي رينو صاحب صيدا وصور سابقاً هو المدافع عن القلعة . وسقطت القلعة بيد صلاح الدين في نيسان سنة ١١٩٠ وبذلك اصبح لبنان بكامله ما عدا طرابلس وصور ، في يد السلطان الايوبي .

وكما عد المؤرخون لصلاح الدين موقف الشهامة والفروسية في معاملته للصليبيين ، عدوا له خطأه العسكري الكبير بترك صور مركز تجمع صليبي ادى في النهاية الى تمكين الصليبيين من استعادة البلاد بعد وفاة صلاح الدين .

٨ – صلاح الدين وحصار صور

(نص مأخوذ من الكامل في التاريخ لابن الاثير) .

«لما فتح صلاح الدين البيت المقدس.... سار الى مدينة صور، وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير، وقد صار المركيش (يعني كونراد دي مونتفرا) صاحبها والحاكم فيها . وقد ساسهم احسن سياسة ، وبالغ في تحصين البلد . ووصل صلاح الدين الى عكا ، واقام بها اياماً . فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها . ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها . ثم رحل صلاح الدين عن عكا ، فوصل الى صور ، تاسع شهر رمضان ، فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه ، حتى اجتمع الناس وتلاحقوا ، وسار في الثاني والعشرين من رمضان ، فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال . وقسم القتال على العسكر ، كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه ، بحيث يتصل القتال على اهل البلد . على ان الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة ، يكفيه الجماعة اليسيرة من اهل البلد لحفظه ، وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر ، فلا يكاد الطير يطير عليها ، فان المدينة كالكف في البحر ، والساعد متصل بالبر والبحر من جانبي الساعد ، والقتال انما هو في الساعد ، فزحف المسلمون مرة بالمجانيق والعرادات والجروخ والدبابات ، ...... وكان للفرنج شوان وحراقات يركبون فيها في البحر ، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه اهل البلد ، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ ، ويقاتلونهم ، وكان ذلك يعظم عليهم ، لان اهل البلد يقاتلونهم من بين ايديهم ، واصحاب الشواني يقاتلونهم من

جانبيهم ، فكانت سهامهم تنفذ من احد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع ، فكثرت الجراحات في المسلمين والقتل ، ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد ، فارسل صلاح الدين الى الشواني التي جاءته من مصر ، وهي عشر قطع ، وكانت بعكا ، فاحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها ، وكانت في البحر تمنع شواني اهل صور من الخروج الى قتال المسلمين ، فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ، ومن قتاله ، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون ، فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب ، وذلك ان خمس قطع من شواني المسلمين باتت ، في بعض الليالي ، مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه ، فباتوا ليلتهم يحرسون ..... فلما كان وقت السحر امنوا فناموا ، فما شعروا الا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم ، فاوقعت بهم ، فقتلوا من ارادوا قتله ، واخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم ميناء صور ، والمسلمون في البر ينظرون اليهم . ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني في البحر ، فمنهم من سبح فنجا ، ومنهم من غرق ....لما رأى صلاح الدين ان امر صور يطول ، رحل عنها ، وهذه كانت عادته ، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه . وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع في الايام القريبة ، كما ذكرناه ، بغير تعب ولا مشقة . فلما رأى هو واصحابه شدة امر صور ملوها ، وطلبوا الانتقال عنها ، ولم يكن لاحد ذنب في امرها غير صلاح الدين .... » (الكامل – ابن الاثير – ج ١١ ص ٥٥٤ وما بعدها) »

٩ – الحملة الصليبية الثالثة

كان لانهيار المملكة الصليبية اللاتينية في صيف سنة ١١٨٧ نتائج

هامة منها : ١) التفاهم السريع بين السلطان صلاح الدين الايوبي وامبراطور بيزنطية . واعطاء الارثوذكس الولاية الدينية الاولى في الاماكن المقدسة . ٢) الدعوة في اوروبا لارسال حملة صليبية جديدة لتنقذ الاوضاع المتردية ، ٣) تجميع شتات الصليبيين الشرقيين لتجميد هجمات وانتصارات صلاح الدين .

وبالفعل فقد ارسل الملك الصليبي كونراد دي مونتفرا رئيس اساقفة صور جوسياس Josias الى البابا والى الدول الاوروبية لطلب النجدة وذلك في صيف سنة ١١٨٧ .

وبينما كانت اوروبا تهيء نفسها لحملة صليبية جديدة ، اذا بصلاح الدين يخفف من تعبئة جيوشه ، فتعود مجموعات كبيرة من العساكر الى شمالي سوريا وشمالي العراق ، مما جعل قوة صلاح الدين تضعف نسبياً .

وكانت تباشير الحملة الصليبية الجديدة قد بدأت بوصول قوة من الاسطول النورماني الى طرابلس ، باعتبار انها اصبحت تابعة للبيت النورماني الحاكم في انطاكية . وكانت تلك القوة مرسلة من قبل الملك وليم الثاني ملك صقلية . وقد دعمت هذه القوة موقف طرابلس بالفعل ومنعتها من السقوط حين هاجمها صلاح الدين . اما في صور فكان كونراد دي مونتفرا ، كما رأينا يحصن المدينة وينظم شؤونها بانتظار وصول النجدات من اوروبا . وفي عكا كان غي دي لوزينيان خصم كونراد يضرب الحصار على المدينة بعد ان جمع فلول الصليبيين ، وبانتظار وصول النجدات من اوروبا .

ثم وصلت انباء مسيرة الحملة الالمانية بقيادة فردريك بربروسا ، وقيل انه سار بماية الف محارب ، فتخوف الناس من ضخامة هذه الحملة ، واعتقدوا ان الالمان سيحتلون بلاد الشام بكاملها ، فاقدم صلاح الدين على هدم اسوار المدن الساحلية التي بيده مثل يافا وقيسارية وارصوف ، وفي لبنان هدم اسوار صيدا وجبيل ونقل سكان المدينتين الى بيروت ، وعمل على تحصين بيروت ، ولكن حملة الالمان فشلت بعد غرق الملك فريدريك بربروسا ، فعاد القسم الاكبر منها ، ووصل قسم ضئيل منهم الى بلاد الشام ، وهم بحالة زرية طمعت بهم المسلمين فنهبوهم واسروا كثيراً منهم ، وفي ذلك يقول ابن واصل : « كانوا حملة عصي وركاب حمير ، وان الناس كانوا يأسرون منهم ، وهانوا في الانفس ، بعدما كانوا قد تهيبوا هيبة عظيمة ، وبيعوا في الاسواق بالثمن البخس » (ابن واصل — مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٢ و٣٢٣)

هذه البعثة من الفلول الالمانية ، وصلت الى عكا واشتركت مع غي دي لوزينيان في محاصرة عكا في ايلول سنة ١١٩٠ ، كما وصلت نجدات بحرية الى عكا من الامارات الايطالية . فاصبحت عكا في خطر السقوط . فعاد صلاح الدين يدعو الامارات والمماليك الاسلامية الى الجهاد . ووصل الاسطول المصري الى عكا فامدها بالرجال والغذاء والسلاح لتمكينها من الصمود . ثم وصلت القوات الفرنسية بزعامة ملك فرنسا فيليب اوغست الى صور ، وانطلقت منها مع كونراد دي مونتفرا الى عكا ليشددوا محاصرة الصليبيين لعكا وذلك في ٢٠ نيسان سنة ١١٩١ . وقد اعطى الفرنسيون دعماً وقوة لكونراد ضد منافسه غي دي لوزينيان بسبب نزاعهما على عرش المملكة الصليبية في الشرق.

١٠ – الاتفاق الصليبي الاسلامي

اما الحملة الانكليزية بقيادة ريكاردوس الملقب بقلب الاسد فقد مرت على قبرص وانتزعتها من يد البيزنطيين بسبب التفاهم الاسلامي البيزنطي وذلك في ايار سنة ١١٩١ . ثم توجه ريكاردوس بحملته الى صور في ٦ حزيران من نفس السنة. ولكن الصليبيين في صور رفضوا استقباله نظراً لصداقته مع غي دي لوزينيان ، فتوجه الى عكا في ٨ حزيران ، وتزعم عملية محاصرة المدينة ، كما كان عليه ان يوفق ما بين منازعات الامراء الصليبيين ، وبخاصة نزاع كونراد وغي . وشدد الصليبيون الحصار على عكا ، فحاولت بيروت ارسال نجدة الى المدينة المحاصرة ، ولكن هذه النجدة وقعت في قبضة ريكاردوس ، وانتحر بحارتها وعددهم ٦٥٠ بحاراً حتى لا يكونوا اسرى بيد قلب الاسد .

وفي تموز سنة ١١٩١ سقطت عكا بيد الصليبيين واستسلم افراد حاميتها وهم ثلاثة آلاف مقاتل ، فاعدمهم ريكاردوس جميعاً . وعلى اثر سقوط عكا ، اعتبر فيليب اوغست ملك فرنسا ان غايته تحققت ، فعاد الى فرنسا تاركاً جزءاً من قواته تحت زعامة ريكاردوس وذلك في ٣ آب سنة ١١٩١ .

وقرر ريكاردوس متابعة فتح المناطق الفلسطينية فتوجه جنوباً واحتل حيفا وقيسارية ثم اصطدم بقوات صلاح الدين في ارصوف . فجرت بين الفريقين معركة ضخمة في ١٧ ايلول سنة ١١٩١ انتصر فيها ريكاردوس انتصاراً عظيماً محا به الهزيمة الصليبية المرة في حطين . ثم اندفع يحتل المناطق الداخلية من فلسطين ، وضرب الحصار على القدس. ولكن صلاح الدين ركز جهوده . وجمع قواته للدفاع عن القدس بالدرجة الاولى ، واضطر ريكاردوس الى التراجع عن القدس بسبب قوة الدفاع عنها ، والاختلاف المستمر بين زعماء الصليبيين . وفي هذه

الفترة ابتدأت المفاوضات بين ريكاردوس وصلاح الدين لايجاد حل للازمة . وورد اقتراح بتزويج الملك العادل شقيق صلاح الدين من الاميرة جوانا شقيقة ريكاردوس ولكن الاقتراح لم ينجح . وعقد ريكاردوس مؤتمراً لزعماء الصليبيين لتصفية المنازعات فيما بينهم وتعيين ملك على الصليبيين في الشرق . وقد عقد هذا المؤتمر في عسقلان في نيسان سنة ١١٩٢ . فوقع الخيار على كونراد دي مونتفرا ليكون ملكاً . ولكن احد الباطنية اغتاله . فانتخب الصليبيون خلفاً له هنري دي شامبين (الثاني) ، ثم عين ريكاردوس غي لوزينيان ملكاً على قبرص ، وحل بذلك مشكلة الاختلاف بين الصليبيين . اما بالنسبة الى مشكلة القدس فقد تم الاتفاق بين ريكاردوس ، الذي كان مضطراً للعودة الى انكلترا ، وبين صلاح الدين على :

١ – الصلح لثلاث سنوات وثلاثة اشهر .

٢ – تكون المنطقة من صور الى يافا مملكة صليبية ساحلية .

٣ – يضمن صلاح الدين حرية الحج ويؤمن سلامتهم ، بدون دفع ضرائب .

٤ – تكون اللد والرملة مناصفة بين الصليبيين والمسلمين ، وتكون عسقلان للمسلمين .

٥ – حرية التنقل والاقامة بين المناطق الصليبية والمناطق الاسلامية .

وقد وقعت هذه الاتفاقية في الرملة بتاريخ ٢ ايلول سنة ١١٩٢ . وبها انتهت الحملة الصليبية الثالثة وعاد ريكاردوس الى انكلترا في ٩ تشرين اول ١١٩٢ .

الفصل الثاني عشر

لبنان بين الصليبيين والايوبيين

(١١٩٣ — ١٢٦٠)

١) تفسخ السلطنة الايوبية بعد صلاح الدين .
٢) تفسخ الصليبيين ومعاهدة يافـا .
٣) فردريك الثاني والصلح الاسلامي الصليبي .
٤) حملة لويس التاسع وتنظيم مملكة الفرنجة .
٥) الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في النصف الاول من القرن الثالث عشر — عصر « التخريب » .
٦) التدخل المغولي وتأثيره بين الصليبيين والايوبيين والمماليك.

* * *

١ — تفسخ السلطنة الايوبية بعد صلاح الدين

بعد انتهاء الحملة الصليبية الثالثة ، لم يعمر صلاح الدين طويلا ، اذ توفي في ٤ آذار سنة ١١٩٣ وله من العمر ٥٨ سنة . فقد كان ارهق

نفسه بالحروب منذ معركة حطين سنة ١١٨٧ ؛ كما تعرض للامراض بسبب اقامته في الخيام ، وفي مناطق موبوءة . وكان لصلاح الدين الايوبي ١٧ ولداً عدا اخوته . فتوزعت السلطنة على اولاده واخوته، وبذلك تفككت السلطنة وعادت مصر منفصلة عن سوريا . كما ان المدن الشامية اصبحت ممالك ايوبية صغيرة . كمملكة دمشق ومملكة بعلبك ومملكة حمص ، ومملكة حماه ومملكة حلب .... وسادت الاختلافات بين هذه الممالك منذ وفاة السلطان صلاح الدين سنة ١١٩٣ حتى سنة ١٢٠٠ حين تمكن الملك العادل سيف الدين ابو بكر الايوبي شقيق صلاح الدين من توحيد مصر وسوريا مجدداً للوقوف في وجه الاخطار الصليبية .

وقد استغل الصليبيون تفسخ الايوبيين فتوسعوا في بعض المناطق واستعادوا مدينة بيروت . ولم تدم الاتفاقية التي قامت بين صلاح الدين وريكاردوس سوى ٥ سنوات فقط ، اي حتى سنة ١١٩٧ ، وبعدها دخلت البلاد في دوامة من الفوضى والحروب بين الصليبيين والمسلمين، وبين الصليبيين فيما بينهم ، وبين المسلمين فيما بينهم .

٢ — تفسخ الصليبيين ومعاهدة يافا

بانتهاء الحملة الصليبية الثالثة كان على رأس الصليبيين في الشرق الملك هنري دي شامبين الثاني ، وبالرغم من انه كان يلقب بملك اورشليم ، فانه كان عملياً ملكاً على القطاع الساحلي الممتد من صور الى يافا فقط. وكان هم الملك هنري ان يحافظ على الاتفاقية مع المسلمين ليتسنى له توحيد الصليبيين . وقد وفّق الملك الصليبي في ايجاد التفاهم بين امارة انطاكية ومملكة الارمن في كيليكيا . كما انه وفق الى التفاهم مع آموري دي لوزينيان ملك قبرص (شقيق غي دي لوزينيان)

واجرى معه مصاهرة كاملة بتزويج بناته الثلاث من ابناء آموري. وادت هذه المصاهرة فيما بعد الى توحيد العرشين : القبرصي والصليبي. وقد حافظ هنري دي شامبين على العلاقة الطيبة مع الايوبيين بالرغم من محاولة الامير اسامة بن منقذ والي بيروت من الاعتداء على السفن الصليبية ، وعندما قام الامبراطور الالماني هنري السادس بحملته على الشرق ، وجدت حملته معارضة من هنري دي شامبين لدرجة انه طلب من الصليبيين استخدام القوة ضد الالمان لطردهم .

وقد ادت الحملة الالمانية هذه الى انتشار الفوضى والبلبلة ، خاصة وانهم اخذوا في طريقهم جبيل ، فاجتمع ملوك الايوبيين وامراؤهم بزعامة الملك العادل وهاجموا يافا سنة ١١٩٧ وانتزعوها من أيدي الصليبيين . وتوفي الملك الصليبي هنري دي شامبين في السنة ذاتها . وانتقل الحكم الى آموري دي لوزينيان ملك قبرص فوحد التاجين واصبح ملكاً على عكا وعلى قبرص . وبتوحيد صفوف الصليبيين وبسبب انتزاع يافا من ايديهم ، عمد آموري دي لوزينيان ملك الصليبيين الى مهاجمة بيروت وانتزاعها من ايدي المسلمين .

قال ابن الاثير في الكامل في التاريخ (ج ١٢ ص ١٢٧) : « وصلهم (اي المسلمين) الخبر بان الفرنج على عزم قصد بيروت ، فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة الى مرج عيون ، وعزم على تخريب بيروت ، فسار اليها جمع من العسكر ، وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة ، وشرعوا في تخريب القلعة ، فمنعهم اسامة من ذلك ، وتكفل بحفظها .

ورحل الفرنج من عكا الى صيدا، وعاد عسكر المسلمين من بيروت،

فالتقوا والفرنج بنواحي صيدا ، وجرى بينهم مناوشة ، فقتل من الفريقين جماعة ، وحجز بينهم الليل ، وسار الفرنج تاسع ذي الحجة فوصلوا الى بيروت ، فلما قاربوها هرب منها اسامة وجمع من معه من المسلمين ، فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة ، فارسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها ، فان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها ، وسارت العساكر الاسلامية الى صور ، فقطعوا اشجارها ، وخربوا ما لها من قرى وابراج ، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور واقاموا عليها . »

كان الانقسام الايوبي من العوامل التي ادت الى تنشيط الصليبيين وتوحيد صفوفهم . وتأثر المسلمون بذلك ، فتمكن الملك العادل من ابعاد اولاد اخيه وسيطرته على مصر والشام . وبذلك اعاد الوحدة الى صفوف المسلمين منذ سنة ١٢٠٠ ميلادية . وذلك بعد ان مهد لعمله بالاتفاق مع الصليبيين سنة ١١٩٨ فقد تخلى نهائياً عن بيروت وجبيل ، كما اعطاهم مدينة صيدا مناصفة بالاضافة الى الساحل من صور الى شمالي يافا ، لان مدينة يافا بقيت بيده (المقريزي : السلوك ج ١ ص ١٤١) .

وساد البلاد جو من الهدوء الحذر بين المسلمين والصليبيين ،لان الاخبار وصلت من اوروبا بتهيئة حملة صليبية ضخمة (الرابعة) لتسترد بيت المقدس . فكان الهدوء الحذر من الجانبين بانتظار وصول الحملة . ولكن هذه الحملة استهدفت سنة ١٢٠٤ القسطنطينية وقضى الصليبيون على الدولة البيزنطية . وساعد هذا التطور الصليبي على وضع اتفاقية جديدة بين المسلمين والصليبيين . فقد اتفق الملك العادل مع آموري دي لوزينيان على اعطاء يافا وصيدا والناصرة واللد والرملة للصليبيين . وكان ذلك في سنة ١٢٠٤ . وعرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية يافا . وبهذه

الاتفاقية اصبح الساحل اللبناني بكامله تحت سيطرة الصليبيين من جديد . ولم يلبث الملك آموري ان توفي اثر هذه الاتفاقية . فانقسم الصليبيون مجدداً الى دولتين في قبرص وفي الساحل اللبناني الفلسطيني. واستلم امير بيروت الصليبي جان دبلين Jean d'Ebelin الوصاية على مملكة عكا الصليبية ، (كانت الوريثة هي ماري ابنة اخته) . وبقيت هذه الوصاية حتى سنة ١٢١٠ حين تزوجت الوريثة ماري من الامير جان دي برين الفرنسي .

اما في الشمال فقد وقعت مشاكل واصطدامات كثيرة بين صليبيي انطاكية وطرابلس من جهة، والمملكة الارمنية الطامعة بانطاكية من جهة ثانية . وتمكن بوهيمند الرابع من المحافظة على وحدة انطاكية وطرابلس بمؤازرة من الحكام الايوبيين في حلب .

اما في الجانب الاسلامي فقد قسم السلطان العادل مملكته بين اولاده فجعل مصر بيد الملك الكامل ودمشق بيد الملك المعظم ، وسرعان ما عاد الخلاف يظهر بين اولاد السلطان العادل ، وظهرت محالفات اسلامية صليبية متعددة ، وكان كل من الملكين يعمل لجمع مصر وبلاد الشام بيده بالرغم من وجود والدهما السلطان الملك العادل .

٣ – فردريك الثاني والصلح الاسلامي الصليبي

لم يؤثر ظهور جان دي برين في العلاقات الاسلامية الصليبية لانه اعتمد سياسة معتدلة وحافظ على الاتفاقات المعقودة بين صليبيي الجنوب والدولة الايوبية . ولكن البابا هونوريوس الثالث دعا الى حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس . وفعلا تألفت حملة ضخمة (الحملة الخامسة) بزعامة ملك هنغاريا (اندره الثاني) وامير النمسا (ليوبولد

السادس) في سنة ١٢١٧ ووصلت الى عكا . وحاولت التوسع بقصد الاستيلاء على القدس . ولكن السلطان الملك العادل تحرك لمجابهة الموقف . وقد اجتاح الصليبيون منطقة الجليل ومنطقة جبل عامل واوقعوا بالقرى والمناطق الاسلامية خسائر كبيرة . وكتب ابن الاثير عن هذه الهجمات قائلا : « ... فاخذ الافرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت ، وكانت كثيرة ، وغنموا شيئاً كثيراً ، ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس ، وبثوا السرايا في القرى فوصلت الى خسفين ونوى واطراف البلاد ، ونازلوا بانياس ، واقاموا عليها ثلاثة ايام ، ثم عادوا عنها الى مرج عكا ، ومعهم من الغنائم والسبي والاسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا ، واحرقوا . واهلكوا . فاقاموا اياماً استراحوا . ثم جاؤوا الى صور ، وقصدوا بلد الشقيف . ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين . فنهبوا البلاد : صيدا والشقيف ، وعادوا الى عكا .... ولقد بلغني ان العادل لما سار الى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيئاً ، وهو يمشي تارة ، وتارة يقعد ويستريح . فعدل العادل اليه وحده فقال له : « يا شيخ لا تعجل ، وارفق بنفسك ، فعرفه الرجل ، فقال : يا سلطان المسلمين انت لا تعجل ، فانا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء ، كيف لا نعجل ؟ » (الكامل – ج ١٢ ص ٣٢١ و٣٢٢) .

وامام تدفق الفرنجة على مملكة عكا ، قرر جان دي برين ان يهاجم بهذه القوات مصر . وبالفعل توجهت من عكا حملة بحرية نزلت عند دمياط في ٢٧ ايار سنة ١٢١٨ وضربت الحصار على المدينة . ثم تمكن الصليبيون من احتلال المدينة وحاولوا التوجه نحو القاهرة . وقد توفي الملك العادل خلال هذه الفترة (آب ١٢١٨) . وقد حاول الملك المعظم ملك دمشق مهاجمة الصليبيين في مملكة عكا للتخفيف عن ضغطهم على

اخيه الملك الكامل في مصر . كما ان الملك الاشرف وهو الابن الثالث للسلطان الملك العادل تحرك من الجزيرة مهاجماً منطقة طرابلس .

وقد اعتمد الملك المعظم في محاولة صد الصليبيين على تخريب المدن والقرى والقلاع الموجودة بين يديه والمجاورة لمملكة عكا حتى لا تقع في ايدي الصليبيين ، ومن الحصون التي هدمها : حصن تبنين وحصن بانياس . وكاد يهدم اسوار القدس وقلعتها . (ابو شامة – كتاب الروضتين ص ١١٥) .

اما الملك الكامل فقد تخوف من سقوط مصر في ايدي الصليبيين فعرض عليهم الانسحاب مقابل اعطائهم القدس ، ولكن الصليبيين رفضوا اذ قدروا ان باستطاعتهم احتلال مصر والقدس معاً . ودامت الحرب اربع سنوات انتهت بمعركة المنصورة وانسحاب الصليبيين من مصر بهزيمة كبيرة في ٢٨ آب ١٢٢٠ . وانسحب الفرنجة الى اوروبا ، وعاد الصليبيون الى عكا بعد ان وقعوا معاهدة سلام لمدة ثماني سنوات.

وزوج جان دي برين ابنته يولاند من الامبراطور فردريك الثاني المعروف بصداقته الحميمة للمسلمين ، سنة ١٢٢٥ ، فاصبح الامبراطور بذلك صاحب مصلحة في الحروب الصليبية . وتلبية لنداء البابا في تكوين حملة صليبية جديدة لاستعادة القدس ، وتلبية كذلك لنداء الملك الكامل في مساعدته ضد اخيه الملك المعظم ، ومحاولة لانهاء هذه السلسلة من الحروب ، فقد قام الامبراطور فردريك الثاني بحملته على الشرق ، وهي الحملة المعروفة بالسادسة في حزيران سنة ١٢٢٨ . ورافق الامبراطور حُرْم فرضه البابا عليه ، مما اضعف هيبته المسيحية . وقامت قوات الامبراطور باعادة بناء صيدا وتحصينها ، كما حصنت قيسارية في فلسطين . وكانت مقاومة المسلمين ضعيفة بسبب وفاة الملك المعظم .

وانتهز الامبراطور فرصة وجوده في الشرق فاحتل قبرص من أيدي الصليبيين مما سبب بينه وبين الصليبيين سلسلة حروب شديدة .

كانت قوات الامبراطور قليلة ، اذ جاء معه ٥٠٠ فارس فقط وذلك بسبب تفاهمه مع الملك الكامل . والغريب في الامر ان البابا ارسل الى الملك الكامل يطلب منه عدم تسليم القدس للامبراطور لانه محروم من الكنيسة . ولكن الملك الكامل وافق في اتفاقية يافا في ١٨ شباط سنة ١٢٢٩ على اعطاء القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا للامبراطور وبذلك رجع الامبراطور منتصراً . واستغل الملك الكامل هذه الاتفاقية ليتوسع في بلاد الشام ويضم اليه دمشق . لقد سببت ظروف إتفاقية يافا بتسليم المدن المقدسة للامبراطور فردريك الثاني مشاكل ضخمة في الوسط الاسلامي وفي الوسط الصليبي . ففي الوسط الاسلامي نقم المسلمون على الملك الكامل وسياسته لدرجة ان بعضهم فضل التعامل مع الصليبيين على التعامل معه (قال ابن الاثير في الكامل ج ١٢ ص ٤٨٢) « وكانت عساكره (الامبراطور) قد سبقته ، ونزلوا بالساحل ، وافسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين ، ومضى اليهم ، وهم بمدينة صور ، طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور واطاعوهم ، وصاروا معهم . »

اما في الوسط الصليبي فنشأ خلاف قوي بين مؤيدي الامبراطور من جهة ومؤيدي البابوية واستقلال الصليبيين في الشرق من جهة ثانية . وقد تزعم حركة المعارضة ضد الامبراطور جان دي ابلين الذي ذهب من عكا الى قبرص وانتزعها من جماعة الامبراطور ، فوجه فردريك حملة انتزعت بيروت وصيدا وصور وعكا من أيدي المعارضة الصليبية. وعين الامبراطور على الشرق قائداً من قواده هو فلانجياري .

وكان جواب المعارضة وعلى رأسها جان دي ابلين سريعاً فقد هيأوا حملة من قبرص ونزلوا في اواخر شهر شباط سنة ١٢٣١ جنوبي طرابلس وزحفوا من هناك الى بيروت فاستولوا عليها ثم استولوا على صيدا . فعمد القائد فلانجياري الى مهاجمة قبرص لغياب جان دي ابلين عنها . ولكن جان دي ابلين والصليبيين الذين معه تمكنوا من هزيمة قوات الامبراطور واجبارها على الانسحاب سنة ١٢٣٣ من قبرص . ولكن صور بقيت تابعة للامبراطور ، كما بقيت المدن المقدسة الثلاث تابعة للامبراطور من الناحية الرسمية . واما المعارضة فقد بقيت زعامتها في يد جان دي ابلين الذي كان محروماً كذلك من الكنيسة حتى وفاته سنة ١٢٣٦ . وخلفه في زعامة الصليبيين ابنه باليان الثالث دي ابلين .

وهكذا اصبح الوضع مضطرباً في الوسط الصليبي ، وفي الوسط الاسلامي ، فتناسى الصليبيون صراعهم مع المسلمين ، ومطلبهم في الاراضي المقدسة ، وانهمكوا في صراعات سياسية واقتصادية خاصة . كما ان المسلمين تناسوا وجود اعدائهم في السواحل وفي المدن المقدسة وانهمكوا في محاربة بعضهم البعض .

– حملة لويس التاسع وتنظيم مملكة الفرنجة

توفي الملك الكامل سنة ١٢٣٨ فعادت الخلافات في البيت الايوبي بين اولاد الكامل واخوته . وكان الكامل قبل وفاته قد عزل الملك الصالح اسماعيل عن دمشق وعينه على بعلبك والبقاع وبصرى والسواد .

وقد عمد الملك الصالح ايوب بن الكامل الى احتلال دمشق سنة ١٢٣٩ ، ولكن عمه الصالح اسماعيل عاد من بعلبك وانتزع منه دمشق

سنة ١٢٤٠ ، وانتقل الصالح ايوب الى مصر في السنة نفسها . وابتدأت المؤامرات بين الامراء الايوبيين ضد بعضهم البعض .

اما من الجانب الصليبي فما ان انتهت مدة معاهدة يافا سنة ١٢٣٩ حتى دعا البابا الى حملة صليبية جديدة ، لان وضع الصليبيين كان قد اصبح صعباً ، فالمدن الصليبية اضبحت جميعها تحت سيادة امراء عائلة ابلين بزعامة باليان الثالث . وقد اوجد هؤلاء الامراء نوعاً من الاتحاد بين المدن الساحلية برئاستهم .

وتلبية لنداء البابا قام الامراء الافرنسيون في ايلول سنة ١٢٣٩ بحملة صليبية جديدة . فكان جواب الايوبيين ان عمد ملك الاردن الملك الناصر داود الايوبي الى احتلال القدس . وحاول الصليبيون الزحف على مصر فهزمهم المصريون في غزة . وسرعان ما تفاهم الصليبيون مع الملك الصالح اسماعيل ملك دمشق ضد الملك الصالح ايوب وذلك بقاء اعطاء الصليبيين القدس وعسقلان وقلعة الشقيف وصفد ومناصفة صيدا وطبرية واعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد السواحل . وقد رفضت حامية قلعة الشقيف تسليم القلعة الى الصليبيين فحضر الملك الصالح اسماعيل بنفسه وحاصر القلعة وانتزعها وسلمها الى الصليبيين وعاقب افراد الحامية .

ثم تألفت حملة صليبية جديدة سنة ١٢٤٠ — ١٢٤١ قوامها من الانكليز . واختلف الصليبيون فيما بينهم على التحالف مع مصر ضد دمشق او مع دمشق ضد مصر . ولكن الصالح ايوب ملك مصر عمد الى الاعتراف بملكية الصليبيين لشقيف ارنون واقليم الجليل وحصن تبنين وهونين وطبرية وكوكب والقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان .

وقد سبب هذا التنازل الايوبي عن المناطق المذكورة للصليبيين ضجة كبيرة في الاوساط الاسلامية ، وتدهورت سمعة الايوبيين ومكانتهم . وبعد ان استرد الصليبيون تقريباً حدود المملكة اللاتينية القديمة قبل صلاح الدين ، هاجم باليان الثالث دي إبلين مدينة صور سنة ١٢٤٣ وانتزعها من جماعة الامبراطور . وبذلك تحرر الصليبيون من مداخلات الامبراطور فردريك الثاني ووصايته .

وبينما كان الصليبيون في صراعاتهم الداخلية وبخاصة ما بين فرسان الداوية templiers وفرسان الاسبتارية hospitaliers، اذا بالملك الصالح ايوب يتفق سراً مع الفرسان الخوارزميين في شمالي الجزيرة من سوريا فيغيرون فجأة على القدس وينتزعونها من ايدي الصليبيين في ١١ تموز سنة ١٢٤٤ . كانت هذه المفاجأة قوية لدرجة انها سببت تحالفاً عسكرياً بين الصليبيين والملوك الايوبيين في حمص ودمشق والاردن ضد الصالح ايوب والخوارزميين . وجرت معركة فاصلة بين الفريقين في ١٧ تشرين اول سنة ١٢٤٤ في غزة انتصر فيها الصالح ايوب والخوارزميون . ونتيجة لذلك احتل الصالح ايوب دمشق وعزل الصالح اسماعيل تاركاً له ولايته القديمة في بعلبك والبقاع وبصرى واعمالها .

وبذلك يكون الصالح ايوب قد تمكن من تحقيق وحدة مصر وسوريا بيده . ثم عمد الى ضرب الخوارزميين بسبب مشاكلهم بين بعلبك وحمص في ٢٠ ايار سنة ١٢٤٦ وقضى عليهم . وهاجم الصالح ايوب الصليبيين في طبريا فانتزعها منهم وكذلك انتزع عسقلان . وظهر الصالح ايوب انه يشكل خطراً حقيقياً على الصليبيين ، وانه لا بد من حملة صليبية جديدة لانقاذ الاوضاع ، فكانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا وهي المعروفة بالحملة السابعة .

استهدفت حملة لويس التاسع في البدء مصر ، باعتبار ان مصر مركز الخطر على الصليبيين ، ولكن الحملة فشلت واسر الجيش الصليبي . كما اسر الملك ، وخلال هذه الحملة على مصر توفي الملك الصالح ايوب ؛ فخلفه ابنه طوران شاه ولكنه قتل على ايدي مماليكه في ٢ ايار ١٢٥٠ وبذلك انتهى الحكم الايوبي في مصر وفشلت كذلك الحملة الفرنسية . وعاد الملك لويس التاسع بعد دفع فدية كبيرة للمماليك لقاء اطلاق سراحه ، الى فلسطين ولبنان حيث امضى ٤ سنوات (١٣ ايار ١٢٥٠ — ٢٤ نيسان ١٢٥٤) لتنظيم شؤون الصليبيين وتوحيدهم امام الخطر الجديد من مصر : خطر المماليك ، فحصن المدن والقلاع الساحلية .

وقد اعتمد الملك لويس التاسع خطة التحالف للدفاع عن الصليبيين فحالف الملوك الايوبيين والباطنية وراسل المغول كما انه حالف المماليك. ولكن الاتفاق الذي تم بين المماليك والايوبيين افسد على الملك لويس التاسع مخططه . واخيراً رجع الملك الى فرنسا سنة ١٢٥٤ .

٥ — الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في النصف الاول من القرن الثالث عشر — عصر التخريب

كانت فترة حكم الأيوبيين لجزء من لبنان من سنة ١١٧٥ الى سنة ١٢٥٨ فترة كثيرة الاضطراب ، بسبب صراع الايوبيين فيما بينهم (حكام دمشق وحكام مصر) وصراع الصليبيين فيما بينهم (صراع الفرنجة مع الصليبية وصراع البنادقة مع الجنويين) . وقد سبب هذا الاضطراب تأخراً كبيراً في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية عما كان عليه الوضع في العهود الصليبية الاولى (وايام الزنكيين واتابكة دمشق) . وقد ابتدع الايوبيون سياسة جديدة تجاه الصليبيين هي تدمير

المدن والقرى والقلاع التي لا يتمكنون من المحافظة عليها . فكانت المدن اللبنانية تعمر حين تكون بيد الصليبيين ، فاذا انتقلت الى ايدي الايوبيين وتعرضت للخطر عمدوا الى هدم اسوارها وقلاعها وابنيتها حتى لا تعود صالحة . وعلى هذا الاساس هدم الايوبيون بيروت وصيدا وقلعة تبنين وقرى صور ، بالاضافة الى هدمهم العديد من المدن والقرى والقلاع في فلسطين .

وقد ادت عملية الهدم هذه الى تنقل السكان من مكان الى آخر ، من صيدا الى بيروت ، ومن السواحل الى الجبال لانها اكثر امناً واستقراراً بالرغم من ضآلة موارد الجبال الاقتصادية . هذه السياسة الايوبية تجاه الصليبيين ساعدت على جعل السواحل اللبنانية منطقة صراع دائم ، وجعلت الجبال تعمر تدريجياً بالسكان .

وقد تغيرت نظرة السكان في لبنان نحو الايوبيين ، فلم يعودوا يطمئنون لحمايتهم ولا يشعرون بجدية الدولة الايوبية في الحكم للصالح العام . وفي بعض الحالات ، فضل الفلاحون المسلمون في جنوبي لبنان التعامل مع الصليبيين طمعاً بالاستقرار ، على التعامل مع الايوبيين المسبب للتدمير والخراب وانعدام الحماية . وقد ذكر ابن الاثير حواراً بين الملك العادل واحد الفلاحين المسلمين الهاربين بقوله : « فعدل العادل اليه وحده ، فقال له : يا شيخ لا تعجل ، وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال : يا سلطان المسلمين انت لا تعجل ، فانّا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء ، كيف لا نعجل . »

ومما زاد في نقمة المسلمين على الايوبيين انهم عمدوا الى تسليم العديد من المدن والقرى والقلاع الى الصليبيين بدون قتال ، بينما جمعوا قواهم لمحاربة بعضهم البعض ، لذلك فضل بعض المسلمين التعامل مع

الصليبيين على التعامل مع الايوبيين . وفي ذلك يذكر ابن الاثير (الكامل . ج١٢ ص٤٨٢): «ومضى اليهم (اي الصليبيين) وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور ، واطاعوهم ، وصاروا معهم» .

وقد وصل الامر ببعض ملوك الايوبيين ، وهو الصالح اسماعيل انه حاصر قلعة الشقيف في جنوبي لبنان لان حاميتها المسلمة رفضت تسليمها للصليبيين ، ثم احتلها وسلمها للصليبيين وعاقب افراد الحامية .

اما علاقة بني بحتر امراء الغرب (الامراء التنوخيين) فكانت دائماً حسنة مع الايوبيين ، وكانوا يستحصلون على مناشير (صكوك) اقطاع من ملوك الايوبيين لحفظ مقاطعاتهم والتصرف بها لقاء خدماتهم للدولة ضد الصليبيين .

اما من الجانب الصليبي فالفوضى الاجتماعية زادت كثيراً بعد عودة لويس التاسع الى فرنسا ونشبت الحرب الاهلية بين الصليبيين في عكا ثم انتشرت بين مختلف مراكز الصليبيين بسبب المطامع بين الجاليات التجارية الايطالية التي تحولت الى دويلات مستقلة عملياً وتتبع المدن الايطالية الام التي انبثقت عنها : مثل بيزا وجنوا والبندقية . وانتقل النزاع التجاري الايطالي الى المؤسسات العسكرية الصليبية ، فوقف فرسان الاسبتارية الى جانب الجنويين وطردوا البنادقة من صور . وانضم اليهم صليبيو جبيل؛ بينما اتفق صليبيو طرابلس وفرسان الداوية وفرسان التوتون مع البنادقة وتجار بيزا .

ووصلت احرب الاهلية الى ذروتها حين ارسلت جنوا اسطولا من ٤٨ سفينة حربية في صيف سنة ١٢٥٨ الى صور لمساعدة الجنويين فيها

ضد البنادقة في عكا . وفي ٢٤ حزيران سنة ١٢٥٨ وقعت معركة بحرية ضخمة بين جنويي صور وبنادقة عكا اشترك فيها ٤٨ سفينة جنوية و٣٤ سفينة بندقية ، وانتصر البنادقة . كما ان صليبيي جبيل هاجموا صليبيي طرابلس في الفترة ذاتها .

في غمرة هذه الاضطرابات في ما بين الصليبيين أنفسهم . وفي ما بين الايوبيين أنفسهم وصل المغول الى بلاد الشام .

٦ – التدخل المغولي وتاثيره بين الصليبيين والايوبيين والمماليك

بينما كانت الاضطرابات الدموية والفوضى الاجتماعية والاقتصادية مستمرة في اوساط الصليبيين وفي اوساط الايوبيين ، كان المغول بقيادة هولاكو المغولي يجتاحون العراق ويدمرون بغداد ثم يغيرون على حلب. وبظهور المغول اصبح في بلاد الشام قوة ثالثة تلعب دورها . كان المغول يؤمنون بالمسيحية على مذهب نسطور ، فحالفهم المسيحيون الشرقيون والارمن ، وبسبب ارتباط صليبيي انطاكية وطرابلس بالارمن فقد حالفوا بدورهم المغول ، واجتاح هذا الحلف المغولي – الارمني – المسيحي الشرقي النسطوري – الصليبي بلاد الشام . فاسرع الامراء الايوبيون يستسلمون للمغول خوفاً منهم ويحالفونهم (ملك حماة وملك حمص) وهرب الملك الناصر يوسف الايوبي من دمشق فسقطت المدينة في ايدي الحلف المذكور . وكذلك احتل هذا الحلف بعلبك وخربها (المقريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٦) واندفع المغول جنوباً فوصلت مقدمتهم الى غزة تمهيداً للهجوم على مصر . ولكن صليبيي صيدا بزعامة جوليان رفضوا التفاهم والتعاون مع المغول واندفعوا يهاجمون المغول في مرج عيون وبانياس . مما جعل المغول يهاجمون

منطقة صيدا ويقتلون اهلها ويدمرون اسوارها ويحرقون دورها . وهرب جوليان من صيدا في سفينة جنوية عن طريق البحر (ص ٤٣٧ L'empire des steppes-Grousset). كما ان صليبيي عكار وبيروت وجبيل وفرسان الداوية هاجموا المغول في منطقة الجليل ، ولكنهم هزموا وخسروا بهجماتهم .

كان هذا الموقف من صليبيي حبيل وبيروت ولصيدا وعكا ضد المغول بسبب اضطراب خطوط المواصلات الداخلية التي كان الصليبيون يعتمدونها في تجارتهم مع الداخل ، بالاضافة الى تعصب هؤلاء للكثلكة حتى انهم طلبوا من اوروبا تهيئة حملة صليبية جديدة على الشرق ضد المغول . ولكن مماليك مصر بقيادة السلطان قطز وفروا على اوروبا تهيئة هذه الحملة ، فقد تحالف مماليك مصر مع الصليبيين في فلسطين ولبنان على محاربة المغول .

وسمح الصليبيون للمماليك بالمرور عبر فلسطين ، فعبر المماليك بقيادة قطز وبيبرس سواحل عكا وتلقوا الهدايا من الصليبيين، والتقى المماليك بقوات المغول التي قادها كتبغا في عين جالوت في ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ حيث كان الانتصار الساحق للمماليك وتدمير قوة المغول ومقتل قائدهم كتبغا .

وكانت النتيجة الفورية لهذا الانتصار الهائل تراجع المغول عن سوريا، وسقوط دمشق بيد المماليك وبذلك توحدت مجدداً مصر وسوريا . وقد انتقم المماليك من تخاذل الايوبيين وخيانة بعضهم فقضوا على حكمهم . وقامت سلطنة المماليك في مصر والشام على انقاضهم لتبدأ مرحلة جديده من الصراع المملوكي الصليبي الذي انتهى بتصفية الحكم الصليبي في الشرق .

الفصل الثالث عشر

نهاية الصليبيين في الشرق

١) بيبرس يحاول القضاء على الصليبيين .
٢) سقوط جميع المراكز الصليبية في لبنان بيد المماليك .
٣) اثر الصليبيين في لبنان .

* * *

١ – بيبرس يحاول القضاء على الصليبيين

قضى بيبرس على قطز واعلن نفسه سلطاناً على مصر والشام ، باسم السلطان الظاهر بيبرس . وقوى مركزه بنقل الخلافة العباسية إلى القاهرة سنة ١٢٦٢ بعد سقوط بغداد في ايدي المغول . وعمد إلى محالفة المغول المسلمين وامبراطور بيزنطية وابن امبراطور صقلية خوفاً من تحالف الصليبيين مع المغول ومع الامراء الايوبيين الملتجئين اليهم ، ومع امراء اوروبا .

وفي لبنان شدد بيبرس صلاته مع التنوخيين بعد ان كانوا قد انقسموا

من حيث التأييد بين المماليك والمغول . وما ان سمع بيبرس بخبر وفاة هولاكو المغولي حتى بدأ بسرعة يهاجم المراكز الصليبية مستغلاً المنازعات العميقة القائمة فيما بينهم . فابتدأ منذ سنة ١٢٦٥ بهجماته على ارصوف وعكا وقيسارية . ثم احتل صفد وهونين وتبنين والرملة . وارسل قائده قلاوون إلى الشمال فاحتل حلبا والقليعات وعرقة في عكار .

وقد اصطدم بيبرس مراراً بموارنة الشمال عندما كان يقترب من طرابلس ، فتركها وانتقل إلى انطاكية سنة ١٢٦٨ فاحتلها بالقوة وسبى اهلها (باع ماية الف نسمة بسوق الرقيق : المرأة بخمسة دراهم) . كما كان قبلها قد انتزع يافا واحتل قلعة الشقيف (١٢٦٨) . ولم يبق في يد الصليبيين سوى الساحل اللبناني من طرابلس إلى عكا .

فاسرع الصليبيون يجمعون صفوفهم من قبرص ومن لبنان بزعامة الملك هيو الثالث ويطلبون الهدنة ، فقبلها بيبرس خوفاً من حملة صليبية غربية جديدة ، وكانت الهدنة لعشر سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام ابتداء من سنة ١٢٧٢ .

ولكن الصليبيين لم يستفيدوا من هذه الهدنة ، اذ عادت الخلافات تشتد فيما بينهم بالرغم من وصول بعض النجدات الاوروبية اليهم (حملة لويس التاسع اتجهت إلى تونس بدلاً من لبنان وفشلت) ، كما ان السلطان بيبرس توفي سنة ١٢٧٧ .

٢ – سقوط جميع المراكز الصليبية في لبنان بيد المماليك

ورث السلطان الظاهر بيبرس ولداه : السعيد بركة والعادل سلامش

على التوالي . فجمدت سياسة المماليك مؤقتاً ، ثم تمكن قلاوون ؛ احد قادة بيبرس من انتزاع السلطنة سنة ١٢٧٩ فتعرض إلى كثير من المؤامرات من قبل الامراء المماليك ، وكان اخطرها المحاولة الانفصالية التي قام احد المماليك في سوريا وهو سنقر الاشقر ، اذ نادى بنفسه سلطاناً على المماليك في دمشق واسرع يتحالف مع الصليبيين والمغول ضد قلاوون في مصر ، ولكن قلاوون تمكن سنة ١٢٨٠ من السيطرة على الشام وتوحيد البلدين : مصر وسوريا ، وادى هذا الانتصار إلى هرب سنقر الاشقر والتجائه إلى المغول .

وفي طرابلس وقع الخلاف بعد وفاة اميرها بوهيمند السادس سنة ١٢٧٥ فقد وصل إلى الحكم ابنه القاصر بوهيمند السابع وحكمت باسمه امه الكونتيسة سيبل الارمنية ، ولكن زوجة بوهيمند الخامس لوشيا ارادت ان تحكم هي بدلاً من الارمنية . وانقسمت طرابلس بين المرأتين وتعصب فرسان الاسبتارية لسيبل بينما ايد فرسان الداوية لوشيا ، وانتقلت العدوى إلى الصليبيين في جبيل والسواحل وتبع ذلك قيام حرب اهلية ادت بالمدينة إلى الخراب .

وبذلك لم يستفد الصليبيون من مناسبة وفاة بيبرس والخلافات المملوكية التي تبعت ذلك ، والمحاولة الانفصالية التي قام بها الامير سنقر الاشقر . بل كان الامر على العكس اذ وافقوا على الهدنة التي ارادها قلاوون سنة ١٢٨١ . وحين تجدد القتال بين المغول والمماليك في تلك السنة في منطقة حمص ، ظل الصليبيون في خلافاتهم الدموية وتحولوا إلى مناطق منفصلة عن بعضها البعض سياسياً وتتناحر على المكاسب التجارية بين الجنوية والبنادقة والبيازنة .

واستفاد قلاوون بعد انتصاره على المغول ، من الهدنة مع الصليبيين ،

فقام سنة ١٢٨٣ باحتلال المناطق المارونية المحيطة بطرابلس ، والتي كانت تساعد المدينة دائماً ضد المماليك . ولم يتحرك الصليبيون لنجدة الموارنة مما سمح له باحتلال المنطقة المارونية والتنكيل بقرى اهدن وبشري والحدث بعنف بالغ ، نظراً لعلاقة الموارنة بصليبيي طرابلس ومساعدتهم لهم ضد السلطان الظاهر بيبرس . قال الدويهي : « في شهر ايار سنة ١٢٨٣ سارت العساكر الاسلامية إلى فتح جبة بشراي وصعدت إلى وادي حيرونا شرقي طرابلس ، وحاصروا قرية اهدن حصاراً شديداً وملكوها بعد اربعين يوماً في شهر حزيران ، وسلبوا ما وجدوا ، وخربوا القلعة التي في وسطها ، والحصن الذي كان على راس الجبل . ثم انتقلوا إلى ميفوق ففتحوها في شهر تموز ، وقبضوا على اكابرها واحرقوهم في البيوت ودكوها للارض . واكثروا من النهب والسلب . وبعد ان اعملوا السيف باهل حصرون وكفرساورن وذبحوهم في الكنيسة رجعوا في ٢٢ آب إلى الحدث ، فهرب اهلها إلى العاصي . » وقد هرب من الموارنة جماعة يقدر عددها بالالوف إلى قبرص (حتي – لبنان في التاريخ ص ٣٩٧) .

وفي غمرة الاختلافات الصليبية توفي امير طرابلس بوهيمند السابع سنة ١٢٨٧ ، فهب صليبيو طرابلس يعلنون المدينة « كومون » ويستدعون امير جبيل لرئاسة الكومون المذكورة . ووصل التدهور الصليبي إلى طلب بعض امراء الصليبيين وعلى رأسهم الامير برتلميو امبرياتشو صاحب جبيل ورئيس كومون طرابلس ، النجدة من السلطان قلاوون ضد اخصامه المحليين (النجوم الزاهرة – ابن تغري بردي – ج ٧ ص ٣٢٠–٣٢١) وعلى هذا الاساس قام قلاوون بهجوم كبير على طرابلس قيل ان قوامه ١٠٠ الف من المشاة و ٤٠ الف

من الخيالة . فسقطت المدينة في ٢٦ نيسان ١٢٨٩ ولم ينج من الرجال الا القلة ، اما النساء والاولاد فقد سباهم قلاوون وباعهم رقيقاً للمسلمين . وعلى اثر سقوط طرابلس استولى قلاوون على انفه وخرب حصنها الذي كان يمتلكه الاسبتاريون . ثم احتل البترون . وقد اقطع السلطان لاميرة طرابلس الصليبية لوشيا قريتين من قرى البترون . كما اقطع امير جبيل بلدة جبيل لقاء جزية يدفعها سنوياً للسلطان نظراً لمساعدته في فتح طرابلس . وابقى بيروت في يد صاحبها لانه طلب الامان . وامر السلطان بهدم طرابلس الصليبية وبناء بلدة اخرى بعيدة عن البحر ، مجاورة للقلعة ، وذلك لابعادها عن خطر الغزو البحري ، وانشأ على ساحل طرابلس الابراج للدفاع عنها . وعاد قلاوون إلى مصر ليهيء حملة جديدة لاحتلال ما تبقى من البلدان في ايدي الصليبيين مثل عكا وصور وصيدا وبيروت . فاسرع امير عكا هنري يطلب الهدنة ، فوافق قلاوون ووقعت الهدنة إلى عشر سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام . وطلب امير عكا في الوقت ذاته مساعدة من البندقية فلبت باعتبار ان البنادقة يسيطرون على عكا . وسادت الهدنة جميع مراكز الصليبيين من عكا إلى بيروت . ولكن نجدة البندقية عمدت منذ وصولها إلى عكا إلى قتل المسلمين والنصارى العرب المقيمين في عكا . فقرر قلاوون متابعة الحرب وهيأ جيشاً ضخماً لذلك . ولكنه توفي في تشرين الثاني سنة ١٢٩٠ فتابع ابنه السلطان الاشرف خليل تجهيز الجيش . وفي ٥ نيسان ضرب المماليك الحصار على عكا . ودامت المعركة حتى ٢٨ ايار سنة ١٢٩١ حين سقطت المدينة بكاملها في قبضة الاشرف خليل . فامر بهدمها تماماً .

اما صور فقد سقطت اثناء حصار عكا في ١٩ ايار من السنة نفسها .

وفي صيف السنة ١٢٩١ اكتمل الجلاء الصليبي عن الشرق فقد ارسل السلطان الاشرف خليل قائده سنجر الشجاعي إلى بيروت فاخذها سلماً واجلا سكانها الصليبيين عنها إلى دمشق ثم إلى مصر وبعدها ارسلهم إلى قبرص . وهدم المماليك صور وصيدا وتحصينات بيروت. اما جبيل فابقوا اهلها فيها .

٣ — اثر الصليبيين في لبنان

لقد نقل الصليبيون خلال قرنين من الزمن (١٠٩٨ — ١٢٩١) كثيراً من ركائز التراث الشرقي والحضارة العربية ، وهي الركائز التي اثرت فيما بعد في اوروبا وكانت اساساً لما عرف بالنهضة الاوروبية . اما تأثيرهم في الشرق فكان مختلفاً ، لانهم عموماً كانوا اقل رقياً من العرب ، ولأن العداوة بينهم وبين الشرق جعلت الشرقيين لا يتأثرون بهم . وبالرغم من ذلك فالصليبيون تركوا في الشرق آثاراً هامة ، وخاصة في لبنان وهي :

أ — **التمازج العرقي** : حدث التزاوج ما بين كثير من الصليبيين والمسيحيين الشرقيين خلال الحكم الصليبي ، كما حدث هذا التمازج العرقي خلال الحروب بين الصليبيين والمسلمين نتيجة الغزو والسبي وبيع الرقيق . ولكن التمازج الكبير حدث عند نهاية الحروب الصليبية ، اذ بقيت اكثرية السكان الصليبيين غير المحاربة في الشرق وخاصة في لبنان ، كما ان المماليك باعوا اعداداً ضخمة من النساء والاولاد الصليبيين للمسلمين (ماية الف من انطاكية فقط). وقد تحولت هذه الجاليات الصليبية إلى مذهب المنطقة المتواجدة فيها ، حماية لانفسهم . فالجاليات

الصليبية في الجنوب تحولت إلى مذهب الشيعة المسيطر هناك ، ومع الوقت استعربوا وتشيعوا وذابوا في بوتقة الاقليم بالرغم من بقاء ملامح السحنة الاوروبية . وتحولت الجاليات الصليبية في الشمال إلى مذهب الموارنة واندمجت فيهم ، كما تحولت جاليات الصليبيين في عكار وبلاد العلويين إلى النصيرية وامتزجت فيهم . وحدث امتزاج آخر بين الجاليات الصليبية والدروز . وقد اغنى هذا التمازج العرقي الشعب اللبناني بخصائص التفاعل البشري بين الشعوب .

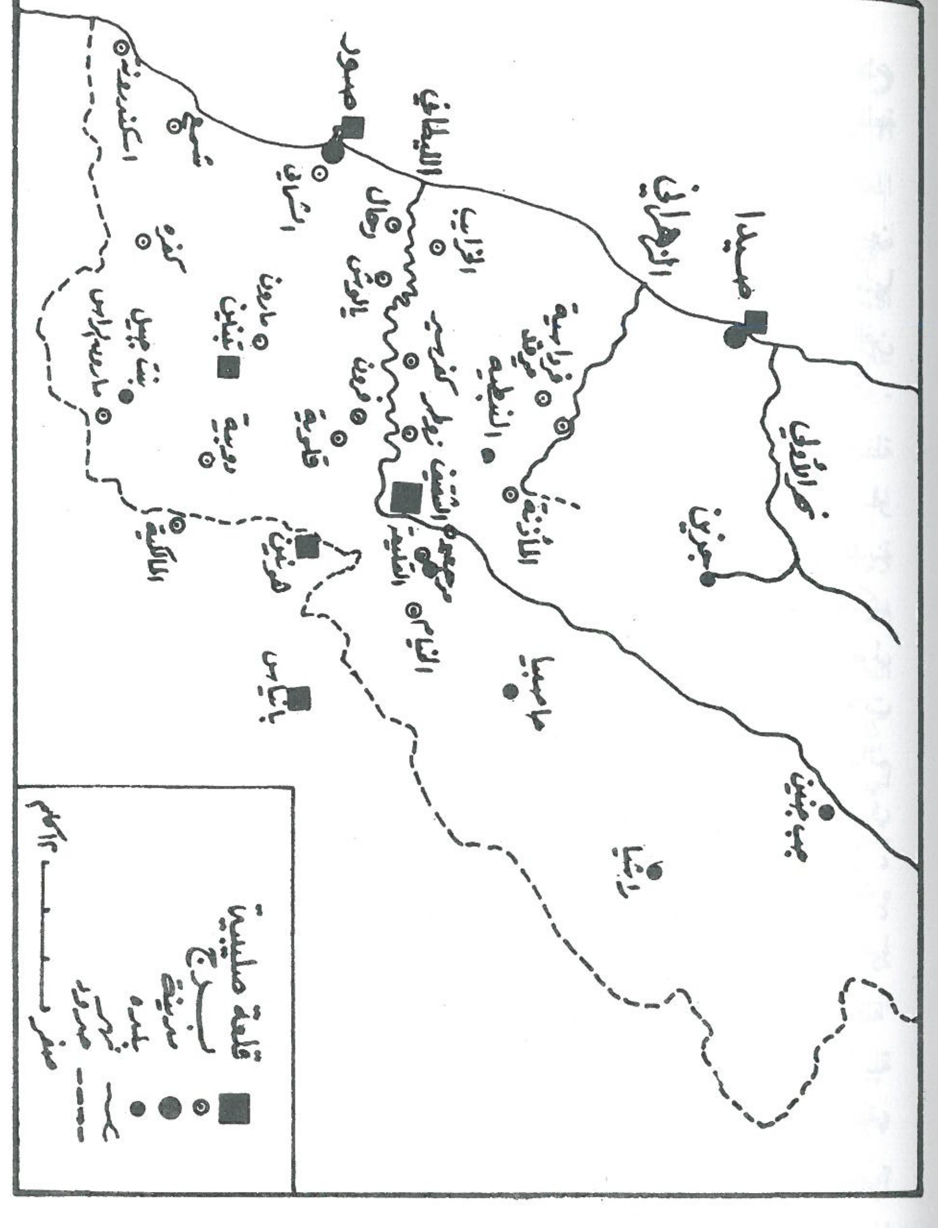
ب — **الاثر الديني** : لم يكن للصليبيين اهداف تبشيرية ، لذلك كان اثرهم محدوداً في التعاطف مع الموارنة الذين ساعدوهم في معظم حروبهم . وكان من نتيجة هذا التعاطف الصلة الحميمة والوثيقة التي قامت بين الموارنة وفرنسا منذ عهد لويس التاسع . فالتقاليد المارونية تذكر ان الملك لويس التاسع وجه اثناء وجوده في عكا سنة ١٢٥٠ رسالة إلى بطريرك الموارنة يذكر فيها ان فرنسا تعتبر الموارنة قسماً من الامة الفرنسية ، وينهي الملك رسالته بالنص التالي : « اما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بان نوليكم انتم وشعبكم نفس الحماية التي للفرنساويين انفسهم وبان نعمل على الدوام كل ما هو ضروري لسعادتكم . »

وقد بنى الصليبيون عدداً كبيراً من الكنائس في المناطق التي سيطروا عليها معتمدين على الهندسة اللاتينية القوطية التي كانت معروفة آنذاك في اوروبا ، ونذكر منها : كنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار مرقس في صور (حفريات صور) وكنيسة

مار يوحنا في بيروت وقد تحولت بعد ذلك إلى جامع هو الجامع العمري الكبير ، وكنائس متعددة صغيرة في مناطق الكورة والزاوية . كما بنى الصليبيون العديد من الاديرة ولكنها اندثرت وبقي الدير العظيم المعروف بدير البلمند في الشمال وهو اليوم في ايدي الروم الارثوذكس . وكان قد بني سنة ١٢٥٧ وسمي بالجبل الجميل (Bel monte).

ج – **الأثر العمراني** : لم يبق من الاثار العمرانية المدنية الصليبية شيء لان المماليك هدموا القصور والمباني على اختلاف انواعها وردموا الموانيء ومبانيها واسوارها المختلفة . وكان الصليبيون من قبل عند مجيئهم سنة ١٠٩٨ قد هدموا معالم مدن الساحل اللبناني العائدة إلى الفترة الاسلامية الاولى . ولم ينج من التهديم سوى اثر واحد هو مقام الامام الاوزاعي جنوبي بيروت .

وقد ترك الصليبيون في الشرق العديد من القلاع الحربية والحصون والابراج ، وحافظ المماليك على معظمها لاستعمالها الحربي . واهم هذه القلاع الصليبية : قلعة تبنين (تيرون) وكانت قد بنيت سنة ١١٠٤ وقد ادخل عليها المماليك والعثمانيون وامراء الاقطاع فيما بعد كثيراً من التعديلات وكانت معدة لحماية صور . وقلعة الشقيف (بوفور) وكانت قد بنيت سنة ١١٣٥ ثم عدل فيها المماليك والعثمانيون ورممها الامير فخر الدين الثاني ، وكانت معدة لحماية منطقة صيدا . وقلعة شقيف نيحا (شقيف تيرون) التي رممها وزاد عليها الصليبيون بعد ان كانت بأيدي الباطنية من قبل . وكذلك قلعة طرابلس المنسوبة إلى



نظام القلاع والأبراج في العهد الصليبي - أنموذج في لبنان الجنوبي

عائلة سان جيل (سنة ١١٠٤) ، هذا بالاضافة إلى بقايا قلاع وابراج عديدة في منطقة عكار والبترون وجبيل والمنيطرة وقلعة صيدا البحرية التي رممها فيما بعد الامير فخر الدين الثاني .

كانت هذه القلاع والابراج في ايدي الفرسان الصليبيين من الهيكليين (الداوية) والاسبتارية والتوتون. وقد استفاد منها المماليك لتبقى مراكز دفاعية لهم ، كما استفادوا من الفن المعماري والتحصين الذي كان الصليبيون قد ادخلوه إلى الشرق .

اما الاسلوب الدفاعي الذي اعتمده الصليبيون ، بواسطة قلاعهم وابراجهم فكان كالتالي : في كل بارونية (صيدا او صور او بيروت) كان الدفاع يعتمد على قلعة داخلية في المدينة واسوار حول المدينة وقلعة ضخمة على مرتفع مشرف يتحكم بالمواصلات البرية التي تربط الداخل بالمدينة الساحلية . وحول القلعة تقوم الابراج العديدة المتحكمة بمختلف المواصلات والممرات الطبيعية ، وتكون هذه الابراج على اتصال دائم بالقلعة المركزية . وبذلك تكون القوى الصليبية المتواجدة في القلاع والابراج على اهبة التدخل في اي وقت وفي اي مكان ، معتمدة على سرعة الحركة وعلى سرعة الالتفاف والتطويق ، بدلاً من الاعتماد على الجيوش وما يتبعها من بطء الحركة والتعبئة ، خاصة وان الصليبيين كانوا دائماً يشكون من قلة العدد البشري في صفوفهم . اي ان الخطة الدفاعية الصليبية كانت تقوم دائماً على النوعية وليس على الكمية . (انظر الخارطة)

د ـ الحقد الاجتماعي : وترك الصليبيون نظاماً اقطاعياً مختلفاً عما كان عليه المسلمون في المناطق الداخلية غير الصليبية ،

وهو نظام اكثر رحمة من النظام الذي فرضه الزنكيون او الايوبيون (راجع تعليق الرحالة ابن جبير عن الاختلاف في المعاملة ما بين المناطق الصليبية والمناطق الاسلامية) لذلك كان على المماليك فيما بعد ان ينظموا الاقطاع وان يستفيدوا من التجارب الصليبية دون ان يعتمدوها ، كما اعتمد المماليك في علاقتهم الاجتماعية على احقادهم ضد الصليبيين .

وكما ان الصليبيين فشلوا في التبشير المسيحي في صفوف المسلمين ، فانهم فشلوا كذلك في توحيد المذاهب المسيحية وربطها بالكاثوليكية الغربية . وكان من اثرهم انهم اوغروا صدر المماليك بالحقد على بعض الطوائف الاسلامية ، وخاصة الشيعة ، الذين لم يشتركوا في محاربة الصليبيين اشتراكاً كاملاً . كما كان من اثرهم ان المماليك خربوا المدن الساحلية والموانىء خوفاً من عودة الصليبيين . فكانت الحروب الصليبية نعمة حضارية على اوروبا ولكنها كانت تدميراً حضارياً للسواحل وخاصة الساحل اللبناني . وستكون سياسة المماليك فيما بعد في لبنان رداً على التأثير الصليبي . ويكفي ان نشير إلى ملاحظات الرحالة ابن بطوطة اثناء مروره في هذه البلاد سنة ١٣٢٧ اذ قال: «ثم سافرت إلى عسقلان وهي الآن خراب... ثم سافرت على الساحل فوصلت إلى مدينة عكا وهي خراب . وكانت عكا قاعدة بلاد الافرنج بالشام وهي خراب . ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة ... »

تلك كانت نتيجة حروب قرنين من الزمن : الخراب ، والتدمير ، والعودة بعد الازدهار والعمران إلى مثل هذه النتيجة الرهيبة : ارض محروقة وشعب مشتت .

• • •

الفصل الرابع عشر

المماليك البحريون في لبنان

١) السيطرة المملوكية على لبنان : التعاون مع التنوخيين .
٢) السياسة المملوكية في لبنان : التوحيد الديني .
٣) الثورات الكسروانية .
٤) نتائج الحملات الكسروانية .
٥) غزوات الفرنج .

* * *

١ – السيطرة المملوكية على لبنان : التعاون مع التنوخيين

بدأت تظهر سيطرة المماليك اولاً في البقاع ، وذلك منذ قيام دولتهم في مصر . فقد كانت بعلبك والمناطق البقاعية وبلاد الغرب التنوخية تتبع عملياً من يحكم في دمشق . وقد استقرت هذه المناطق في ايدي المماليك ، بعد سيطرة المغول ، وذلك اثر معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وسقوط بلاد الشام عموماً في ايدي المماليك

اما بقية المناطق اللبنانية في الجنوب والشمال والساحل بكامله ، فقد بقيت في ايدي الصليبيين مدة طويلة ، بعد دخول المماليك إلى البقاع ، اي حتى سنة ١٢٩١ حين أنهى المماليك الوجود الصليبي في الشرق .

خلال هذه المدة الطويلة ، اي خلال ثلاثين سنة تقريباً ، كان لبنان موزعاً من حيث الحكم بين المماليك والصليبيين وقد اسرع الامراء التنوخيون — البحتريون — منذ ظهور المماليك في مصر ، يوطدون علاقتهم معهم ، ويعملون على الاستحصال على تثبيت لاقطاعاتهم بالتعاون مع الايوبيين او المغول في بلاد الشام ، وبعضهم تعاون مع الصليبيين في بيروت .

فقد استحصل الامير سعد الدين خضر امير الغرب سنة ١٢٥٦ من معز الدين ايبك سلطان مصر على المنشور التالي :

العلامة : حسبي الله

جهاته : من الشوف اصر الفوقانية — بعذران — عين ماطور ، بتلون ، عين اوزيه ، كفربرخ ، ابريج ، غريفه .

ومن وادي التيم : تنوره وظهر حماره .

ومن اقليم الخروب : برجه ، بعاصر الشحيم .

تاريخ ٢٧ ربيع اول سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦)

كما استحصل اخوه الامير جمال الدين حجي من الملك الناصر يوسف ملك دمشق الايوبي على منشور آخر هذا نصه :

العلامة : الحمد لله على نعمائه

جهاته : عرامون ، عندرافيل ، طردلا ، عين كسور ، رمطون ، قدرون ، مرتغون ، الصباحية ، سرحمور ، عيناب ، عين اعنوب ، الدوير .

تاريخه : ٢٥ صفر سنة ٦٥٠ هـ .

ولما وصل المغول إلى دمشق سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠) توجه الامير المذكور جمال الدين حجي إلى دمشق وقابل القائد المغولي كتبغا ممثل هولاكو ، واستحصل على منشور باقطاعه المذكور اعلاه .

يستدل من هذه المناشير ، ان الامراء التنوخيين انقسموا على انفسهم ، بسبب اضطراب اوضاع المنطقة ولكنهم عرفوا مسبقاً بالاتجاهات السياسية الجديدة ، فنظموا علاقاتهم مع المماليك في مصر ، بالرغم من تبعيتهم الرسمية للحكم الايوبي في دمشق قبل التوحيد المملوكي السياسي لمصر والشام . كما حاول بعضهم الحصول على الرضا المغولي .

وظهر هذا الانقسام التنوخي بالنسبة إلى ولائهم للمماليك او ولائهم للايوبيين والمغول ، فقد حارب بعض التنوخيين في معركة عين جالوت مع المماليك بينما كان فريق آخر يحارب مع المغول والايوبيين . وفي ذلك يقول صالح بن يحي صاحب تاريخ بيروت : ان جمال الدين حجي حارب مع المغول في معركة عين جالوت ، بينما كان ابن عمه الامير زين الدين بن علي يحارب مع المماليك المصريين (تاريخ بيروت صفحة ٦٠) ويبرر صالح بن يحي هـذا التصرف بقوله : « ليكون اي من انتصر من الفريقين كان احداهما معه فيسد خلة رفيقه وخلة البلاد قصداً بذلك اصلاح الحال .» وبعد ان اكمل الظاهر بيبرس سيطرته على الغرب ، كلف الاميرين التنوخيين زين الدين بن علي

وجمال الدين بن حجي بمراقبة الفرنج على طول الساحل من بيروت إلى صيدا . ولكن الوجود الصليبي في الساحل اللبناني جعل الولاء التنوخي للمماليك ضعيفاً ، بدليل اتهام المماليك لبعض الامراء التنوخيين بالتآمر على الدولة لمصلحة الصليبيين ، وعلى هذا فقد امر السلطان المملوكي بيبرس سنة ١٢٧١ بسجن الامراء التنوخيين الثلاثة ، زين الدين بن علي في سجن مصر ، وجمال الدين في سجن الكرك وسعد الدين خضر في سجن عجلون . وقرر الظاهر بيبرس الابقاء على سجن هؤلاء الامراء حتى يتمكن من احتلال المدن الساحلية من ايدي الصليبيين . وفعلاً ظل هؤلاء في السجن حتى وفاة بيبرس . وقد وضع المماليك ثقتهم بامير تنوخي آخر هو قطب الدين السعد ، ولكن بعض امراء التنوخيين قتلوه حوالي سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٧)؛ فأدى ذلك إلى انتقام شامل من التنوخيين ، اذ جرد المماليك حملة قاسية على الغرب فنهبت وقتلت لمدة سبعة ايام ، وسبت النساء والاطفال وباعوهم في اسواق الرقيق انتقاماً . وبعد وفاة بيبرس عادت الدولة المملوكية فعفت عن الامراء الثلاثة المسجونين وامرت باعادة السبي حيثما تواجد .

وبالرغم من ذلك ، فان بعض الامراء التنوخيين ظلوا على صلتهم بالصليبيين : فقد استحصل الامير جمال الدين حجي على اقطاع خاص في العمروسية من صاحب بيروت الصليبي هنفري دي مونفور . وفي الوقت ذاته ، وربما بسبب الاضطراب الذي اصاب الدولة المملوكية بعد وفاة بيبرس والاختلافات حول الوصول إلى العرش ، عمد بنو تغلب من مشغرة (بنو تغلب في تاريخ بيروت لصالح بن يحي) إلى اثارة القلاقل في المنطقة ، وقمع المماليك هذه القلاقل ثم صادروا اقطاعات التنوخيين ، ولم ترد عليهم هذه الاقطاعات الا بعد سقوط طرابلس في ايدي المماليك سنة ١٢٨٩ م .

وبسقوط الساحل اللبناني بكامله في ايدي المماليك (١٢٩١ م) اصبح التنوخيون يداً واحدة مع المماليك، فاستردوا اقطاعاتهم وحصلوا اضافة اليها على اقطاعات كسروان التابعة للشيعة « ارسل الامير الافرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بـان يصلحوا شؤونهم مع التنوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم اصحاب الاراضي والاقطاعات» (العصر المملوكي – سعيد عاشور – ١٩٦٥ – صفحة ٢٠٨) . وبهدوء منطقة الغرب تبدأ الازمة مع كسروان .

٢ – السياسة المملوكية في لبنان :
التوحيد الديني

سار المماليك في سياستهم الدينية على غرار السياسة الزنكية التي اعتمدها نور الدين زنكي ، والسياسة الايوبية التي اعتمدها صلاح الدين الايوبي ، وهي توحيد المذاهب الاسلامية باعتماد المذاهب الاربعة المعروفة بمذاهب السنة. ومن اجل هذا الهدف عمد ملوك هذه الدول إلى الضغط والارهاب ، وفي بعض الاحيان إلى التنكيل باتباع المذاهب الاسلامية الباقية .

وتميز المماليك عن غيرهم بمزيد من التشدد في محاربة المذاهب الاسلامية غير السنية ، فقد امر السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ (٦٦٥ هـ) باتباع المذاهب السنية الاربعة وتحريم ما عداها ، كما ام بان لا يولي قاض ولا تقبل شهادة احد ولا يرشح لاحدى وظائف الخطابة او الامامة او التدريس ما لم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب (المقريزي – المواعظ ج ٤ ص ١٦١) وقال: ابن حجر في الدرر الكامنة ج ٧ ص ٦٦ : « كان الناس اذا ارادوا ان يكيدوا لشخص

دسوا عليه من رماه بالتشيع ، فتصادر املاكه وتنهال عليه العقوبات والاهانات حتى يظهر التوبة من الرفض» . وعندما تكون القضية كبيرة وتشمل منطقة كبيرة كانت الدولة المملوكية تتستر وتحتج حججاً مختلفة كالاتصال بالصليبيين ، او الاتصال بالمغول والايوبيين لاسقاط الحكم المملوكي . ومن الامثلة البارزة على هذه الحجج معارك كسروان وما رافقها من العنف والبطش ، بالاضافة إلى فتاوى الامام ابن تيمية في هدر دماء الكسروانيين .

٣ — الثورات الكسروانية

كانت الشيعة قد تكاثرت في لبنان خلال العهد الصليبي وخاصة في منطقة كسروان ، واتصفت منطقة كسروان بنزعة استقلالية نتيجة لطابعها الجبلي ولاختلافها المذهبي عما يجاورها في الجنوب من تمركز تنوخي درزي ، وعما يجاورها في الساحل من تجمع صليبي ، وعما يجاورها في البقاع من تكتل اسلامي سني .

ولما جاء المماليك إلى لبنان اخذوا خلال ثلاثين سنة يوطدون العلاقة مع التنوخيين تمهيداً لطرد الصليبيين من الساحل . ولكن الانقسامات السياسية بين امراء المماليك وانعكاساتها على المناطق اللبنانية اخرت توطيد السيطرة المملوكية ، وكانت محاولة الامير المملوكي شمس الدين سنقر الاشقر الاستقلال بسوريا عن مصر من العوامل التي جرت المشاكل على البلاد ، فقد اتفق سنقر الاشقر مع المغول واستدعاهم لنجدته ، وفي الوقت ذاته سايره في سياسته كثير من اللبنانيين . فلما قضي على حركة سنقر واستقرت الاوضاع لصالح مماليك مصر عاملوا اللبنانيين بالشدة والعنف ، واتهموهم بالتعاون مع المغول ضد

الدولة المملوكية . وكان احتلال المماليك للمدن الساحلية اللبنانية من ايدي الصليبيين ايذاناً ببدء التصفية لكل معارضة للدولة ، فتحول التنوخيون نهائياً إلى جانب المماليك . اما الشيعة في كسروان فترددوا في الخضوع الكامل للسلطة الجديدة ، وعمل التنوخيون على تحريض المماليك ضد الكسروانيين طمعاً بالسيطرة الاقطاعية عليهم ، وبسبب الخلاف المذهبي بين الفريقين .

فقد ذكر صالح بن يحي في تاريخ بيروت (ص ٥٣) ان ملك الامرا لاجين نايب الشام عن الملك المنصور قلاوون كتب إلى جمال الدين وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة كسروان والجردين يتوجها اليه بمجموعهما واهويتهما ، وان من نهب امرأة منهم كانت له جارية او صبي كان له مملوكاً ، ومن احضر منهم راساً فله دينار ، وان سنقر توجه لاستيصال شأفتهم ونهب اموالهم وسبي ذراريهم وانفسهم ، تاريخه سابع جمادي الاولى سنة ستة وثمانين وستماية (١٢٨٥) . وربما كان تأخر سنقر المنصوري عن كسروان بهذا السبب (فتح عكا) فتأخر أمرهم إلى سنة ٦٩١ هـ » .

أ — الحملة الكسروانية الاولى : بعد فتح عكا وجه السلطان الاشرف خليل بن قلاوون حملة على كسروان بقيادة نائب السلطان الامير بدر الدين بيدرا سنة ١٢٩٢ ، وفي ذلك يقول المقريزي في السلوك عن اخبار سنة٦٩١هـ، شهر شعبان : « وفيه خرج الامير بدر الدين بيدرا ، نائب السلطنة بديار مصر ، ومعه معظم العسكر إلى جبال كسروان ، من جهة الساحل ، فلقيهم أهل الجبال ، وعاد بيدرا شبه المهزوم ، واضطرب العسكر

اضطراباً عظيماً ، فطمع اهل الجبال فيهم . وتشوش الامراء من ذلك ، وحقدوا على بيدرا ، ونسبوه ان اخذ منهم الرشوة . فلما عاد دمشق تلقاه السلطان ، وترجل له عند السلام عليه ، وعاتبه فيما كان منه . »

وذكر صالح بن يحي في تاريخ بيروت هذه الحادثة صفحة ٢٤ و ٢٥ كما يلي : « توجه الامير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بمصر وبعض العساكر إلى جبال كسروان واضطراب العساكر في شهر شعبان سنة احد وتسعين وستماية ، توجه الامير بيدرا بمعظم العساكر المصرية وصحبه من الامرا الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قرا سنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين بكتوت العلاي وغيرهم ، وقصدوا جبال كسروان ، واتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما ، والتقوا بالجبل وحضر إلى الامير بيدرا من اثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في امرهم حتى تمكنوا من بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم . وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم ، وطمع اهل تلك الجبال ، فاضطر الامير بيدرا إلى اطابة قلوبهم ، والاحسان اليهم ، وخلع على جماعة من اكابرهم ، فاشتطوا في الطلب فاجابهم إلى ما التمسوه من الافراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرايم صدرت منهم . وحصل للكسروانيين من القتل والنهاب والطفر ما لم يكن في حسابهم ، وحصل للامرا والعسكر من الالم ما اوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير

الامير بيدرا ونسبوه إلى انه انما اهمل امرهم ، وفتر عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه انه تبرطل منهم واخذ منهم جملة كثيرة ... »

يستفاد من نصوص هذه الحملة الاولى على كسروان ان المماليك ارادوا الافتقام من المنطقة وليس الاحتلال بدليل ان المماليك كانوا قد اعتقلوا عدداً من الكسروانيين بتهم مختلفة ، ومنها انهم اساؤوا معاملة جنود المماليك الذين هربوا من وجه المغول سنة ١٢٨٧ عندما اجتاحوا البقاع ووادي التيم .

ويبدو ان هذه التهمة كانت من صنع التنوخيين ضد جيرانهم ، لذلك تفهم نائب السلطان هذه القضية وغيّر خطة الهجوم ، وادى تصرف نائب السلطان إلى نقمة كبيرة عليه لدى الامراء ، ولدى السلطان حتى وصلت النقمة إلى اتهامه بانه ارتشى من الكسروانيين . ولعل هذه الحادثة هي التي سبّبت بعد ذلك انقلاب الامير بيدرا على السلطان والقضاء عليه ووصوله إلى الحكم (لمدة يوم واحد) . ثم استلم السلطنة السلطان الناصر ابن قلاوون .

ومن الامور المستهجنة أن هذه الحملة كان فيها الامير شمس الدين سنقر الاشقر وهو من الامراء الذين اتصلوا بالمغول وتحالفوا معهم ضد السلطان قلاوون . وربما ان وجود هذا الامير مع الحملة اثر على خطط الامير بيدرا في عدم محاربة الكسروانيين .

ثم انقلب الامير زين الدين كتبغا على الناصر بن قلاوون وتسلطن ، وصار ينتقم من جميع اخصامه بتهمة مكاتبة المغول

والاتصال بهم ، وكانت نفس التهمة هي التي وجهت إلى الكسروانيين للانتقام منهم . ثم لما عاد السلطان الناصر بن قلاوون إلى سلطنته الثانية وجه حملة جديدة على كسروان .

ب — الحملة الكسروانية الثانية : : قال صالح بن يحي في تاريخ بيروت (ص ٢٧) : « كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا إلى اذى العسكر عند انهزامه من التتر في سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ ميلادية) وتراخى الامر عنهم وتمادى وحصل اغفال امرهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج عن الطاعة واعتزوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وانه لا يمكن الوصول اليهم . »

واورد المقريزي في كتاب السلوك عن اخبار هذه الحملة في سنة ٦٩٩ هـ (ج ٣ — ص ٩٠٢ و ٩٠٣) المقطع التالي : « وفي عشرين شوال ، توجه الامير اقوش الافرم من دمشق لغزو الدرزية اهل جبال كسروان . فان ضررهم اشتد ، ونال العسكر عند انهزامها من غازان إلى مصر منهم شدائد . ولقيه نائب صفد بعسكره ، ونائب حماه ونائب حمص ونائب طرابلس بعساكرهم . فاستعدوا لقتالهم وامتنعوا بجبلهم ، وهو صعب المرتقى ، وصاروا في نحو اثني عشر الف رام . فزحفت العساكر السلطانية عليهم ، فلم تطقهم ، وجرح كثير منهم ، فافترقت العساكر عليهم من عدة جهات ، وقاتلوهم ستة ايام قتالاً شديداً إلى الغاية ، فلم يثبت اهل الجبال وانهزموا . وصعد العسكر الجبل بعدما قتل منهم واسر خلقاً كثيراً ، ووضع السيف فيهم ، فالقوا السلاح ونادوا الامان ، فكفوا عن

قتالهم . واستدعوا مشايخهم والزموهم باحضار جميع ما اخذ من العسكر وقت الهزيمة . فاحضروا من السلاح والقماش شيئاً كثيراً ، وحلفوا انهم لم يخفوا شيئاً ، فقرر عليهم الامير آقوش الافرم مبلغ ماية الف درهم جبوها ، واخذ عدة من مشايخهم واكابرهم . وعاد إلى دمشق يوم الاحد ثالث ذي القعدة . وبعث البريد بالخبر إلى السلطان . »

ويستفاد من هذه النصوص ان هذه الحملة التأديبية كانت جواباً على معاملة الكسروانيين للجنود المماليك الهاربين من وجه المغول ، وقد وضّح هذه النقطة صالح بن يحي في تاريخه ص ٧٨ اذ يقول: «ان الهاربين من عساكر الملك الناصر محمد بن قلاوون من قازان سنة تسع وتسعين وستماية تفرقوا في البلاد فحصل لهم الاذية من المفسدين خصوصاً من أهل كسروان وجزين ، واكثرهم اذية للهاربين اهل كسروان بالغوا إلى انهم مسكوا بعض الهاربين وباعوهم للفرنج ، واما التشليح والقتل فكان كثيراً ، وكان ناهض الدين بحتر اذا مر عليه احد من الهاربين احسن اليه واضافه وقام له بما يحتاج اليه ، وكذلك فعل علاء الدين علي بن حسن بن صبح في قرية حديثا، فشكرا وصار لهما ذكرا فلبسا اثنينهما الخلع في نهار واحد ، كل منهما بامرته طبلخاناه ، وذلك بواسطة ملك الامراء جمال الدين اقوش الافرم نايب الشام لمحاربة المفسدين ، ثم عاملوا اهل كسروان بما ذكرناه » ويتبين كذلك ان مطامع التنوخيين وخاصة الامير ناهض الدين بحتر في السيطرة على اقطاعات كسروان كانت من الاسباب التي ادت إلى هذه الحملة . وبالفعل فان

الامير ناهض الدين بحتر اصبح امير طبلخاناه سنة ٧٠٠ ﻫ اي اثر معركة كسروان المذكورة . ولا بد من الاشارة إلى ورود ذكر للافرنج في النص السابق عند صالح بن يحي ، والمعروف ان الوجود الصليبي في الشرق كان قد انتهى قبل المعركة المذكورة بثماني سنوات ، ولكن الفرنج حاولوا في نفس السنة اي سنة ١٢٩٩ مهاجمة الساحل وبيروت بثلاثين سفينة . الا ان الحملة فشلت فاستغل وجودها ضد الكسروانيين لتقوية التهمة ضدهم .

ج – الحملة الكسروانية الثالثة (١٣٠٢) : قويت العداوة بين التنوخيين والكسروانيين بسبب مساعدة هؤلاء للمماليك في حملتهم على كسروان سنة ١٣٠٠ . ويبدو ان النائب في دمشق قد اقطع كسروان للامراء التنوخيين ، وان الضريبة كانت باهظة ، فتمرد الكسروانيون على السلطة المملوكية ، مما ادى إلى تجدد القتال بين هؤلاء والمماليك سنة ١٣٠٢ ، ويؤخذ من أخبار زجليات ابن القلاعي انه في سنة ١٣٠٢ (٧٠٢ ﻫ) ارسل المماليك قوة كبيرة إلى كسروان وإلى الجبليين ، فوقعت معركة كبيرة عند مدينة جبيل اذ حمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا اكثره وغنموا امتعتهم وسلاحهم ، واخذوا اربعة الاف راس من خيلهم . وقدمت الاكراد لنجدتهم فصدهم كمينان في الفيدار والمدفون ، فلم يخلص منهم الا القليل . وخربوا بعض بلاد الغرب . وكان امراء الغرب التنوخيون مع جيش دمشق . فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة وبحطوش وغيرها

(خطط الشام – محمد كرد علي – ج ٢ ص ١٤٢) . هذه الرواية تفرد بها ابن القلاعي ، ولم يذكرها غيره من مؤرخي المماليك . ونلاحظ باستغراب كبير ان احدا غير ابن القلاعي لم يأت على ذكر هذه الواقعة بالرغم من نتائجها الخطيرة وخسارة المماليك لقواتهم وخيولهم ، وان المؤرخين اجمعوا على ربط معركة فتح كسروان سنة ١٣٠٥ بحوادث سنة ١٣٠٠ وليس بسنة ١٣٠٢ مما يدل على عدم اهميتها اي على عكس ما ذهب اليه ابن القلاعي .

د – الحملة الكسروانية الرابعة او فتوح كسروان (١٣٠٥) :
وجه آقوش نائب الشام في البدء سنة ١٣٠٤ بعثة من الشام برئاسة الشريف زين الدين محمد بن عدنان الحسيني لاصلاح الامر بين الشيعة والكسروانيين والتنوخيين . ولكن هذه البعثة لم تحقق غايتها (كانت نتيجتها زواج الشريف المذكور من اميرة تنوخية من الغرب) ثم عاد آقوش وارسل بعثة ثانية برئاسة الامام تقي الدين احمد بن تيمية وبصحبته بهاء الدين قراقوش ، وتحدثت البعثة مع الكسروانيين . كما اورد صالح بن يحي في تاريخ بيروت (ص ٢٧) فقال : « ان الكسروانيين اظهروا الخروج عن الطاعة وانه في ذي الحجة سنة ٧٠٤ جهز اليهم آقوش زين الدين عدنان ثم توجه بعده تقي الدين وقراقوش وتحدث معهم في الرجوع إلى الطاعة فما اجابوا إلى ذلك . » فعمد ابن تيمية إلى اصدار فتوى بهدر دماء الشيعة الكسروانيين وهدم بيوتهم وحرق اشجارهم . وقد روى القلقشندي في صبح الاعشى (ج ١٣ ص ٢٤٨) ما يلي : « كان شيخنا ابن

تيمية رحمه الله تعالى يرى ان قتالهم (اي الكسروانيين) وقتال النصيرية أولى من قتال الارمن ، لانهم عدو في دار الاسلام ؛ وشر بقائهم اضر » .

وبناء لهذه الفتوى جهز آقوش سنة ١٣٠٥ (٧٠٥ هـ) جيشاً كبيراً بلغ ٥٠ الف محارب ، وساعده في التعبئة التنوخيون والدروز ونائب طرابلس ونائب صفد والامير ابن صبح وامير البقاع الغربي وامير بعلبك علاء الدين بن معبد . واخذت المناطق الكسروانية من الشمال فعرفت بالفتوح . وسقطت كسروان بعد احد عشر يوماً من القتال (من ٢ إلى ١٣ محرم) فخرب آقوش ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم ، وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف ، واسر ٦٠٠ رجل ، وغنمت العساكر منهم مالاً عظيماً . ثم اقطع المماليك كسروان لبعض الامراء (امراء الغرب والبقاع وبعلبك) فذهبوا اليها « فزرعها لهم الجبلية ورفعت ايدي الرفضة عنها »(المقريزي السلوك ج٢ ص١٥ و ١٦) وجاء في الاخبار المحلية رواية اخرى عن هذه المعركة وهي ان آقوش الافرم جمع عشرة امراء من الدروز ومعهم عشرة الاف مقاتل . وان المعركة وقعت بين الكسروانيين والامراء في عين صوفر في مطلع سنة ٧٠٦ (اول محرم) وان الدائرة دارت على الامراء . وان بعض الكسروانيين هربوا بحرمهم واولادهم وأموالهم ونحو ثلاثماية نفس من رجالهم اجتمعوا في مغارة نيبيه فوق انطلياس غربي مغارة البلانة ، فدافعوا عن نفسهم . ولم يقدر الجيش ان ينال منهم . ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا . فامر نائب دمشق ان يبنوا على المغارة

سدا من الحجر والكلس وهالوا عليه تلا من التراب ، وجعلوا الامير قطلوبك حارساً عليهم مدة اربعين يوماً حتى هلكوا داخل المغارة . »

أما صالح بن يحي فيروي لهذه المعركة رواية اخرى في تاريخ بيروت ص ٩٦ اذ يقول :

« في اوائل سنة ٧٠٥ كان فتوح كسروان ، فتوجه إلى كسروان (المقصود بالتوجه الامير ناصر الدين الحسين امير الغرب) ومعه اقاربه وجمعه فقتل منهم الاميرين نجم الدين محمد واخيه شهاب الدين احمد ولدي الامير جمال الدين حجي في نهار الخميس ٥ محرم بقرية نيبيه من كسروان ، وقتل معهم من اهل الغرب ثلاثة وعشرون نفراً . وكانت وقعة نيبيه المذكورة وقعة ردية لان اهل كسروان تجمعوا وقاتلوا بها . وكان فيها مغارة اجتمعوا فيها بعد القتال . ذكر ان كان عبرة اهل كسروان اربع الآف راجـل فراح تحت السيف منهم خلق كثير ، والسالم منهم تفرقوا في جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك . وبعضهم اعطوه الدولة امانهم » .

في هذا المقطع من صالح بن يحي اشارة إلى دور التنوخيين في فتح كسروان سنة ١٣٠٥ ، اما وصف المعركة بكاملها فقد اشار اليها المؤرخ المذكور في تاريخه ص ٢٧ فقال : « فعند ذلك رسم (آقوش) بتجريد العساكر اليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية . وتوجه آقوش الافرم من دمشق يساير الجيوش في يوم الاثنين ٢ محرم سنة ٧٠٥ وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو ٥٠ الفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين

والجرديين . وتوجه سيف الدين اسندمر نايب طرابلس وشمس الدين سنقر جاه المنصوري نايب صفد . وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس . وكان قد نسب إلى مباطنتهم . فجرد العزم واراد ان يفعل في هذا الامر ما يمحو عنه هذه الشناعة التي وقعت . وطلع إلى جبل كسروان من اصعب مسالكه . واجتمعت عليهم العساكر واحتوت على جبالهم ، ووطت ارضاً لم تكن اهلها يظنون ان احداً يطاها . وقطعت كرومهم واخربت بيوتهم . وقتل منهم خلق كثير ، وتمزقوا في البلاد ... وعاد نايب الشام إلى دمشق بالعساكر في ٤ صفر من السنة المذكورة ، وجعل الناظر في بلاد بعلبك وجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش ، فاخلا ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من اعيانهم جماعة ثم اعطوا امانا لمن استقر في غير كسروان » .

نلاحظ من الاخبار المختلفة عن معركة كسروان سنة ١٣٠٥ ان الاضطراب والغموض يحيط بها ولا سيما في النقاط التالية :

اولاً : الاضطراب في تحديد السنة هل هي سنة ١٣٠٥ ام ١٣٠٦ ام ان ذلك نتيجة لتحويل السنة الهجرية إلى ميلادية ، باعتبار ان جميع الروايات تجمع على حدوث المعركة في مطلع شهر محرم .

ثانياً : الاضطراب في تحديد نوعية السكان الكسروانيين من حيث المذهب ، فبينما يذهب البعض إلى القول انهم كانوا دروزاً ، يذهب البعض الآخر إلى القول بانهم كانوا من الموارنة ، ويرى آخرون انهم من الظنيين (النصيرية) .

وتشير بعض الروايات إلى انهم شيعة . ولكننا اذا امعنا الفكر وقارنا ما بين الروايات المختلفة نصل إلى القول بان السكان كانوا باكثريتهم الساحقة من الشيعة بدليل بعثة ابن تيمية وفتواه ، والنزوح إلى البقاع وجزين ، والقول الصريح عند المقريزي في السلوك (ج ٢ ص ١٦) وهو بعلبكي الاصل ، اذ قال : « ورفعت ايدي الرفضة عنها. » والرفضة لقب عرفت به الشيعة فقط بين مختلف المذاهب الاسلامية . وبالاضافة إلى الشيعة كان معهم جماعات من المسيحيين عرفوا باسم الجبلية وهم لم يستهدفوا في هذه المعارك ، وهم الذين بقوا بعد زوال الشيعة من كسروان، وزرعوا الارض للاقطاعيين كما قال المقريزي في الاشارة السابقة . وهؤلاء المسيحيون اخذوا يتكاثرون فيما بعد بسبب الهجرة اليهم من شمالي لبنان (مراجعة الاب لامنس في تسريح الابصار في ما يحتوى لبنان من آثار) .

ثالثاً : الاضطراب في سير المعركة وغموض تفاصيلها ، فبينما تشير بعض الروايات إلى ان الهجوم بدأ من عين صوفر اذا بروايات ثانية تشير إلى منطقة الفتوح أنها كانت طريق الهجوم وذلك على يد القوات الطرابلسية .

رابعاً : الاضطراب في حقيقة موقف الدروز في المعارك الكسروانية وخاصة معركة سنة ١٣٠٥ .

ويبدو ان هذه المعارك الدموية لم تقض نهائياً على كيان الكسروانيين ، اذ عمد الحاكم الجديد بهاء الدين قراقوش سنة ٧٠٦ ﻫ إلى قتل اعيان الكسروانيين واخلاء البلاد ممن بقي منهم . وان الامان يعطى لمن يستقر منهم خارج كسروان .

ثم كان ان اقطع المماليك كسروان بدلاً من قراقوش ، للقبائل التركمانية العسافية ، فعرفوا بتركمان كسروان . وامتد اقطاعهم من حدود بيروت إلى جبيل ، وفرض عليهم تقديم عبرة كسروان سابقاً ٤٠٠٠ راجل)

٤ – نتائج الحملات الكسروانية

لقد لبت هذه الحملات عدة اهداف مملوكية اولها : السيطرة الكاملة على منطقة منيعة ، وثانيها ارضاء اعوانها واتباعها بتوزيعات اقطاعية جديدة (زادت المقاطعات عما كانت قبلاً مايتي مقاطعة) وثالثها تحقيق التوحيد الديني الاسلامي بمحاربة المذاهب غير السنية ، ومن هنا كان دور الامام ابن تيمية في هدر دماء الشيعة والنصيرية .

وقد اضطرت الشيعة امام مذابح كسروان إلى اعتماد التقية والتظاهر باعتناق المذهب الشافعي طيلة القرن الرابع عشر . لذلك لم يسجل التاريخ بعد الحملات الكسروانية اي وجود شيعي في لبنان ، لان فتوى ابن تيمية كانت بالمرصاد (صالح بن يحي – ص ١٩٥) وكانت النتيجة الكبرى لتفريغ كسروان من سكانها الشيعة ، أن بدأت الهجرة المارونية اليه بتشجيع من اصحاب الاقطاع الكسرواني وعلى رأسهم العائلات التركمانية من بني عساف .

ولقد كان الانتقام المملوكي من كسروان عنيفاً ودموياً لدرجة ان السلطان الناصر بن قلاوون طلب تبريراً لهذه المجزرة فكان جواب الامام ابن تيمية متضمناً التبرير المطلوب . قال ابن تيمية : (ابن تيمية – محمد ابو زهرة – ص ٤٥) .

« ... لما قدم التتار إلى البلاد ، وفعلوا بالمسلمين ما لا يحصى من الفساد ، وارسلوا إلى اهل قبرص ، فملكوا بعض الساحل ، وحملوا راية الصليب ، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم واسراهم ما لا يحصى عدده الا الله ، واقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على اهل قبرص ، وفرحوا بمجيء التتار ... » « ولما خرجت العساكر الاسلامية من الديار المصرية ، ظهر فيهم الخزى والنكال ما عرفه الناس منهم ، ولما نصر الله الاسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزا ء ... »

« وكل هذا واعظم منه عند هذه الطائفة ، كان من اسباب خروج جنكيزخان إلى بلاد الاسلام ، وفي استيلاء هولاكو على بغداد ، وفي قدومه إلى حلب ، وفي نهب الصالحية ، وغير ذلك من انواع العداوة للاسلام واهله . ولقد كان جيرانهم من اهل البقاع وغيرها منهم ، في امر لا يضبط شره ، كل ليلة تنزل منهم طائفة ، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه الا رب العباد : كانوا في قطع الطرقات واخافة سكان البيوتات على اقبح سيرة ، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين ، فاما ان يقتلوه ، واما ان يسلبوه ، وقليل منهم من يفلت بالحيلة .... وقد اتفق العلماء على قطع الشجر وتخريب العامر عند الحاجة اليه ، فليس ذلك باولى من قتل النفوس ، وان القوم لم يحضروا كلهم من الاماكن التي اختفوا فيها ، وما ايسوا من المقام في الجبل الا حين قطعت الاشجار والا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم ... »

بهذه الرسالة ، وبهذه الافكار برر ابن تيمية المجزرة التي افتى بها ، واشترك فيها اشتراكاً فعلياً باسم الدين وباسم الحفاظ على وحدة

المسلمين . وليس من شك على الاطلاق أنّ الطائفة التي عناها في رسالته هي الطائفة الشيعية .

٥ – غزوات الفرنج

منذ ان تم للماليك الفتح الكامل للمناطق اللبنانية وطرد الصليبيين منها ، حاول هؤلاء بشتّى الوسائل استرداد ما فقدوه . وكانت جزيرة قبرص وجزيرة رودس وجزيرة ارواد منطلقاً رئيسياً لغزواتهم؛ كما كانت السفن الايطالية الجنوية وغيرها تغير من وقت إلى آخر على الموانيء اللبنانية . لذلك عمد المماليك وهم قوة برية بالدرجة الاولى إلى ردم الموانيء اللبنانية لجعلها غير صالحة لرسو السفن ولاستقبالها ، وقد ادى هذا الردم إلى تأخر كبير في تجارة السواحل اللبنانية وتقهقر الموانيء . واهم المحاولات الصليبية الهجومية كانت سنة ١٢٩٩ اذ وصلت سفن كثيرة للفرنجة . قدرها صالح بن يحي صاحب تاريخ بيروت بثلاثين سفينة مشحونة بالرجال ، فحاولت هذه الحملة النزول إلى ساحل بيروت لاحتلال المدينة ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب العواصف الهائلة التي فرضت عليهم الانسحاب . وهذه الحملة كانت سبباً في اتّهام المماليك للكسروانيين بممالأة الصليبيين والمتاجرة معهم .

ثم عمد الصليبيون سنة ١٣٠٤ إلى مهاجمة صيدا فاحتلوها وقتلوا بعض سكانها واسروا كثيراً من سكانها ونهبوا منها ما تيسر لهم . وحاول الصليبيون فيما بعد مهاجمة بيروت مراراً ولكنهم فشلوا في ترسيخ حكمهم في اية منطقة من الساحل اللبناني . وفي سنة ١٣٨٤ عاد الصليبيون فهاجموا صيدا واحتلوها وحاولوا الوصول منها إلى بيروت ولكنهم فشلوا مجدداً . ثم هاجموا سنة ١٤٠٣ مدينة طرابلس فنهبوها

واحرقوا جانباً منها ، كما هاجموا صيدا ونهبوها . ولم تسترح السواحل اللبنانية الا بعد ان احتل المماليك جزيرة قبرص سنة ١٤٢٥ بعد احتلالهم لجزيرة ارواد .

وكان من نتائج تدمير الموانيء اللبنانية وانهيار التجارة البحرية ان لساحل خف عـــدد سكانه ، وانتقلت الكثافة السكانية إلى جبال بنان ، لذلك سيكون تاريخ لبنان في ظل المماليك تاريخ مناطقه لجبلية بالدرجة الاولى .

• • •

الفصل الخامس عشر

تنظيمات المماليك البحرية في لبنان

١) التنظيم الاداري .
٢) التنظيم الاقطاعي المدني
٣) التنظيم العسكري : الابراج والاذواق والمطارات .
٤) الروك الناصري .
٥) الانقلابات المملوكية .
٦) عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وسلالته .

* * *

١ – التنظيم الاداري

قسّم المماليك المقاطعات اللبنانية المختلفة على ثلاث نيابات هي نيابة دمشق ونيابة طرابلس ونيابة صفد . فكان البقاع واواسط جبل لبنان تتبع دمشق وكان الشمال حتّى جبيل يتبع طرابلس ، وكان الجنوب يتبع صفد ، وكان يطلق في بعض الاحيان على هذه النيابات لقب الممالك بالنسبة الى رتبة النائب الحاكم . وقد اطلق في بعض الاحيان على بعلبك

لقب المملكة البعلبكية ، كما اطلق على الجنوب لقب المملكة الشقيفية .

وكانت النيابة مقسمة الى ولايات ، فنيابة دمشق يتبعها من لبنان ولاية بعلبك بقسميها الشمالي المعروف بالبقاع البعلبكي والجنوبي المعروف بالبقاع العزيزي وولاية بيروت وولاية صيدا . اما نيابة طرابلس فيتبعها من لبنان : نيابة حصن عكار (نيابة عسكرية) وولاية جبة المنيطـرة وولاية الضنية وولاية بشري وولاية انفة . واما نيابة صفد فيتبعها مـن لبنان ، ولاية تبنين وولاية صور وولاية الشقيف . اي ان لبنان كـان موزعاً بين احدى عشرة ولاية تتبع النيابات الكبرى الثلاث في دمشق وطرابلس وصفد . (القلقشندي ج ٥ – ص ٤٥٥) وكان يتبع النيابة وظائف هامة مثل القضاء وكان يمثلـه القضاة الاربعة عن المذاهب الاربعة ، والدواوين واهمها : ديوان الانشاء وديوان النظر (الشؤون المالية) وديوان الجيش المسؤول عن الجيش وعن التنظيم الاقطاعي وشؤون الاقطاعيين في النيابـة . وكانت الوظائف الكبرى من حـق المماليك ما عدا ديوان الانشاء الذي كان يوكل الى الوطنيين المتمكنين من اللغة العربية ، اما الاقطاعيون فان اكثريتهم كانت من الوطنيين بينما انحصرت مهمات الجيش بقادة المماليك وجنودهم .

٢ – التنظيم الاقطاعي المدني

أ) مقدمة : « الاقطاع هو في الشريعة تمليك الامام ارضاً لا مالك لها ، لانسان يقوم بعمارتها واستغلالها ، على ان يتم ذلك خلال مدة معينة ، فان انقضت ولم يفعل شيئاً من ذلك استردها الامام منه واعطاها لغيره . هذا هو الاقطاع الذي جرى في عصر الرسول (صلعم) والخلفاء الراشدين فمن بعدهم . ثم اطلق

الاقطاع على منح الامام بعض الناس غلة ارض من اراضي الدولة لبلائهم في الجيش او لعظيم فائدتهم للامة .

واقطاع الاراضي لا يكون الا في الاراضي التي :

١ – ليست مملوكة لاحد ، ولو كانت خراباً .

٢ – ليست من المرافق العامة التي يحتاج اليها سكان المدن او القرى او الصحراء .

٣ – ليس فيها معدن من المعادن التي يحتاج اليها الناس .

وما عدا هذه الانواع الثلاثة من الاراضي ، فمن حق الامام ان يقطعها لمن يشاء ولا يجوز له ان يفعل ذلك محاباة ، بل عليه ان لا يبتغي من ذلك الا نفع الامة والبلاد » (مصطفى السباعي : كتاب اشتراكية الاسلام) .

على هذا ، عرفت الدول الاسلامية المختلفة اشكالا متعددة من الاقطاع ، حتى جاء السلاجقة (تنظيمات نظام الملك) فنظموا الاقطاع لاغراض عسكرية فانتشر في مختلف مناطق الدولـة الاسلامية السلجوقية . وكانت الشروط المقيدة لتوزيع الاقطاع تقوم على ثلاثة امور هي :

١ – احياء الارض واستثمارها ، فاذا اهملها صاحبها سقط حقه فيها .

٢ – تقديم الضريبة المفروضة والجنود .

٣ – أن لا تكون وراثية الا اذا نص السلطان على ذلك .

ولم يكن الفلاحون اقناناً ، بل احرار يعملون حيثما يشاؤون بحصة معينة من الانتاج .

ومع ضعف الحكم الاسلامي ، بدأ النظام الاقطاعي يتحول الى نظـام وراثي بدون مراقبة ، كما بدأ يظهر استغلال الفلاحين واستثمارهم ، (ثورات الفلاحين) ، بالرغـم من بقـاء الاراضي رسمياً ملكاً للسلطان (رقبة السلطان) .

ولما جاء الصليبيون اعتبروا ان البلاد لهم بحكم السيف ، فابقوا توزيع الاراضي كما كان سابقاً ولكنهم فرضوا عليهم الضرائب ونظموا جبايتها (نصف الانتاج ، ودينار وخمسة قراريط عن كل شخص ، وضريبة اضافية على الاشجار المثمرة) .

وتحسنت اوضاع الفلاحين والاقطاعيين الخاضعين للحكـم الصليبي ، بحيث ان وضعهم اصبح احسن بكثير من وضع اخوانهم الخاضعين للحكم الاسلامي (في ظل الدولة الزنكية و الدولة الايوبية) . وقد لمس ذلك الرحالة ابن جبير واشار اليه في كتابه ، « وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعملهم ، لانهم على ضد احوالهم مـن الترفيه والرفق » (رحلة ابن جبير ص ٢٧٥)

ب) **الاقطاع المدني في لبنان** : ثم جاء المماليك لينطلقـوا بالاقطاع انطلاقة جديدة في لبنان مستمدة من الانظمة الصليبيـة والسلجوقية ، وربطـوا الاقطاع المدني الزراعي بالتنظيمات العسكرية واصبح توزيع الاقطاع منوطاً بديوان الجيش في مركز النيابة ، بحيث يصدر منشور رسمي يحدد للاقطاعي المناطق المعطاة له ، وعدد الجنود الذين يتوجب على الاقطاعي تقديمهم للدولة حين الحاجة . وكان المماليك يسلمون المنشور لصاحب العلاقـة

ويبقى في ديوان الجيش مثال عنه (نسخة) وكانت الدولة تجدد او تغير في حدود المقاطعة في المناسبات : اما عند تغيير السلطان او النائب عنه او وفاة الاقطاعي او عزله ، او حين اجراء روك جديد في البلاد (اعمال مساحة الأراضي) . وعلى هذا الاساس فلم يكن الاقطاع وراثياً الا بمنشور .

وكانت المقاطعة الصغرى عليها ان تقـدم حين الحاجة ٣١ جندياً . ويمكن للمقاطعة الواحدة ، صغيرة كانت ام كبيرة ، ان توزع بدورها على عدد من الاقطاعيين بموجب مناشير . اي ان الاقطاعي كبيراً كان ام صغيراً . كان عليه دائماً العودة الى ديوان الجيش . وفي ما يلي مثل عن منشور اعطاه السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون للامير التنوخي ناصر الدين الحسين :

« الذي شهد به الديوان المعمور ان الذي تعين باسم من يذكر مـن الامراء الجبلية اولاد امير الغرب . عند الروك المبارك لاستقبال السنة الاتية ، المدرك في السنة الماضية ، بمقتضى الاوراق المحضرة من الابواب الشريفة في هذه السنة ، خارجاً من الملك والوقف والمواريث الشرعية بمناظرة المجلس الشامي هو هكذا : الامير ناصر الدين الحسين بن الامير سعد الدين بن خضر امير الغرب لخاصته وعشيرته : عرمون ، وحير ، وبشالا ، وكيفون ، وبيصور ، وثلث عين عنوب وثلث عيناب ، وشمشون ، وثلث كفرعميه ، وثلث بتاتر ، وبركـة شطرا ، ومرتغون ، وثلث حصة الملك في خلـده ، ومغدلا ، ومن الفريديس مدان ، وعليها ٦٢ من الجند . »

وعلى هذا الاساس فقد كان للاقطاعي صفة عسكرية في مقاطعته ، ومسؤول عن امن مقاطعته وعما تكلفه به الدولة . اما الفلاح فلم يكن في هذا التنظيم قناً كما كان الفلاح في النظام الاقطاعي الفيوذالي الاوروبي . لقد كان حراً ويمكنه ان يغير المقاطعة التي يعمل فيها . اما حصته من الانتاج فكانت تتراوح ما بين الثلاثة ارباع الانتاج الى الثلثين في الاراضي غير المروية، وتصل الى نصف الانتاج في الاراضي المروية . وهذه النسب لم يعرفها الفلاحون من قبل المماليك ولا بعدهم . وقد ادى هذا التنظيم الاقطاعي الى ازدهار كبير في الزراعة واعمار الجبال بالقرى والمزارع . كما ادى الى استقدام اعداد كبيرة من الاكراد والتركمان للعمل في المقاطعات اللبنانية كاقطاعيين او كجنود او كفلاحين .

وكانت الضريبة المفروضة على الاقطاعي تعرف رسمياً باسم (عبرة) وعليه ان يقدمها سنوياً للدولة . وكل تحسين يطرأ على المقاطعة كان ريعه يبقى للاقطاعي ومن هنا كان تحسن الوضع الزراعي في لبنان .

اما اذا وقع الفساد في استثمار المقاطعات ، سواء بسبب ظلم الاقطاعي او تهرب الفلاحين ، او حاجة الدولة ، فان ديوان الجيش يعمد اما الى مسح جديد للاراضي (روك) واما الى اعادة النظر في العبرة ، اي الضريبة المفروضة على الاقطاعي ومعنى ذلك ان النظام الاقطاعي المملوكي ظلّ مرناً يلبي تطور حاجات المجتمع المملوكي .

٣ – التنظيم العسكري: الابراج والادواق والمطارات

اهتم المماليك بالتنظيمات العسكرية اهتماماً بالغاً ، ولم يكن ذلك بمستغرب ، فهم في الاصل فرق عسكرية ، وقد تمكنوا من احراز الانتصارات المختلفة على الصليبيين والمغول لهذا السبب . ولقد كان لبنان موزعاً بين ثلاث نيابات عسكرية هي : نيابة دمشق ، ويتبعها من لبنان البقاع وجبال لبنان الوسطى وبيروت وصيدا ، وفيها اعمال ومراكز عسكرية مختلفة ، ونيابة طرابلس ويتبعها من لبنان من جبيل حتى عكار ، ونيابة صفد ويتبعها من لبنان القسم الجنوبي منه . وكانت النيابة مزدوجة الفاعلية فهي تنظيم اقطاعي مدني وتنظيم عسكري في الوقت ذاته . وكان مع النائب قائد عسكري رفيع الرتبة يتبع النائب بالاسم لكنه كان عملياً مرتبطاً مباشرة بالسلطان ، ويقوم بالاضافة الى مهماته العسكرية بمهمة ثانية هي مراقبة النائب واخلاصه للسلطان .

وكانت القوة العسكرية الموجودة في النيابة هي عبارة عن جنود نظاميين من الاكراد او الاتراك او الشركس يقيمون في مركز النيابة وفي القلاع الرئيسية المنتشرة في انحاء مناطق النيابة ، بالاضافة الى الجنود الذين يقدمهم رجال الاقطاع سنوياً لخدمة الدولة كما تنص مناشير الاقطاع ، وهم جنود الطوارىء. اما الجنود النظاميون فكان عددهم في نيابة دمشق ١٢ الف جندي وفي نيابة طرابلس اربعة آلاف ، وفي نيابة صفد الف جندي ، ويتبين من هذه الاعداد ان الثقل العسكري كان يعتمد على جنود الاقطاع . (ومثال من ذلك ان التركمان في كسروان عرضوا على المماليك ان يأخذوا اقطاع الغرب بالف جندي). ولكن الفاعلية العسكرية كانت تعتمد على الجنود النظاميين المدربين

تدريباً عالياً على مختلف الاعمال العسكرية . وكان الجنود النظاميون يوزعون على القلاع الكبرى كقلعة بعلبك وعنجر والشقيف وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وتبنين . وقد اهتم المماليك ببناء الابراج على طول الساحل اللبناني وفي الجبال المطلة عليه وشحنوها بالجنود النظامية ، (وما يزال اسم برج مستعملا في كثير من المناطق اللبنانية ، برج حمود ، برج ابو حيدر) وانشأوا كذلك على طول الساحل ابراجاً صغيرة سموها اذواق (المفرد ذوق ، مثل ذوق مكايل) وفيها قوة صغيرة من الجند دون العشرة جنود ، وكانوا يسمون هذه القوة الصغيرة بالدرك .

هذه القوى موزعة ما بين الساحل والجبل والبقاع كانت تتصل ببعضها البعض بواسطة النار والحمام الزاجل والخيل. اما واسطة النار فكانت باشعال النار في الذوق او في البرج على مرأى من البرج الآخر بطرق معينة حتى تصل الاشارة المطلوبة الى مركز النيابة حيث تصدر الاوامر المناسبة ، هذه الطريقة كانت مخصصة للاتصال الليلي . اما في النهار فكان الاعتماد على الحمام الزاجل الذي يربى في القلاع والابراج ويصدر الى مختلف الجهات المرتبطة بالنيابة . وفي كل برج او قلعة مطار او اكثر لاطلاق الحمام او لاستقبال الحمام العائد . وقد امنت هذه الطريقة سرعة عظيمة في ايصال المعلومات والتعليمات الى حيث تدعو الضرورة . اما الطريقة الثالثة فهي بواسطة بريد الخيل ، فقد نظم المماليك بريدهم تنظيماً دقيقاً واوجدوا الابدال او المحطات العديدة لتغيير الخيل المتعبة واستبدالها بخيل مرتاحة ، وكل ذلك باشراف الجيش الموزع بين الابراج والاذواق والقلاع . (ومثال من ذلك ان اخبار بيروت كانت تصل الى دمشق بواسطة الحمام الزاجل في نفس اليوم ، وكانت تصل ببريد الخيل الى القاهرة بثلاثة ايام فقط .

هذه التنظيمات والتسهيلات مكنت لدولة المماليك الاطلاع الدائم والسريع على ما يجري في انحاء المملكة . كما ان توزيعهم العسكري المرن مكنهم من التدخل في اي مكان ضد الثورات او الغزوات الخارجية بسرعة . ويمكننا القول ان تنظيمهم هذا هو الذي مكن لهم حكم البلاد العربية حوالي قرنين ونصف القرن من الزمن .

ولكن المماليك مقابل ذلك لم يهتموا بالبحر ولا بالسفن الحربية اهتمامهم بالتنظيمات العسكرية البرية ، ولم يشعروا بضرورة بناء الاساطيل الا بعد ان زاد خطر الفرنجة من قبرص ورودس اي في القرن الخامس عشر .

٤ – الروك الناصري

الروك كلمة قبطية مصرية قديمة تعني الحبل . والروك اصطلاح عرف في القرون الوسطى معناه عملية المسح وتقسيم الاراضي ودراسة خصبها وامكانياتها الزراعية او المعدنية وذلك من اجل تمكين الدولة من فرض الضرائب المناسبة والعادلة . وقد عرفت الدول القديمة مثل هذا التنظيم ولكن المماليك اشتهروا به من حيث الدقة ، وتكرار العملية من وقت الى آخر . ولقد كانت القاعدة ان تراك الاراضي كل ثلاثين سنة بسبب التغيرات التي تطرأ على الارض ، او على السكان ، او على الدولة . ولكن هذه المدة كانت تنقص او تزيد وفقاً لحاجة الدولة .

وبالنسبة الى لبنان كان الروك المهم هو الذي اجراه وامر به السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ولذلك عرف باسمه الروك الناصري .

ولقد جرت عمليات الروك في لبنان على دفعتين ، ففي سنة ١٣١٢ ميلادية كان روك البقاع وجبل لبنان الاوسط وبيروت وصيدا ، اي

ما هو تابع لنيابة دمشق ، وفي سنة ١٣١٧ كان روك الشمال التابع لنيابة طرابلس .

وقد قام بروك لبنان وبلاد الشام عالم مهنـــدس من بعلبك هو علاء الدين بن معبد احد ابناء تجار البلدة كان قد تعلم وترقى حتّى صار امير طبلخاناه عند الدولة المملوكية . (تاريخ بعلبك – الوف – ص ١٢٧). وبناء لهذا الروك الشامل ثمن ابن معبد الاراضي ومنتجاتها وقدر الضرائب وقسم المقاطعات الى وحدات اقطاعية مختلفة وحدد العبرة المفروضة للدولة والاموال العائدة للفلاحين وللاقطاعيين ، ورفعت نتائج الروك الى نظارة الجيش في دمشق ثم الى القاهرة ، حيث صدرت بها المناشير المختلفة (منشور الامير ناصر الدين الحسين) .

وبناء لعملية الروك هذه نظم المماليك سياستهم الاقطاعية ووزعت المقاطعـــات الجديدة عـــلى الأسس المستجدة ، فاستقرت الاوضاع الاقتصادية وازدهرت البلاد . وكان من نتائج هذا الروك ان عـــدد مقاطعات نيابة الشام زادت مايتي مقاطعة عما كانت عليه من قبـــل . وقيمة الروك هذا انه يبين انواع الارض من وقف او ملك او اقطاع (ملك سلطاني) وانه يبين التغيير الدائم الذي يصيب الارض سواء من حيث تحسينها باستصلاحها او من حيث انجرافها وفسادها ، وانـــه يظهر من جهة اخرى مقدار استثمارها وعمرانها او اهمالها . ويساعـــد الروك كذلك على معرفة التحركات السكانية المختلفة .

ووضّحت عملية الروك نوعية العلاقة التي كانت قائمة بين الفلاحين والاقطاعيين ، اذ كان على الفلاح ان يقدم للاقطاعي ضرائب مختلفة غير الانتاج هي من نوع الضيافة (غلة ، دجاج ، وماشية وحبوب

وكعك) ، ولكن هذه الضرائب او الهدايا المفروضة كانت تعين في اوراق الروك حتّى لا يستطيع الاقطاعيون المزيد من استغلال الفلاحين .

واعتمد المماليك نتيجة للروك المذكور على جعل المقاطعات متداخلة ببعضها البعض وموزعة حتّى لا تتركز للاقطاعي سلطة تهدد امن الدولة . فمن مراقبة مناشير الاقطاعيين التنـــوخيين في لبنان نجـــد المقاطعات متداخلة وموزعة هنا وهناك : (مثلا : عين عنوب ثلثها للامير ناصر الدين الحسين ونصفها للامير عز الدين الحسين وثلثها للامير سيف الدين مفرج ..... (تاريخ بيروت – صالح بن يحي . وربما كان النصف الوارد في النص هو الثلث حتّى تستقيم الوحدة أو أن الثلث هو الربع)

وقد اوقع الروك بعض الظلم بالنسبة الى الاقطاعيين ، فقد ذكر ان الامير ناصر الدين الحسين ، امير التنوخيين في الغرب تظلم ورفع للدولة اعتراضاً عـــلى المفروض عليه هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . المملوك الحسين بن امير الغرب ، يقبل الارض ، وينهي ان المملـــوك واقاربه ملتزمون بحفظ ثغر بيروت المحروسة ، مجتهدين في خدمة مولانا السلطان ، خلد الله ملكه – وغالب اقطاعهم الذي يخدموا عليها املاكهم الثابتة بالشرع الشريف ، وهي معهم الآن بعدة ٣٠ فارساً ، وكانت لأبهات المماليك بثلاثة ارماح الى حين اقطعت املاك الجبلية . وانه متى دخلت هذه الملكيات الروك هلكوا المماليك . وما ينتفعوا بغيرها لانها مساكنهم وبها رجالهم وعشيرتهم . وسوالهم من صدقات مولانا ملك الامراء التصدق عليهم بمطالعة على يد المملوك الى الابواب الشريفة ومهما اقتضاه راي مولانا ملك الامراء من الزامهم بزيادة عدة تحملها طاقتهم امتثلوه المماليك . وما لهم الا الله ومراحم مولانا ملك الامراء عز نصره ..... » . (تاريخ بيروت – صالح بن يحي ص ٨٦)

٥ – الانقلابات المملوكية

امتد حكم المماليك البحريين الاتراك في لبنان منذ سنة ١٢٦٠ حتى سنة ١٣٨٢ ، وتميز بفترتين . فمن سنة ١٢٦٠ حتى سنة ١٢٩١ كان الحكم مقتصراً على البقاع وبعض المناطق الجبلية. ثم بعد ذلك، وبسبب طرد الصليبيين من السواحل اصبح لبنان بكامله تحت ايدي المماليك وقد اتصف العهد المملوكي بكثرة الانقلابات ، لان كل امير من المماليك كان يحاول ان يستغل الظروف لصالحه ، لان المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة الحكم الا في حالة الاضطرار . وكانت مدة حكم بعض سلاطين المماليك اقل من سنة ، وبعضهم تسلطن ليوم واحد (بيدرا) وبعضهم حكم ثلاث مرات (السلطان الناصر بن قلاوون) .

ولم تهدأ احوال البلاد الا عندما استقر حكم الناصر بن قلاوون في المرة الثالثة فحكم اطول مدة بين امراء المماليك من سنة ١٣٠٩ الى ١٣٤١ واوجد لمن بعده حكماً وراثياً استمر حتى نهاية الدولة بانقلاب المماليك الجراكسة على يد الظاهر برقوق .

وقد ادت كثرة الانقلابات ما بين امراء المماليك الى استمرار المؤامرات السياسية بينهم ، ولذلك كان يعمد السلاطين دائماً الى تغيير الحكام، والنواب عنهم، في مختلف الولايات والنيابات للاطمئنان على السيطرة عليهم .

وبالاضافة الى ذلك كان بعض سلاطين المماليك يصلون الى الحكم وهم دون سن الرشد ، مما كان يساعد دائماً على المزيد من المؤامرات بين الامراء اصحاب الامر والنهي في الدولة .

ومن بين جميع سلاطين المماليك ، لم يعرف افضل من عهد الناصر محمد بن قلاوون بالنسبة الى لبنان .

٦ – عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وسلالته

حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات ، في المرة الاولى من سنة ١٢٩٣ الى ١٢٩٤ وكان صغيراً فعزل ثم حكم من سنة ١٢٩٨ الى سنة ١٣٠٨ وفي هذه الفترة كانت الحملات الكسروانية الشهيرة ، ثم عزل وعاد الى الحكم سنة ١٣٠٩ واستمرّ الى سنة ١٣٤١ ، وهي اطول مدة في الحكم لاي سلطان مملوكي . وفي هذه الفترة الثالثة ، وكان قد اصبح رجلا عمد السلطان الى الكثير من الاصلاحات في مملكته ، فاجرى الروك المشهور لاعادة تنظيم الاقطاع وخفف الضرائب عن كاهل الشعب ، وحارب الفساد المستشري بين الامراء وبين الناس ، وقضى على عدد كبير من الامراء اصحاب الفتن والمطامع ، واوجد قوى مملوكية خاصة به للوثوق بولائها ، وتمكن من بسط نفوذه على المزيد من البلدان حتى خطب باسمه في بغداد . ومما ساعد في جعل عهد السلطان الناصر حسناً في لبنان ان نائبه في الشام الامير تنكز الحسامي استقر في النيابة مدة ٢٨ سنة متوالية ، اي من سنة ١٣١٢ حتى سنة ١٣٤٠ . وهذا الاستقرار المزدوج في السلطنة وفي النيابة ، انعكس على استقرار آخر في اوضاع لبنان ، فقد انصرف التنوخيون الى اعمار الجبل وحماية بيروت ، كما اخذ تركمان كسروان بتطوير منطقتهم وحمايتها في السواحل ، بعد المأساة التي عرفتها اثناء الحملات الكسروانية. وازدهرت بعلبك بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم، وبدأت تظهر مقدمية الموارنة في الشمال وتتمتع بكثير من التنظيمات الخاصة بها في القضاء والتعليم ، بالاضافة الى حرية المعتقد . كما بدأت تظهر مقدمية اخرى في مشغرة على ايدي عائلة صبح ،ومقدمية غامضة

في جزين كانت نواة لنهضة شيعية كبيرة فيما بعد ، بالاضافة الى الامارة الشهابية في وادي التيم وامارة المعنيين المحدودة في الغرب . ولكن بقيت الزعامة الاقطاعية عموماً في ايدي التنوخيين .

وقد ازدهرت مدينة بيروت وانشيء فيها العديد من الحمامات العامة والمطاحن . كما حاول المماليك بناء اسطول بحري فيها ، ولكن المشروع لم يكمل واهمله المماليك بعد ذلك .

وربما كان ازدهار بيروت مرتبطاً بوضعها تحت ولاية التنوخيين ، وبسبب اهتمام النائب تنكز فيها ، اذ كان يملك فيها عدداً من مرافقها الاقتصادية (افران وحمامات) وعرف عهد تنكز الحسامي في بلاد الشام بتوفير الامن والاستقرار ، واهتمامه بالعمران . فقد اهتم ببنـــاء الجسور (بنى جسر الدامور) وببناء الجوامع والمدارس الدينية ، واوقف لها ما يلزمها من اموال ونفقات . وقد تميز عهد السلطان الناصر ونائبه تنكز في الشام بالمسحة الدينية ، اذ عرف عن السلطان وعن نائبه التقى والورع والابتعاد عن الفواحش المختلفة التي عرف بها بقية سلاطين المماليك ونوابهم ، ولكن بالاضافة الى هذا الورع فقد عرف هذا العهد بالمزيد من التعصب الديني ضد كل ما هو على غير مذاهب السنة ، ولذلك ظل الاضطهاد الديني مستمراً ، ولحق هذا الاضطهاد بالمسيحيين وباليهود الذين فرض عليهم ألبسة خاصة وعوملوا معاملة قاسية .

وبوفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٤١ ووفاة نائبـــه قبله سنة ١٣٤٠ عادت الفوضى تسيطر على اجهزة الدولة ، وعـــادت الانقلابات والمؤامرات تطغى على كل مظاهر الدولة . وقد حكم ثمانية سلاطين من صلب الناصر انتهت بهم دولة المماليك الاتراك او البحريين . وقيل عن السلطان الناصر تمييزاً عن كل سلطان مملوكي

آخر : انه سلطان وابن سلطان وابو ثمانية سلاطين من صلبه أولادا واحفاداً .

وقـــد حدث في هذا العهد عدة كوارث طبيعية هامة منها الاوبئة الطاعونية التي قضت على كثير من السكان واوجدت الخراب في الكثير من القرى والمزارع ، بالاضافة الى الزلازل وخاصة الزلزال الكبير الذي اصاب البلاد سنة ١٣٠٢ وادى الى انخساف في السواحل وغرق العديد من الجزر الصغيرة التي كانت قائمة على طول ساحل لبنان ، كما ادى الى تخريب الكثير من القلاع والابنية المختلفة . وربما ان نتائج هذا الزلزال المخيف كانت وراء اصلاح وترميم كثير من الاماكن في لبنان ، فقد رمم المماليك قلعة بعلبك وعنجر وقلاع الجنوب وقلاع الشمال بما في ذلك قلعة طرابلس. كما ان هذا الزلزال ساعد في تدهور اوضاع المـــدن الساحلية بعد ان قضت سياسة المماليك بردم الموانيء احتياطاً من غزو صليبي ، فأدى كل ذلك الى جمود التجارة الخارجية عبر البحر المتوسط .

ولكن تدهور اوضاع الساحل اسهم في تطوير المناطق الجبلية زراعياً وعمرانياً ، فاصبح تاريخ لبنان خلال العهد المملوكي ، ثم خلال العهد العثماني تاريخ الجبل وليس تاريخ الساحل . وكذلك كان الحال بالنسبة الى البقاع ، اذ نزح الكثير من السكان من السهل الى الجبال طلباً للامن والاستقرار. كل ذلك اسهم في اعمار الجبال اللبنانية .

ويستفاد مما رواه الرحالة ابن بطوطة عن مدن الساحل انها كانت متأخرة جداً ، وبعضها مثل صور كانت خراباً ، ولكن طرابلس كانت مزدهرة ، ويذكر الدمشقي الرحالة المشهور في نخبة الدهر (ص ٢٠٧) وهو معاصر لهذه الفترة ان بساتين طرابلس يسقيها نهر ابو علي.

لا مثيل لها في العالم ، ويذكر بصورة خاصة قصب السكر والجميز والحمضيات . واشتهرت طرابلس ببعض الصناعات النسيجية والسكرية. وكذلك اشتهرت بعلبك ببساتينها وصناعتها النسيجية الشهيرة المعروفة بالبعلبكي ، وهو قماش جيد كان يلبسه الاغنياء.وعرف عن السلطان الناصر انه كان يفضله على بقية الاقمشة . وكذلك عرفت بعلبك بصناعة الحلويات والدبس والحلاوة . وعرفت صيدا بصناعة الزجاج . ولكن الصناعتين البارزتين بالنسبة الى لبنان كانتا : صناعة السكر في طرابلس وبيروت وصيدا ، وصناعة الاقمشة في بعلبك وطرابلس .

اما من حيث التجارة الخارجية ، فبالاضافة الى تصدير السكر والاقمشة الى الخارج كانت بيروت وصيدا وطرابلس مراكز لتصدير الفواكه والزيت والصابون والقطن السوري الى مصر وقبرص وغيرها من البلدان.وكان من صادرات لبنان الهامة الثلج حيث كان يقوم اسطول خاص لنقله في الصيف الى مصر ، بالاضافة الى قوافل متخصصة بهذه التجارة .

* * *

الفصل السادس عشر

المماليك البرجيون الشراكسة

(١٣٨٢ — ١٥١٦)

١) صراع الترك والشركس .
٢) سلطنة الظاهر برقوق والثورات : الحركة الشيعية — الغزو الفرنجي لبيروت — الحركة المنطاشية .
٣) لبنان والغزو المغولي — تيمورلنك .
٤) انقسام المملكة المملوكية .
٥) المماليك بعد سقوط القسطنطينية .
٦) الاستقرار الاقطاعي في لبنان في القرن الخامس عشر .
٧) الحكومات الاقطاعية في لبنان خلال القرن الخامس عشر .

* * *

١ — صراع الترك والشركس

كانت كثرة الانقلابات والمؤامرات التي عرفها عهد المماليك البحريين هي نتيجة لمطامع الامراء ولصراع المماليك الاتراك مع المماليك

الشراكسة . ولقد تمكن الشراكسة من السيطرة على الحكم المملوكي خلال عهد البحريين ، ولكنهم لم يوفقوا باقامة سلطنة خاصة بهم . ثم تمكنوا من ذلك عندما اصبح سلاطين المماليك البحريين يصلون الى الحكم وهم دون سن الرشد ، فيصبحون لعبة بين ايدي الكبار ، ويغرقون في الفواحش فلا يبقى لهم سوى الاهتمام بملذاتهم الشخصية . امام هذا التدهور في حكم المماليك البحريين من نسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قام احد الامراء المماليك من الشراكسة وهو الظاهر برقوق بانقلاب على البحريين واستولى على الحكم سنة ١٣٨٢ . وبه يبتدىء حكم المماليك الشراكسة . ولكن هذا الانتقال من حكم الاتراك الى حكم الشركس لم يكن له اي تأثير في تغيير نظم الحكم . فبناء الدولة ظل على ما كان عليه ، وظلت اساليب العمل في الحكم هي نفس الاساليب السابقة . فالنظام الاقطاعي لم يتغير ، وكذلك التنظيمات العسكرية وكثرة الانقلابات وانتشار المؤامرات . لذلك يعتبر عهد المماليك البرجيين الشراكسة استمراراً للعهد السابق: عهد المماليك البحريين الاتراك .

٢ — سلطنة الظاهر برقوق والثورات : الحركة الشيعية — الغزو الفرنجي لبيروت — الحركة المنطاشية

في غمرة المنازعات والمؤامرات بين امراء المماليك الاتراك برز الظاهر برقوق الشركسي الاصل فاستولى على الحكم في مصر ، وايده نائب الشام بيدمر الخوارزمي . وبوصول برقوق الشركسي الى الحكم تكتل الامراء المماليك الاتراك في بلاد الشام ضد السلطان الجديد ، واصبحت الفترة الاولى من حكم برقوق نزاعاً متواصلا بين السلطان والامراء في بلاد الشام . وهي تمتد من سنة ١٣٨٢ إلى ١٣٨٩ . أما الفترة الثانية فتمتد من سنة ١٣٩٠ إلى ١٣٩٨ ميلادية .

فقد وقف الامراء التنوخيون الى جانب بيدمر وبرقوق بينما مال لك كسروان من التركمان ومماليك طرابلس من الاتراك ضد الحكم يد . وكانت الحركة الشيعية هي الاولى في وجه الحكم الجديد .

أ — الحركة الشيعية ١٣٨٣ : كانت الشيعة في لبنان قد ضربت بعنف سنة ١٣٠٥ اثر معارك كسروان ، ومنعت من ممارسة شعائرها الدينية ، فاعتمدت مبدأ التقية واعلنت انتماءها الى المذهب الشافعي . واستمر هذا الوضع حتى قيام الحركة الشيعية سنة ١٣٨٣ . وقد اصيبت النصيرية كذلك وفرض عليها ان تعود الى مذاهب اهل السنة ، وقد توزعت شيعة كسروان ونصيريتها في مناطق جزين والبقاع ، بالاضافة الى وجودها السابق في طرابلس وجبال الضنية . وقد اصبحت جزين مركزاً هاماً للتجمع الشيعي المستتر بالشافعية خلال القرن الرابع عشر . وبرز فيها عالم ديني كبير هو شمس الدين محمد بن مكي الجزيني فعمل على قيادة الشيعة واعادة المذهب ومحاربة المعتقدات والبدع التي سببها النزوح النصيري الى الجنوب . واضطر الى مقاتلة الخارجين عن المذهب ومنهم الشيخ محمد اليالوشي المتهم بالشعوذة وادعاء النبوة ، وجرت معركة بين الفريقين في النبطية الفوقا (معركة الشهداء) انتصر فيها شمس الدين محمد بن مكي . وحاولت الشيعة ان تحرك اتباعها في مختلف المناطق بزعامة جزين، ولكن اخصام الشيخ شمس الدين محمد بن مكي دسوا عليه وقدموا بحقه العرائض لنائب الشام بيدمر الخوارزمي ، فاعتقل وسجن مدة سنة ثم اعدم سنة ١٣٨٤ . وقد فشلت الحركة الشيعية بسبب انصراف شيعة بيروت والسواحل الى مذاهب اهل السنة،

وتأثير المعتقدات النصيرية . وفي ذلك يقول صالح بن يحي في تاريخ بيروت صفحة ١٩٥ :«لما تحركت الشيعة ببيروت،واظهروا القيام بالسنة ومعهم مرسوم سلطاني ، وكانوا في الباطن قايمين بمذهب اهل الشيعة ، فجرى في بيروت بذلك حركة رَدِيّة . »

ووصفت الشيعة المتخاذلة في السواحل بلقب « اهل السواحل المتسننين » (روضات الجنّات — الخوانساري محمد باقر — ايران صفحة ٥٩٠) وقد عرف قائد هذه الحركة محمد بن مكي بعد مقتله بلقب الشهيد الاول . وترك الشهيد الاول عدة مؤلفات اهمها اللمعة الدمشقية ، وهي كتاب ديني فقهي عن مذهب الشيعة الامامية (المذهب الجعفري) . وكان وضع هذا الكتاب بناء على طلب السلطان علي بن المؤيد في ايران لجعله دستوراً لدولته هناك . وقد اصبح هذا الكتاب فيما بعد مرجعاً رئيسياً لجميع الدراسات الشيعية الامامية. وكان من تلامذة الشهيد الاول الشيخ زين العابدين ابو الحسن علي بن بشارة العاملي الشقراوي .

لقد كان من نتائج فشل الحركة الشيعية ان برز الاقطاعيون في الجنوب وعلى رأسهم ابن بشارة الذي بدأ بعد ذلك بتحصين مدينة صور ، فقد ورد في (اللمعات البرقية في النكت التاريخية) لشمس الدين بن طولون نقلا عن ذيل العبر للاسدي ما يلي : « في رمضان من هذه السنة (٨٢٤ هـ) عمّر ابن بشارة مدينة صور ، وجعل لها اسواقاً ، ونقل اليها خلقاً من الناس وحصنها .» وكانت صور خراباً منذ زوال حكم الصليبيين اي منذ اكثر من ١٣٥ سنة .

وبزوال القيادة الدينية من جزين اصبح الاقطاع الشيعي مسيطراً في الجنوب .

ب — غزو الفرنجة لبيروت: في الفترة التي كان فيها الشهيد الاول يعمل على تنظيم الشيعة وبعثهم طائفة مستقلة تعرضت بيروت سنة ٧٨٤ (١٣٨٢) لهجوم كبير من السفن الجنوية بقصد احتلالها . وقد تمكنت قوات الجنويين من احتلال قسم من بيروت . ولكن دفاع التنوخيين والبقاعيين افسد على الجنويين خطتهم فهزموا وعادت بيروت الى حماية التنوخيين مجدداً (صالح بن يحي — تاريخ بيروت — ص ١٩٤) .

ج — الحركة المنطاشية—أو تمرد المماليك الاتراك في بلاد الشام :

كانت العلاقات قد ساءت كثيراً بين التنوخيين امراء الغرب وتركمان كسروان منذ استيلاء هؤلاء على مقاطعة كسروان اثر الحرب الكسروانية في عهد الناصر بن قلاوون (سنة ١٣٠٧) وقد حاول تركمان كسروان سنة ١٣٧٣ اخذ مقاطعات الغرب من التنوخيين بالف جندي لمساعدة المماليك على حرب قبرص ، وكاد الامر يتم للتركمان لولا ان استدرك التنوخيون امرهم وذهبوا الى القاهرة ليثبتوا اقطاعاتهم هناك . وهكذا اصبح التنوخيون في خصومة دائمة مع تركمان كسروان .

ولما اصبح برقوق سلطاناً اخلص له التنوخيون ، ووقفوا في مختلف المناسبات الى جانبه .

وقد عمد برقوق الى عزل العديد من امراء المماليك ، وتغيير إقطاعاتهم ، فتكتل ضده المماليك الاتراك بزعامة الاميرين يلبغا الناصري وتمربغا المعروف بمنطاش . وتدريجياً تمكن هذان الاميران من السيطرة الكاملة على جميع بلاد الشام ، بالرغم من محاولة بعلبك البقاء على ولائها لبرقوق . ومال تركمان كسروان

الى الحركة المنطاشية وكذلك مماليك طرابلس . اما التنوخيـون فظلوا على ولائهم للسلطان ، وكذلك فعل موارنة الشمال . وقد اورد الدويهي خبراً طريفاً هو ان السلطان برقوق ظهر يوماً في بشري متخفياً بزي غير ذي الملوك . وقد احسن وفادته شماس اسمه يعقوب بن ايوب فارسل اليه السلطان بعد ذلك بكتاب براءة حفر على لوح من النحاس عينه بموجبه مقدماً على المنطقة بكاملها .

كذلك استقبل دير قنوبين المشهور السلطان برقوق بحفاوة واكرام ، فاعفاه السلطان من دفع الضرائب المتوجبة عليه . (لبنان في التاريخ – حتي ص ٤٠٤ (وقد تكون هذه الحوادث اثناء الثورة المنطاشية المذكورة .

وقد تمكن الثائرون من المماليك الاتراك من خلع برقوق سنة ١٣٨٩ والسيطرة على الدولة .

ولكن برقوق عاد فتمكن بعد سنة من خلعه ، من استعادة مكانته والانتقام من اخصامه في معركة شقحب الشهيرة سنة ١٣٩٠ بالقرب من دمشق .

وساعد التنوخيون السلطان في هذه المعركة ، ولكنهم تعرضوا في مناطقهم لهجوم كبير شنه عليهم تركمان كسروان وحاكم بيروت ارغون المنطاشي ، فقد انتهز هؤلاء فرصة وجود التنوخيين في القتال مع برقوق في شقحب فهاجموا مناطق الغرب التنوخية وقتلوا ٩٠ نفراً منهم كما نهبوا أرزاقهم وبيوتهم وتجارتهم في بيروت . ثم عاد التركمان الكسروانيون فهاجموا مرة ثانية

قرى الغرب بعد عودة التنوخيين من شقحب فقتلوا منهم ٤٠ شخصاً . فلما عادت سيطرة برقوق وجّه من البقاع قوة بقيادة علاء الدين بن الحنش ومعه عشران البقاع بالاشتراك مع التنوخيين لتأديب تركمان كسروان فقتلوا اميرهم علي بن الاعما وقتلوا جماعة معه ونهبوا التركمان (صالح بن يحي تاريخ بيروت ص ٢١٥) وخرج التنوخيون منتصرين من هذه المحنة مع التركمان ومع المنطاشية .

اما في سائر المناطق الشامية فلم تهدأ الامور بيد برقوق الا بعد مقتل الثائر منطاش سنة ١٣٩٣ ميلادية . وقد تعرضت مختلف المناطق اللبنانية لاعمال النهب والقتل والتدمير اثناء الفتنة المنطاشية المذكورة .

ولكن الاستقرار كان بعيداً فقد وردت الانباء بتحرك العثمانيين نحو حلب ، وتحرك المغول من الشرق . وتوفي برقوق سنة ١٣٩٨ تاركاً السلطنة لابنه فرج الذي كان له من العمر اثنتا عشرة سنة فقط .

٣ – لبنان والغزو المغولي – تيمورلنك

مع وصول السلطان فرج بن برقوق الى الحكم قام نائب الشام الامير تم بثورة محاولا الاستقلال بمساعدة طرابلس وصفد وحماه وحلب . وبعد فشل الثورة بدأت جيوش المغول بقيادة تيمورلنك تجتاح البلاد سنة ١٤٠٠ . وكانت أنباء المجازر والعنف البالغ تسبق تحركات الجيوش المغولية .

مر تيمورلنك اثناء توجهه نحو دمشق ، على البقاع ، فخرج اهالي

بعلبك مستسلمين فنهبها واخذ مؤنها لجيشه وخرب قلعتها ، كما خرب عنجر ، وارسل بعض فصائله الى مدن الساحل في بيروت وطرابلس وصيدا فجمعوا له الاموال ، ولكن بدون تخريب . اما في وادي التيم فقد هرب الشهابيون من منطقتهم خوفاً من وصول المغول اليهم ، والتجأوا الى بلاد الشوف . ولكن تيمورلنك غير طريقه وانطلق في كانون اول من سنة ١٤٠٠ نحو دمشق .

وكانت ضربة دمشق على يد تيمورلنك رهيبة ، فقد اقام فيها ٨٠ يوماً كان القتل والنهب والحريق متواصلا في المدينة . ثم انسحب تيمورلنك بعد ان امر بحرق المدينة ، وقد ظهر الطاعون في البلاد . وبعد انسحاب المغول حدث غزو الجراد للبلاد . فاجتمع في نفس السنة المغول والطاعون والجراد ، فكانت تلك السنة اقسى السنين على بلاد الشام .

وعند انسحاب تيمورلنك اخذ معه كل صاحب فن ومهارة ، فجرد البلاد من طاقاتها الخلاقة بعد تجريدها من طاقاتها المادية والبشرية . ولكن المناطق اللبنانية نجت نسبياً من كارثة المغول ، لان البقاعيين وكثيراً من مناطق دمشق وحمص والبلاد الشامية عموماً هربوا الى جبال لبنان ملتجئين اليه ، فادى ذلك الى اغتناء لبنان بالقدرات والامكانيات مما فتح امامه سبيل النهضة الحديثة .

٤ — انقسام المملكة المملوكية

لم يتعظ المماليك بالمحنة التي تعرضوا لها على يد تيمورلنك ، اذ ما ان انسحب المغول من البلاد حتى عادت الفوضى التقليدية . وقد استغل الفرنجة اوضاع البلاد المتردية فوجهوا سنة ١٤٠٤ حملة بحرية كبيرة من

٤٠ سفينة على بيروت وصيدا وطرابلس ولكنها لم تتمكن من السيطرة . وعادت ادراجها . ثم وقع الخلاف ما بين كبار الامراء الشراكسة فتحزبوا ضد السلطان فرج وتمكنوا من القضاء عليه . ثم انقسمت البلاد قسمين : مصر وعليها الامير شيخ والشام وعليها الامير نوروز ، وعهد الاميران للخليفة العباسي المتوكل على الله بالسلطنة . ثم عمد الامير شيخ الى التخلص من نوروز وتسلطن منفرداً وبقي مع الفوضى في البلاد حتى سنة ١٤٢١ . وبعد سلسلة انقلابات استولى على السلطنة برسباي سنة ١٤٢٢ .

وقد تميز عهد الملك الاشرف برسباي بعملين كبيرين هما : انه اعاد الحكم المركزي ما بين مصر وسوريا بعد ان كانتا قد تجزأتا الى سلطنتين وانه قام بفتح جزيرة قبرص وانتزاعها من ايدي الصليبيين . ففي سنة ١٤٢٥ جهز برسباي اسطولا لفتح قبرص بقيادة نائب الشام الامير تغري بردي ومساعدة الامراء التنوخيين . وقد اشترك في هذه الحملة ووصفها المؤرخ صالح بن يحي مؤلف تاريخ بيروت . وكان انتصار المماليك على قبرص كاملا اذ هرب الاسطول الصليبي وسقطت الجزيرة ، واسر من الفرنجة ٣٦٠٠ جندي ، كما وقع في الاسر ملك الصليبيين في قبرص (يانوس) .

ثم عقد برسباي معاهدة مع صليبيي رودس لمنع الاعتداءات المتبادلة. كما انتصر على المملكة ذي القدرية في تركيا التي كانت تشكل خطراً دائماً على شمالي سوريا وجعلها تحت نفوذ دولة المماليك .

وقد نشطت القنصليات الاجنبية ، وخاصة الايطالية في مدن الساحل اللبناني مما ساعد على بدء الازدهار التجاري في المدن اللبنانية .

وبعد وفاة برسباي سنة ١٤٣٨ عادت الفوضى بعودة الحكام المماليك في سوريا الى الثورة على حكام مصر . وحاول الملك الظاهر جقمق تهدئة الاحوال ، فتمكن باعتماده العنف والقتل . وقد حاول صليبيو رودس سنة ٨٥٥ هـ (١٤٤٩ م) الاغارة على مدينة صور ، بعد ان كان ابن بشارة قد اعاد بناءها ونقل اليها السكان . وكانت الحملة من عشرين سفينة فنهبت المدينة . ولكن ابن بشارة عمد الى مقاتلة المهاجمين واسترجاع المدينة وامسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم (خطط الشام — محمد كرد علي — ج ٢ — ص ١٩٩) . ويعتبر عهد برسباي وجقمق من الفترات الحسنة في تاريخ المماليك الشراكسة .

٥ — المماليك بعد سقوط القسطنطينية

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ ، ومرت البلاد بموجة جديدة من الفوضى والانقلابات والمؤامرات المملوكية حتى مجيء السلطان قايتباي سنة ١٤٦٨ : فاضطربت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد حتى وصف ابن الوردي وضع بلاد الشام عموماً بقوله :

هذي امور عظام   من بعضها القلب ذائب
ما بال قطر يليه   في كل شهرين نائب

وفي الفترة ذاتها (١٤٥٣) كان العثمانيون الاتراك قد حققوا حلماً عظيماً هو احتلال السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح لمدينة القسطنطينية ، وهو حلم كان يراود كبار الخلفاء والسلاطين منذ ايام الامويين حتى ايام العثمانيين . وكان لسقوط القسطنطينية نتائج هامة منها التأثير النفسي على البلدان الاسلامية في مختلف انحاء العالم الاسلامي ،

اذ كان معنى الانتصار العثماني ان قوة جديدة ستوحد العالم الاسلامي وتقوده غير السلطنة المملوكية .

ولكن المماليك لم يتعظوا بهذا الحدث البالغ الخطورة وتابعوا مؤامراتهم وانقلاباتهم .

وزاد من مصاعب المماليك قيام دويلات قوية في شمالي سوريا والعراق منها : دولة حسن الطويل آخر ملوك الايوبيين الذي حاول استعادة شمالي سوريا . فكان على المماليك خوض الحرب ضد هذه الاخطار بالرغم من اوضاعهم المتردية . ولم يتحسن وضع المماليك الا بعد سيطرة السلطان قايتباي سنة ١٤٦٨ الذي امن نوعاً من الاستقرار بسبب طول مدة حكمه حتى سنة ١٤٩٦ .

٦ — الاستقرار الاقطاعي في لبنان في القرن الخامس عشر

بعد الغزو المغولي لبلاد الشام سنة ١٤٠٠ على يد تيمورلنك ، حدث كما رأينا سابقاً نزوح كبير من السكان الى الجبال اللبنانية طلباً للامان ، كما رافق ذلك النزوح احتماء اصحاب الكفاءات والمهن في الجبال خوفاً من المغول . فادى ذلك النزوح الى امتلاء الجبال اللبنانية . ومن جهة ثانية فان المماليك الجراكسة لم يعتمدوا نظام روك الاراضي في توزيعاتهم الاقطاعية ، وظل التقليد الاقطاعي القديم يتجدد ؛ مما ساعد على استقرار الاقطاعيين واطمئنانهم لما بين ايديهم من اقطاع . فاخذ الاقطاع يتحول الى عائلات اقطاعية مستمرة تتوارث عملها دون ان يكون هناك حق بالتوريث . وبعض الاقطاعيين كان يؤجر جزءاً من اقطاعه ، فيتحول الاقطاعي بذلك الى صاحب سلطة لانه يقوم بمهام

الدولة ، فقد اورد السيوطي وهو فقيه من اواخر الدولة المملوكية جواباً على سؤال فقهي من قبل السلطة ، وهو :

« الاقطاعات المعروفة في هذا الزمان ، انما هي اقطاعات ارفاق بمعنى استغلال لا تمليك ، وعليه ، فهل يجوز للمقطع اجارة الارض التي اقطعها له الامام اولا ؟ » وقد اجاب السيوطي بجواز اجارتها ، على ان ينفسخ عقد الايجار بموت صاحب الاقطاع ، لان الاقطاع لا ينتقل الى الوارث (النظم الاقطاعية — ابرهيم طرخان — ص ٢٣٩) وقد ادى هذا التجميد الاقطاعي الى ضائقة مالية عانت منها دولة المماليك الشركسية حتى اضطر السلطان قايتباي الى فرض ضريبة الخمس ، مرتين تأميناً لحاجات الدولة في سنتي ١٤٨٨ و١٤٨٩ على حد قول ابن اياس .

وكان من نتائج الاستقرار الاقطاعي ان تحولت العائلات الاقطاعية الى حكومات محلية مصغرة ، تتحالف وتتناحر وفقاً لمصالحها الخاصة ، وليس وفقاً لسياسة الدولة . وهذا التحول الاقطاعي هو الذي طبع العصر المملوكي الشركسي بطابعه ، وظل مستمراً فيما بعد في العهد العثماني .

وبتحول العائلات الاقطاعية الى حكومات اقطاعية مستقرة بدأت تظهر بينهم المنازعات القبلية : القيسية واليمنية ، مبتدئة من البقاع ثم منتقلة الى مختلف المناطق في الجبال اللبنانية : جبال الشوف وجبل عامل وجبل كسروان وبلاد جبيل وشمالي لبنان .

وقد تميزت هذه الحكومات الاقطاعية في لبنان عن بقية مناطق الاقطاع المملوكي بطابع طائفي لم يظهر واضحاً الا عندما حدث الاستقرار الاقطاعي في القرن الخامس عشر ، ولكن سرعان ما امتص

الصراع القيسي اليمني هذا الطابع الطائفي في اواخر القرن المذكور ليصبح اجمالا الطابع الغالب ، ويرسم الخط السياسي لتاريخ لبنان في العهد العثماني .

٧ — الحكومات الاقطاعية في لبنان خلال القرن الخامس عشر

أ — الامارة التنوخية : هي اقدم الامارات الاقطاعية في لبنان ، اذ انها تتصل حتى ايام العباسيين . وقد تمكنت من بسط نفوذها في العهد المملوكي من بيروت الى صيدا شاملة جزءاً من الشوف ، الى الغرب والمتن . ولكن الصراع بين عشائر العائلة التنوخية وانقسامها الى يمنية وقيسية اضعفها في القرن الخامس عشر ؛ مما فتح المجال امام المعنيين في الشوف للبروز مع مطلع العهد العثماني. وقد ساعد الاستقرار الاقطاعي في هذا القرن على تفسخ التنوخيين ؛ بعكس ما حدث لبقية العائلات الاقطاعية اللبنانية . كما ان التنوخيين عملوا على بعث المذهب الدرزي ؛ على يد الامير السيد التنوخي في عبيه . بعد ان توقف الضغط المملوكي عن المذاهب غير السنية . وقد كان على التنوخيين امراء الغرب التزام الدرك والمثاغرة على صيدا وبيروت وكان دركهم بثلاثة ابدال . كما كان الشأن عند بني عساف التركمان في مقاطعة كسروان (اخبار الاعيان) .

ب — الامارة العسافية التركمانية في كسروان : قدم الامراء العسافيون التركمان الى كسروان . بعد الثورات الكسروانية ؛ وجعلهم المماليك اقطاعيين في المنطقة ؛ وقد كانوا مكلفين بالدرك من حدود انطلياس على نهر الكلب الى مغارة الاسد

بالشام . فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب الا لمن يحمل ورقة الجواز من الوالي في تلك الجهات ، او من امراء الغرب من بني تنوخ . ونظم بنو عساف عملهم تنظيماً دقيقاً ، اذ قسموا انفسهم الى ثلاث فرق او ثلاثة ابدال في المصطلح ، كل فرقة او كل بدل مكون من الف فارس ، وعليه ان يقيم شهراً في الدرك بانطلياس » . (اخبار الاعيان في تاريخ لبنان – الشدياق – ج ٢ ص ٣) . وكان مركزهم الرئيسي في غزير .

وقد شجع العسافيون الموارنة من شمالي لبنان ، لاعمار كسروان بعد تخليته من سكانه الشيعة السابقين . وتدريجياً اخذ المد الماروني يتجه من شمالي لبنان نحو بلاد جبيل وكسروان .

وكان الصراع الاقطاعي يشتد بين التنوخيين الدروز والعسافيين المسلمين ، مما ادى في النهاية الى ضعف الفريقين ، وتمكين الموارنة من السيطرة على كسروان .

وعرف تركمان كسروان بلقب عشران البر ، وكانوا قد انشأوا عدداً من الاذواق (المخافر) على ساحل مقاطعتهم ، وما يزال هذا الاسم مستعملا حتى الآن (ذوق ميكايل ومصبح) .

ج – **مقدمية الموارنة في الشمال** : نشأت مقدمية الموارنة في الشمال بعد الحروب الصليبية وكان لها زعامتان : دينية وعلى رأسها بطريرك الموارنة ، وزمنية اقطاعية على رأسها المقدم . وتفيد الاخبار المارونية (الدويهي والشدياق) بان السلطان المملوكي الظاهر برقوق عين في بشري مقدماً من الموارنة ، كان قد خدمه ، وهو المقدم يعقوب بن ايوب وكتب له بذلك صحيفة

نحاسية ، كما انه اعفى ممتلكات دير قنوبين بترك الاموال الاميرية بموجب صحيفة نحاسية كذلك .

وقد توسع الموارنة بنزوحهم جنوباً نحو بلاد جبيل وكسروان، ولكن في القرن الخامس عشر تعرض هذا النزوح الى تجميد مؤقت بسبب انتشار القبائل الشيعية الحمادية في بلاد جبيل والمنيطرة وجبة بشري والبترون ، وانعكس ذلك على التغيير الدائم لمركز البطريركية المارونية. وفي منتصف القرن اي في سنة (١٤٤٠) تركز الاتصال الديني بين الموارنة والسلطة البابوية في روما ، عندما ثبّت البابا البطريرك الماروني يوحنا الجاجي . وصار هذا التثبيت تقليداً مستمراً عند بطاركة الموارنة .

ونتيجة لهذا الاتصال الماروني بعاصمة الكثلكة في العالم، انشأ البابا في ما بعد مدرسة لاهوتية في روما عرفت باسم مدرسة الموارنة، وذلك في اواخر القرن السادس عشر . وكان للموارنة في شمالي لبنان وضع خاص اقرته لهم الدولة وحافظت عليه النيابة في طرابلس، وكانت لغتهم السريانية بالاضافة الى العربية . وقد اشار الدويهي في اخبار سنة ٨٧٦ هـ (١٤٦٨) الى وضع الموارنة فقال : « ومن اخبار هذا العصر يستدل على ان في دولة المقدمين واحكامهم العادلة توفرت الراحة لاهل لبنان ، وكثرت عندهم المدارس والكنائس . »

وكان قد نزح الى قبرص اثر انهيار الحكم الصليبي عدة آلاف من الموارنة ، فتحولوا مع الزمن الى جالية ، لها اسقفيتها المارونية الخاصة . وبصورة عامة استفاد الموارنة من صراعات الاقطاعيين

حولهم ، بالتوسع والتملك ، فاصبحوا ، في مطلع العهد العثماني بعد المماليك ، مشايخ واقطاعيين في كسروان وبلاد جبيل والجبال الشمالية .

د ـ المشايخ الحمادية الشيعة: برز المشايخ الحمادية الشيعة في القرن الخامس عشر ، وتمكنوا من الحصول على العديد من المقاطعات الممتدة من سفوح صنين الشمالية الى جبة بشري في الشمال ، بما في ذلك بلاد جبيل والكورة والبترون وبعلبك ووصلت مقاطعاتهم الى الضنية . وكان بينهم وبين الموارنة تنافس دائم على ملأ الفراغات البشرية في المناطق الجبلية التي نجمت في القرن الرابع عشر عن تشتيت الشيعة والنصيرية . كما انهم كانوا في تصادم مستمر مع بني عساف اقطاعيي كسروان .

هـ ـ امراء بعلبك والبقاع : اعتبرت بعلبك مركز نيابة ، اثناء غزوة تيمورلنك على بلاد الشام ، ولكن سرعان ما عاد المماليك فضموا المنطقة الى نيابة الشام . وكانت العائلات الاقطاعية في البقاع هي : بنو الاعمى وبنو صبح وبنو حرفوش . وفي اواخر القرن الخامس عشر برز الامير ناصر الدين ابن الحنش ليلعب دوراً كبيراً بعد ان جمع البقاعين وصيدا واصبح اقوى امير في لبنان في آخر العهد المملوكي. وقد تأخرت بعلبك كثيراً عما كانت عليه ، بسبب غزوة تيمورلنك والزلازل والفيضان الخطير الذي كان قد اصابها سنة ٧١٧ هـ (١٣١٧ م) ويذكر ان ٨٩٥ بيتاً ضربت و٤٥٠ بيتاً اختلت ، ومن الحوانيت ١٣١ ومن البساتين ٤٤ ومن المدارس والمساجد ١٣ ومن الافران ١٧ ومن الطواحين ١١ . (تاريخ بعلبك ـ مخايل الوف ـ ص ٨٥) ان هذه الاحصائية

تدل بوضوح على الخسارة الهائلة التي اصابت المدينة ، كما تدل على المستوى الذي كانت عليه . وقد ادى تأخر بعلبك الى نزوح كبير من السكان منها الى رأس بعلبك والى زحلة والى جبال لبنان الغربية .

و ـ امراء بني سيفا في عكار : ينتسبون الى المقدم جمال الدين الملقب بسيفا ، وهو احد المماليك الجراكسة ، وهو من عائلة كردية الاصل ، استلموا الاقطاع في عكار في اواخر القرن الخامس عشر ، واستمروا في عكار وطرابلس حتى كانت نهايتهم على يد الامير فخر الدين المعني الكبير .

ز ـ الامارة المعنية في الشوف: تمكن المعنيون من الاحتفاظ بامارتهم الشوفية منذ ايام الصليبيين ؛ وكانوا دائماً على صلة ووفاق مع الشهابيين في وادي التيم . ولكنهم لم يبرزوا في زعامة البلاد ، باعتبار ان التنوخيين امراء الغرب كانوا يحتلون مركز الصدارة في الجبال اللبنانية . وفي القرن الخامس عشر زادت اوصر العلاقة بين الشهابيين والمعنيين بالتزاوج . وتدخل الامير يوسف المعني سنة ١٤٧١ لمساعدة ابن اخته الامير علي الشهابي ضد الامير بكر الشهابي عم الامير علي . وادى ذلك التدخل الى توحيد الشهابيين وتقوية المعنيين في الوقت ذاته . ولعل هذا العمل هو الذي ساعد الامير فخر الدين عثمان المعني ابن شقيق الامير يوسف على البروز في ما بعد ، في مطلع العهد العثماني .

ح ـ الامارة الشهابية في وادي التيم : كان الخلاف مستمراً بين الامراء الشهابيين في منطقة وادي التيم وخاصة بين اقطاعيي راشيا الوادي واقطاعيي حاصبيا . كما كان الخلاف مستمراً بين

الشهابيين وبقيـة اقطاعيي البقاع كابناء صبح وابناء الاعمـى ومقــدمي مشغرة ، بينما كان الاتفاق دائمــاً بين الشهابيين والمعنيين .

ط ـ مقدمية جزين الشيعية : كانت في بدء العصر المملوكي مركزاً دينياً شيعياً هاماً ، ويعتبر القرن الرابع عشر عصرها الذهبي وقد ازداد سكانها في هذا القرن بعد نزوح الكسروانيين الشيعة اليهـا (بعد معارك كسروان سنة ١٣٠٥ و١٣٠٧) وحاول الجزينيون الثورة في مطلع العهد المملوكي الجركسي ضد برقوق بقيادة الشهيـد الاول محمد بن مكي . وبفشل الثورة المذكورة اخذت الزعامة الشيعية تنتقل الى الجنوب ، كما اخذت جزين تـدريجياً تقع تحت السيطرة الدرزية المعنية ثم تصبح في العصر الحديث تحت السيطرة المسيحية . وكانت مقدمية جزين الشيعيـة متحالفة مع مقدمية مشغرة الشيعية بزعامة بني صبح .

ي ـ امارة بني بشارة الشيعية في الجنوب : يعرف القسم الجنوبي من جبل لبنان باسم بلاد بشارة نسبة الى عائلة اقطاعية تولت المنطقة مدة طويلة حتى مطلع القرن السادس عشر . وعائلة بشارة الحاكمة ليست واضحة الاصل ، ويظن انها تنتسب للامير حسام الدين بشارة الذي حارب مع صلاح الدين في القرن الثاني عشر . ولا يعرف شيء عن حكم هذه العائلة خلال القرن الرابع عشر . ويعتقد ان مقدمية جزين كانت هي المسيطرة، وخاصة ان الشيخ زين العابدين ابا الحسن علي بن بشارة كان من تلامذة الشهيـد الاول زعيم الشيعـة في جزين . ولـما فشلت حركة الشهيد الاول محمد بن مكي ، بدأ يظهر نفوذ عائلـة ابن بشارة . وتذكر اخبار سنتي ٨١٠ و٨١١ هـ (١٤٠٥ م) ان اولاد ابن بشارة محمد وحسن وحسين كان لهم دور في النزاع المحلي

بين الامراء المماليك وخاصة شيخ ونوروز . ثم ان احمد بن بشارة عمّر صور بعد خرابها ، وجعل لها اسواقاً ونقل اليها من الناس وحصنها وذلك سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢٠م) (ذيل العبر ـ الاسدي نقلا عن اللمعات البرقية في النكت التاريخية لشمس الدين ابن طولون) . وتدريجياً تمكن ابن بشارة من ان يصل الى درجة اقطاعية كبيرة وهي مقدم العشير بالبلاد الشامية . وتذكر اخبار سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥٠ م) «ان زهاء ٢٠ مركباً للفرنج طرقـوا صور ، ونهبوا من بها ، فادركهم ابن بشارة مقدم العشير بالبلاد الشامية . وقاتلهم قتالا شديداً حتى ازاحهم من البلد ، بعـد ان قتل من الفريقين جماعة . وامسك من الفرنج جماعة وقطـع رؤوسهم» (خطط الشام ـ محمد كرد علي ج ٢ ص ١٩٩) . وتشير الاخبار الى استقرار الحكم الاقطاعي في ظل هذه العائلة . وظلت هذه العائلة الاقطاعية الشيعية في الجنوب مسيطرة حـى سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠١ م) عندما اصطدمت بامير بقاعي قوي هو الامير ناصر الدين بن الحنش فقد جهز هذا الامير خمسة آلاف مقاتل وهاجم عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين ، فقتل من جماعة ابن حنش نحو ٢٠٠ رجل » (خطط الشام) . وينتهي دور هذه العائلة الاقطاعية الشيعية مع الفتح العثماني نهاية غامضة، ليبدأ بعدها دور التفسخ الاقطاعي في لبنان الجنوبي ، بالرغم من بقاء اسم العائلة اسماً للمنطقة الواقعة جنوبي نهر الليطاني في الجنوب (بلاد بشارة)

ك ـ وضع المدن الساحلية في القرن الخامس عشر : بسبـب سياسة الدولة المملوكية تجاه التخوف الدائم من غزوات الفرنج ،

فان المدن الساحلية لم تنهض وتتحسن كما كان الامر بالنسبة الى المناطق الجبلية والداخلية من لبنان . وفي القرن الخامس عشر ، مع دولة الجراكسة المماليك ، خف الحذر المملوكي بعد سقوط قبرص في ايدي المماليك . فاخذت التجارة تعود تدريجياً الى شيء من الازدهار ، واخذت الطريق الدولية بين اوروبا (ايطاليا خاصة) وبين الشرق تعود الى لبنان بكثير من الحذر ، بالرغم من أن الطريق الرئيسية المذكورة ظلت بين اوروبا والشرق الاقصى تمرّ عبر روسيا والتركستان .

وبعد ان كانت صور خراباً لمدة طويلة بعد الصليبيين ، اخذت تعمر على ايدي اقطاعيي الجنوب ابناء بشارة ، اما صيدا التي كانت خاضعة مباشرة للحكم المملوكي وليس للحكم الاقطاعي فانها كانت تنافس بيروت من حيث التجارة مع دمشق . واما بيروت فبالرغم من وجود حاكم مملوكي فانها كانت تحت رقابة التنوخيين في بعض الاحيان ، وتحت رقابة الامراء العسافيين ، امراء الاقطاع في كسروان في احيان كثيرة اخرى .

واما جبيل والبترون فبقيتا قريتين متأخرتين بعد ازدهارهما ايام الصليبيين .

ويخرج عن قاعدة التأخر هذه وضع طرابلس ، لأنها كانت مركز نيابة ، فتمكنت من ان تستعيد مكانتها التقليدية القديمة ، ولكن ليس الى مستواها ايام الصليبيين او ايام بني عمار . ويذكر رحالة القرن الخامس عشر انه كان فيها ١٢٠٠ حائك يصبغون الانسجة الحريرية والمخملية بينما كان فيها اكثر من ٤٠٠٠ حائك في العهد الصليبي . وبقيت طرابلس مركزاً رئيسياً لتصدير السكر.

وكان وراء تحسين المدن الساحلية اللبنانية بالدرجة الاولى تلك الامتيازات التجارية التي منحها المماليك للتجار الطليان وخاصة تجار البندقية . كما اسهمت الحرية التي اعطيت للحجاج المسيحيين في تحسين اوضاع المدن الساحلية المذكورة .

ل – لبنان وبذور النهضة الفكرية : لم يكن المماليك ، كما قلنا ، على شيء من العلم والثقافة ، اذ كان اهتمامهم الرئيسي منصباً على تنظيم الجيوش وتحويل دولتهم الى دولة عسكرية محاربة . كما انهم كانوا لا يحسنون اللغة العربية ، وبعضهم كان امياً تماماً . ولكن المماليك عوضوا عن ضعفهم الثقافي بتشجيع العمران وانشاء المدارس الدينية والجوامع . فاوقفوا عليها الوقوف العديدة لتمكينها من الاستمرار .

وظهر الاهتمام المملوكي من حيث الجوامع والمدارس في المدن وليس في القرى والجبال اللبنانية . وما يزال في صيدا وبيروت وطرابلس وبعلبك العديد من هذه الآثار ، واكثريتها موجودة في طرابلس باعتبارها مركز نيابة . كما ان الاسواق القديمة المتبقية ما تزال شاهدة على اثر الفن المملوكي في صيدا وطرابلس.

واهتمت، بالاضافة الى ذلك، الطوائف اللبنانية بمدارسها الدينية الخاصة . فظهر العديد من المدارس الشيعية في الكرك ومشغرة وجزين وميس الجبل التي اعطت عدداً كبيراً من العلماء . ويعود لهؤلاء العلماء الفضل في النهضة الايرانية في العهد الصفوي . كما ان الموارنة انشأوا العديد من المدارس او الكتاتيب الملحقة

بالكنائس والاديرة . وفي اواسط القرن الخامس عشر اوجد الامير السيد عبد الله التنوخي حركة علمية ودينية في الوسط الدرزي متخذاً من بلدة عبيه مركزاً له . وفي هذه البلدة ما يزال ضريحه مقاماً للزيارة من قبل القرى الدرزية المجاورة .

• • •

الفصل السابع عشر

لبنان بين المماليك والعثمانيين

١) امارة ناصر الدين محمد بن الحنش .
٢) اللبنانيون في معركة مرج دابق .
٣) بروز العائلة المعنية .
٤) معالم المرحلة الانتقالية من المماليك الى العثمانيين .
٥) خاتمة .

* * *

١ – امارة ناصر الدين محمد بن الحنش

في اواخر القرن الخامس عشر . برز في البقاع الامير ناصر الدين بن محمد بن الحنش واصبح مقدماً على مختلف المناطق البقاعية ، وعرف بشيخ العرب . وقد وقعت بين الامير ناصر الدين ونائب الشام قانصوه المحمدي عدة معارك سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٧ م) اضطر الامير على اثرها الى الهرب . ثم عاد بعد ذلك الى مقاطعته البقاعية مستغلا تغيير النائب في دمشق ، فبدأ بالتوسع نحو الجنوب ، اذ هاجم سنة ٩٠٩ هـ

(١٥٠٤ م) امير الجنوب عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين بخمسة آلاف مقاتل . ويبدو ان هذه المعركة كانت لها نتائج هامة بالنسبة الى الفريقين ، فبالرغم من مقتل ٢٠٠ شخص من جماعة ابن الحنش ، تمكن الامير المذكور من السيطرة على الجنوب واصبح معروفاً بعد ذلك بلقب امير صيدا والبقاعين وشيخ الاعراب او شيخ العرب . ومن ناحية ثانية انقرضت عائلة بشارة من حكمها الاقطاعي في الجنوب ، بعد ان ظلت مسيطرة في المنطقة اكثر من قرن من الزمن واعطت اسمها للمنطقة الواقعة جنوبي نهر الليطاني (بلاد بشارة) وما تزال معروفة بهذا الاسم الى وقتنا الحاضر .

وبهذا الانتصار للامير ناصر الدين بن الحنش تزعم الامراء التنوخيين والمعنيين ، وقويت بذلك العصبية اليمنية التي كان الامير ناصر الدين يعتمدها . ثم امتدت سلطته الى بلاد حماة فعرف بلقب أمير عربان حماة وحمص (بدائع الزهور — ابن اياس — ج ٥ — ص ١٠٦) .

ولما وقعت الحرب بين المماليك والعثمانيين وانهزمت القوات المملوكية جعله السلطان المملوكي طومان باي مسؤولا عن الشام لانه لم يتحالف مع العثمانيين . وبالفعل فقد صد الامير ناصر الدين قوات العثمانيين في القابون لمدة ثلاثة ايام قبل دخولهم دمشق ،ومكافأة له رشح ليكون أتابكاً على دمشق . ولكن بعد هزيمة المماليك استسلم الامير ناصر الدين للسلطان سليم فابقاه في مركزه الأساسي اميراً على صيدا والبقاعين (ابن اياس — بدائع الزهور — ج ٥ ص ١١٧) .

ولما استتب الامر للعثمانيين في سوريا ومصر ، واثر تعيين السلطان سليم لجان بردى الغزالي نائباً للسلطان على الشام ، خرج الامير ناصر الدين عن طاعة العثمانيين سنة ١٥١٦ وهرب . وقد اتهم في هذا العصيان مع الامير ناصر الدين الامراء زين الدين وقرقماز وعلم الدين سليمان المعنيين بالاضافة الى الامير شرف الدين التنوخي على انهم من حزبه .

فحاربهم جان بردى الغزالي واعتقلهم في صيدا ثم ارسلهم بحراً الى صور ، ثم الى قلعة صفد ثم الى قلعة دمشق . وقتل جان بردى الغزالي الامير ناصر الدين وقطع رأسه وارسله مع الامراء المعتقلين الى حلب حيث كان السلطان سليم موجوداً . فعفا السلطان عن الامراء وأعادهم الى بلادهم . اما عائلة الحنش فقد انهارت تجربتها بانشاء امارة لبنانية كبيرة بسبب حزبيتها اليمنية ، وانقلاب العائلات القيسية عليها ، ثم تحولت الى عائلة اقطاعية صغيرة في فتقا (منطقة جبيل) حتى كانت سنة ١٥٤١ اذ تآمر الامراء اولاد الحنش مع المقدم ميكائيل والي الذوق على قتل الامير منصور العسافي في غزير ، ولكن الامير منصوراً المذكور تمكن من قتل الجميع . وبذلك انقرضت هذه العائلة الاقطاعية (اخبار الاعيان ج ١ ص ٤٩).

٢ — اللبنانيون في معركة مرج دابق

عندما توجه السلطان المملوكي قانصوه الغوري من مصر الى سوريا ، لمحاربة السلطان سليم العثماني القادم من تركيا ، مر في دمشق واستقبل هناك المقدم ناصر الدين بن الحنش وقبل منه الهدايا الكثيرة (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان — ابن طولون — القسم الثاني ص ١٩) . وكان النائب على الشام هو سيباي والنائب على حماه هو جان بردى الغزالي والنائب في حلب هو خاير بك . وتوجه الامراء اللبنانيون مع السلطان المملوكي ونوابه لمحاربة العثمانيين .

وفي مرج دابق ، شمالي حلب ، وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين. وكان العثمانيون يعتمدون عل سلاح المدفعية بينما كان المماليك يعتمدون على سلاح الخيالة . وتمكن العثمانيون سراً من استمالة النائبين جان بردى الغزالي وخاير بك . فلما وقعت المعركة ، وكانت في البدء تدور لصالح المماليك ، انضم الى صفوف العثمانيين النائبان المذكوران ومعهما عدد

من الامراء اللبنانيين مما اثر على سير المعركة وجعلها تميل في النهايـة لصالح العثمانيين .

وقد وصف الشدياق في اخبار الاعيان (ج ٢ ص ٣٠٤) هـذه المعركة بقوله :

« وسنة ١٥١٥ كانت وقعة مرج دابق بين السلطان سليم خان العثماني والملك الاشرف قانصوه الغوري الجركسي . وكان جان بردى الغزالي وخاير بك الجركسيان ازمعا على خيانة مولاهما لوحشة بينهم وراسلا السلطان سليماً . وكان الامير جمال الدين وجماعة من امراء لبنان الا بني كرامة التنوخيين يميلون الى الغزالي . فلما تقابل الجيش بالجيش اخذ الغزالي الامير جمال الدين والامراء بجملة اعوانه وفر مع رفيقه خاير بك الى معسكر السلطان . ولم يبطيء الامر حتى قتل الغوري ، وتشتت جنده . ولما تم للسلطان ولاية البلاد الشامية ، وولي الغزالي عليها، ولي الامير جمال الدين بلاد الغرب والمتن والجرد والامير قرقماز المعني الشوف والامير عساف التركماني كسروان ، فرجعوا الى بلادهم.

ثم لما نبذ ابن الحنش طاعة السلطان ، وقدم الغزالي لقتاله ، التقـاه الامير جمال الدين برجاله ، فاستولى الغزالي على صيدا ، وفر ابن الحنش ، ونهض الغزالي والامير الى الشوف وقبض على بني معن والامير شرف الدين يحي التنوخي ليميلهم الى ابن الحنش . واضاف للامير (جمال الدين) الشوف وجعله اميراً على جبل لبنان الجنوبي . ثم ذهب الامير فخر الدين المعني الى السلطان في دمشق ، فولاه الشوف . ومن ثم وقعت النفرة بين الامير جمال الدين والامير فخر الدين . ودعا بنو معن انفسهم قيسية ، لان الامير جمال الدين واصحابه يمنيون . واشتد الامر بين الفريقين » .

٣ - بروز العائلة المعنية

العائلة المعنية عائلـة اقطاعية قوية كان نفوذها منذ عهد الايوبيين منحصراً في الشوف ، بينما كانت الزعامة الاقطاعية في ايدي العائلـة التنوخية . وقد نشأت روابط وثيقة بين المعنيين في الشوف والشهابيين في وادي التيم (منطقتي راشيا وحاصبيا) بسبب المصاهرة بينهمـا . وبسبب هذه الروابط كان للمعنيين تدخل دائم في البقاع ووادي التيم لمساعدة الشهابيين في صراعاتهم الاقطاعية .

وقد برز من بين المعنيين الامير فخر الدين المعني بن الامير عثمـان المعني منذ الربع الاخير من القرن الخامس عشر . ولما جرت المعركـة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين في مرج دابق سنة ١٥١٥ كان الامير فخر الدين المذكور من بين الامراء الذين مالوا مع جان بردى الغزالي الى العثمانيين وسببوا هزيمة المماليك وتحطيم حلم الأمير ناصر الدين الحنش في بناء إمارة كبيرة .

وقد ذكر ان الامير فخر الدين بن عثمان المعني القى خطبة في دمشق بعد اكتمال النصر للسلطان سليم مجد فيها السلطان ودعا له . وان السلطان جعله بعد ذلك مقدماً على سائر الامراء والاقطاعيين في جبل لبنان . وقيل ان السلطان اعطاه لقب سلطان البر .

اما الخطبة المنسوبة اليه فهي :

« اللهم ادم دوام من اخترته لملكك ، وجعلته خليفة عهدك ، وسلطته على عبادك وارضك ، وقلدته سنتك وفرضك ، ناصر الشريعة النيرة الغراء ، وقائد الامة الطاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين الامـام العادل ، والذكي الفاضل الذي بيده أزمّة الامر بادشاه ، ادام الله بقاءه، وفي العز الدائم ابقاه ، وخلد في الدنيا مجده ونعماه ، ورفع الى القيامـة

طالع سعده ، وبلغه مأموله وقصده ... اعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتمهيد ... آمين . »

هذه الخطبـــة مشكوك بصحتها لانها تتضمن اشارة واضحـــة الى موضوع الخلافة العثمانية والامامة الدينية . والامر المعروف ان السلطان لم يعلن نفسه خليفة . وان الخليفة المتوكل على الله كان معه واخذه اثناء عودته الى الاستانة . ويشك بصحة هذه الخطبة كذلك من جهة اسلوبها، كما يشك باللقب الذي انتسبه المعنيون وهو تلقيب السلطان العثماني للامير فخر الدين بلقب سلطان البر .

لقد ساعدت الظروف هذا الامير ، فبعد ان ثبت في امارتـــه في الشوف ، خرج الامير ناصر الدين بن الحنش ومعه امراء من التنوخيين والمعنيين بالعصيان على العثمانيين ، ونادوا بشعار اليمنية . ولكن هزيمة الامير ناصر الدين ومقتله ، وغضب العثمانيين على الذين ساعدوه ، ادى كل ذلك الى زوال الزعامة التنوخية اليمنية من لبنان والى بروز زعامة جديدة قيسية قائمة على تحالف المعنيين الشهابيين .

قال الشدياق في اخبار الاعيان (ج ١ ص ٢٩٢) عن الامير فخر الدين بن عثمان المعني : « هو اشهر الامراء المعنيين وبه غابت شمس الامارة التنوخية واشرقت شمس الامارة المعنية . »

وقد قاد هـذا التحالف المعني الشهابي سياسة لبنان الى مدة طويلة من الزمن ، اي حوالي ثلاثة قرون ، كما فرض هذا التحالف الى حد كبير الخطوط الرئيسية العامة لتاريخ لبنان الحديث .

٤ – معالم المرحلة الانتقالية من المماليك الى العثمانيين

منذ مطلع القرن السادس عشر أي منذ سقوط دولة المماليك وقيام الدولة العثمانية واستقرارها في بلاد الشام ، عرف لبنان ، والمنطقة كـذلك تغيـّرات عديدة ، كان لها اهمية كبرى في رسم الخط التاريخي لحكم العثمانيين في لبنان . واهم هذه التغيرات :

اولاً : التوقف عن اعتماد اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، واعتماد اللغة التركية محلها . وقد دعا هذا الامر الخطير الى تيقظ العرب والبدء البطيء باحياء التراث العربي . وكان لبنان سبّاقاً في هـذا المضمار .

ثانياً : ضعف الرقابة الرسمية العثمانية بسبب ابتعـاد العاصمة (الاستانة) عن البلاد العربية ، مما شجع الاقطاع على ترسيخ جذوره في البلاد ، وتحوله من اقطاع تعييني تديره الدولة ، كما كان في العهد المملوكي ، الى اقطاع وراثي . فتحول الاقطاع بذلك من اسلوب تطويري للزراعة الى اسلوب تجميد أخرّ الزراعة وأرهق الفلاحين واستثمرهم اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً أبشع استغلال .

ثالثاً : تدهور اوضاع المقدمين الموارنة في الشمال بسبـب طغيانهم ، وبروز الدور الفعال لرجال الدين الموارنة في خدمة المجتمع الماروني ، نظراً للصلة الوثيقة ما بين هؤلاء وعامة الشعب.

رابعاً : زوال الامارة التنوخية بعد حكم مستمر من اوائـل العهد العباسي الى نهاية العهد المملوكي ، اي ما يقارب ثمانية قرون من الزمن ، وقيام الامارة المعنية .

خامساً : زوال امارة بني بشارة في الجنوب ، بعد حكمهم الاقطاعي للبلاد اكثر من قرن، وظهور العائلة الوائلية التي منها بنو علي الصغير .

سادساً : الضعف العام الذي منيت به الحزبية اليمنية ، بعد محاولتها السيطرة على لبنان بزعامة الامير ناصر الدين محمد بن الحنش، وانفتاح الظروف المؤاتية امام الحزبية القيسية بزعامة المعنيين ثم الشهابيين .

سابعاً : الاستيطان الكثيف لمنطقة كسروان ، بعد أن بدأت الهجرة اليه من مختلف الطوائف والمناطق وحول هذا الاستيطان قال الشدياق في اخبار الاعيان (ج ١ ص ٢٥٨) :

« وفي سنة ١٥١٥ لما قبض السلطان سليم العثماني على قانصوه الغوري ملك مصر والشام وقتله ، ووجدت الراحة في لبنان ، قدمت الناس الى لبنان من كل جانب . وكان ذلك في ايام ولاية الامير عساف التركماني في كسروان وبلاد جبيل . فقدمت المتاولة من بلاد بعلبك واخذوا السكن بكسروان في فاريا وحراجل وبقعاتا المعروفة الآن ببقعاتا كنعان . وقدمت الاسلام من البقاع واخذوا السكن في فتقا وساحل علما وفيطرون وفقيع اي القليعات وعرمون الجديدة . وقدمت الدروز من المتن والجرد واخذوا السكن في برمانا ومزارع كسروان . وقدمت النصارى المتشتتون من بلاد طرابلس واخذوا السكن في عرمون وكفور الفتوح. وفيها قدم الشيخ حبيش من يانوح الى غزير ... »

ثامناً : الانفتاح العثماني على الغرب وخاصة على فرنسا ، وتأثير ذلك على انفتاح المسيحيين على السياسة العامة في لبنان ،

وبدء التفاعل الايجابي بين الطوائف اللبنانية الذي تمثل في الحكم المعني ، بعكس العهد المملوكي الذي كان يتمثل في ضعف التفاعل ما بين الطوائف .

٥ — خاتمة

ان تسعة قرون من الزمن مرت على لبنان منذ الفتح العربي الاسلامي حتى الفتح العثماني (٦٣٥ — ١٥١٦) تكونت خلالها الطوائف المعروفة حالياً في لبنان . وبالرغم من الظروف المختلفة والمتناقضة التي عرفها لبنان خلال هذه الفترة الطويلة ، والتي تنقلت من الازدهار الى الركود ومن التسامح الى الاضطهاد ، فان هذا الزمن الطويل لم يعمل ولم يساعد على ازالة التناقضات الطائفية . لذلك كان تاريخ لبنان الوسيط هو تاريخ طوائفه المختلفة .

ولعل عمق الطائفية في لبنان مرتبط ليس بقوة المذاهب الدينية فحسب ، بل يرتبط بمفاهيم قومية خفية ومختلفة ومختبئة خلف المذاهب المذكورة . وكذلك فان انحصار الطوائف في مناطق جغرافية خاصة بها ، ساعد على تكوين مجتمعات خاصة كانوا يسمونها سابقاً بالشعوب كالقول بالشعب الدرزي والشعب الماروني. وتاريخ هذا التجاور الطوائفي بتقاربه وبتباعده عبر التسعة قرون من الزمن كوّن تاريخ لبنان الوسيط.

فهرس الاعلام

فهرس

الأماكن والبلدان والمدن والقرى

فهرس

الشعوب والقبائل والفرق والطوائف

المصادر والمراجع

اسم الكتاب	المؤلف	الناشر	المكان	السنة
ابن تيمية	محمد ابو زهرة	دار الفكر العربي		١٩٥٨
ابعاد التاريخ اللبناني الحديث	نقولا زيادة	معهد البحوث والدراسات العربية	القاهرة	١٩٧٢
اخبار الاعيان في تاريخ لبنان	الشدياق	مكتبة العرفان	بيروت	١٩٥٤
اشتراكية الاسلام	مصطفى السباعي			١٩٦٠
اصدق ما كان عن تاريخ لبنان	فيليب دي طرازي		بيروت	١٩٤٨
اصل الموحدين الدروز واصولهم	امين طليع	دار الاندلس		١٩٦١
امل الآمل	الحر العاملي تحقيق احمد الحسيني	مكتبة الاندلس	بغداد	١٩٦٥
آراء وابحاث	اسد رستم	منشورات الجامعة اللبنانية		١٩٦٧

بدائع الزهور في وقائع الدهور	ابن اياس	دار احياء الكتب العربية	القاهرة	١٩٦١
البابكية	حسين قاسم العزيز	مكتبة النهضة ودار الفارابي	بغداد بيروت	١٩٦٦
تاريخ لبنان الحديث	كمال الصليبي	دار النهار		١٩٦٧
تاريخ بيروت	صالح بن يحي تحقيق هورسو الصليبي	دار المشرق		١٩٦٩
تاريخ بعلبك	ميخائيل الوف	المطبعة الادبية	بيروت	١٩٢٦
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين	فيليب حتّي	دار الثقافة	بيروت	١٩٥٠
تاريخ العرب (مطول)	فيليب حتّي	دار الكشاف للنشر والتوزيع	بيروت	١٩٥٢
تاريخ الرسل والملوك	الطبري	دار المعارف بمصر		١٩٦٧
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)		دار الكتاب اللبناني	بيروت	١٩٥٩
تاريخ العرب قبل الاسلام	جواد علي	مطبعة التفيض	بغداد	١٩٥٢

تاريخ الشعوب الاسلامية	بروكلمان	دار العلم للملايين		١٩٦٥
تاريخ التمدن الاسلامي	جرجي زيدان	دار الهلال	مصر	
تاريخ لبنان العام	يوسف مزهر		بيروت	١٩٥٦
تاريخ الموارنة	الاب بطرس ضو	دار النهار للنشر (ثلاثة أجزاء)		١٩٧٠
تاريخ جبل عامل	محمد جابر آل صفا	دار متن اللغة	بيروت	١٩٦٣
تتمة المختصر في اخبار البشر	ابن الوردي	دار المعرفة	بيروت	
التنبيه والاشراف	المسعودي	دار التراث	بيروت	١٩٦٨
تشريف الايام والعصور	ابن الظاهر	وزارة الثقافة والارشاد	القاهرة	١٩٦١
تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار	الأب لامنس	المطبعة الكاثوليكية	بيروت	١٩١٤
ثورة الزنج	احمد علبي	مكتبة الحياة	بيروت	١٩٦١
الحركات في لبنان	عارف ابو شقرا		بيروت	١٩٥٢
الحركة الصليبية	سعيد عاشور	مكتبة الانجلو المصرية	القاهرة	١٩٦٣

الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية	محمد عبد الله عنان	مؤسسة الخانجي	القاهرة	١٩٥٩
الحضارة البيزنطية	ستيفن رنسمان ترجمة عبد العزيز جاويد	ادارة الثقافة العامة	القاهرة	١٩٦١
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب	محمد العروسي المطوي	دار الكتب الشرقية	تونس	١٩٥٤
حضارة العرب	غوستاف لوبون ترجمة زعيتر طبعة رابعة	مطبعة عيسى البابي الحلبي		١٩٦٤
حلقة دراسية حول عاشوراء	محمد علي مكي (عربي–فرنسي)	منشورات معهد الآداب العليا الفرنسي	بيروت	١٩٧٤
خطط الشام	محمد كرد علي		دمشق	١٩٢٥
خطط جبل عامل	محسن الامين	مطبعة الانصاف	بيروت	١٩٦١
الدروز	سليم ابو اسماعيل			١٩٥٥
دراسات عن الدروز	محمد علي مكي	كلية التربية في الجامعة اللبنانية–نشرة رقم ٢		١٩٧٤
الدرر الكامنة	ابن حجر			
دائرة المعارف الاسلامية				
ذيل تاريخ دمشق	ابن القلانسي	مطبعة الآباء اليسوعيين	بيروت	١٩٠٨

الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي		المطبعة البوليسية	حريصا	١٩٥٠
الروم	اسد رستم	دار المكشوف		١٩٥٦
رحلة ابن جبير	ابن جبير	دار صادر ودار بيروت	بيروت	١٩٦٤
روضات الجنات	الخوانساري محمد باقر		إيران	
صبح الاعشى في صناعة الانشاء	القلقشندي	وزارة الثقافة والارشاد	القاهرة	١٩٦٣
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي	السيد عبد العزيز سالم	دار المعارف		١٩٦٧
عبد الرحمن الاوزاعي	طه الولي	دار صادر	بيروت	١٩٦٨
العصر المماليكي في مصر والشام	سعيد عاشور	دار النهضة العربية		١٩٦٥
الفتح القسي في الفتح القدسي	العماد الكاتب الاصفهاني	الدار القومية للطباعة والنشر	القاهرة	١٩٦٥
فتوح الشام	الواقدي	المكتبة الاهلية	بيروت	١٩٦٦
فلاسفة الشيعة	عبد الله نعمة	دار مكتبة الحياة	بيروت	
فتوح البلدان	البلاذري	دار النشر للجامعيين	بيروت	١٩٥٧

الكامل في التاريخ	ابن الاثير	دار بيروت للنشر	بيروت	١٩٦٥
كتاب الروضتين في إخبار الدولتين	ابوشامة	المؤسسة المصرية العامة	القاهرة	١٩٦٢
كتاب السلوك لمعرفة دور الملوك	المقريزي	لجنة التأليف والترجمة والنشر	القاهرة	١٩٣٩
كتاب ذخائر الاعيان	ابراهيم الاسود	مكتبة البستان	بيروت	١٩٧٠
كتاب الاعتبار	اسامة بن منقذ	مكتبة المثنى بغداد نقلا عن نسخة برنستون		١٩٣٠
لبنان — مباحث علمية واجتماعية	اسماعيل حقي	منشورات الجامعة اللبنانية		١٩٧٠
لبنان في عهد الامير فخرالدين المعني الثاني		منشورات وزارة التربية الوطنية المطبعة الكاثوليكية	بيروت	١٩٣٦
للبحث في تاريخنا في لبنان	علي الزين		لبنان	١٩٧٣
لبنان في التاريخ	فيليب حتي	مؤسسة فرنكلين	بيروت نيويورك	١٩٥٩
لبنان في عهد الامراء الشهابيين	الامير حيدر شهاب	منشورات وزارة التربية	بيروت	١٩٣٣
اللمعات البرقية في النكت التاريخية	شمس الدين بن طولون			

مذهب الدروز والتوحيد	عبدالله النجار	دار المعارف	مصر	١٩٦٥
معجم البلدان	ياقوت الحموي		بيروت	١٩٥٦
الامويـــون والبيزنطيون	ابراهيم العدوي	الدار القوميـــة للطباعة والنشر	مصر	١٩٦٣
مع التاريخ العاملي	علي الزين		لبنان	١٩٥٤
المختصر في اخبار البشر	تاريخ ابي الفدا	دار المعرفة	بيروت	
مروج الذهب	المسعودي تحقيق شارل بلا	منشورات الجامعة اللبنانية		١٩٧٠
من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزى	دار الروائع	بيروت	
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان	ابن طولون	المؤسسة المصرية العامة	القاهرة	١٩٦٤
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب	ابن واصل	وزارة الثقافة والارشاد	القاهرة	١٩٦١
موجز عن الاسلام	الاب يواكيم مبارك	الندوة اللبنانية		١٩٧٠
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	ابن شداد تحقيق الشيال		مصر	١٩٦٤

النجوم الزاهرة	ابن تغري بردي،	دار الكتاب المصرية. وزارة الثقافة والارشاد	مصر	١٩٦٣
نهاية الارب في فنون الأدب	النويري	وزارة الثقافة والارشاد	مصر	١٩٥٤
النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى	ابرهيم طرخان	دار الكاتب العربي	القاهرة	١٩٦٨
النقط والدوائر			ريودي جانيرو البرازيل	١٩٢٠
هجرة اللبنانيين الى ايران في العهد الصفوي	محمد جعفر المهاجر	معهد الآداب الشرقية	بيروت	١٩٧٤

Histoire de l'humanité – UNESCO

Recherches historiques médiévales sur les Shi'ites du Liban de Syrie et de la Djazira. – Mohamed Hamadé, Université de Paris I 1973

Les institutions de l'empire byzantin. L. Brehier – Paris 1948

Byzance – A. Bailly – Paris – 1948

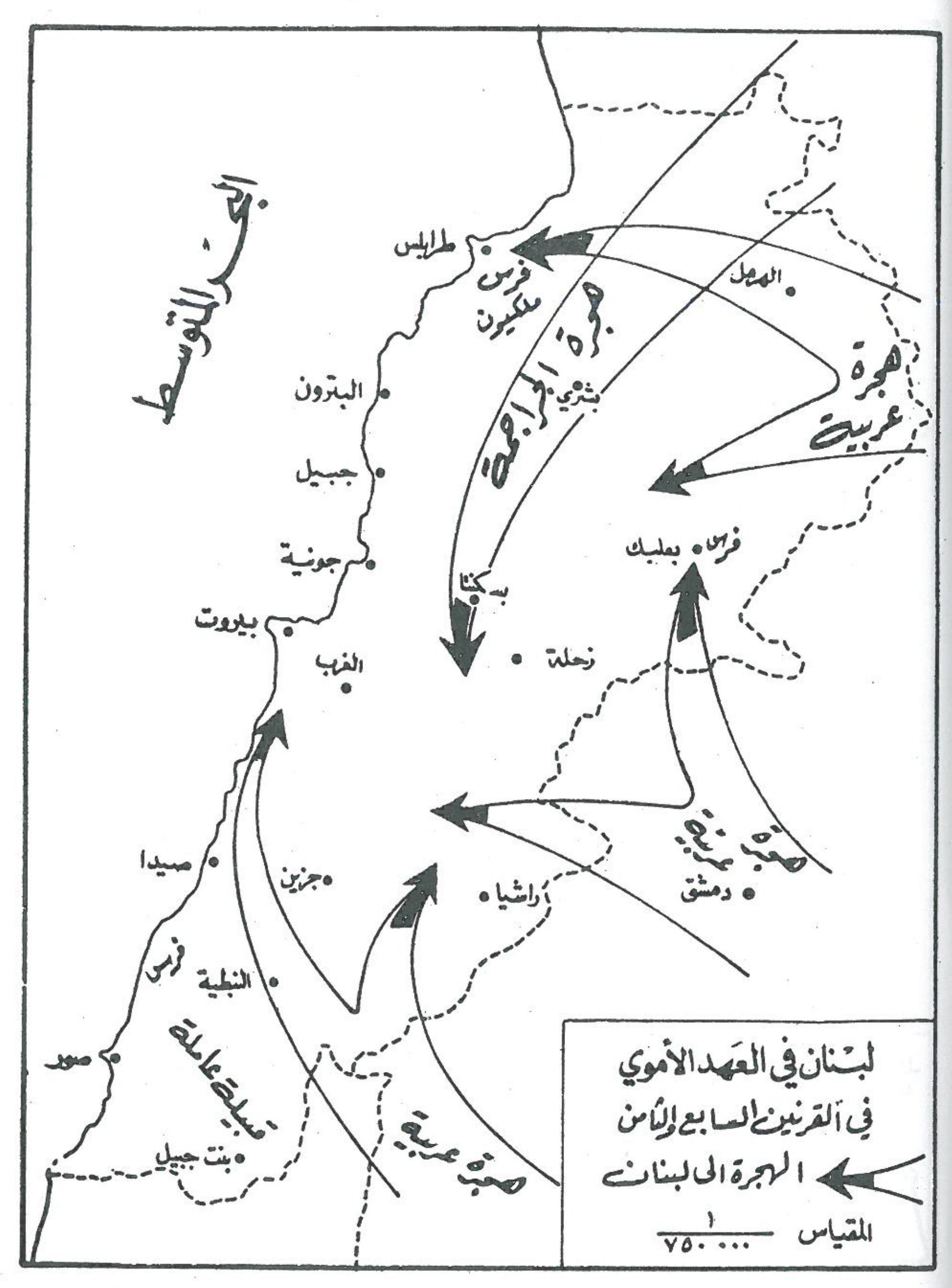
L'empire des steppes — Grousset – Paris

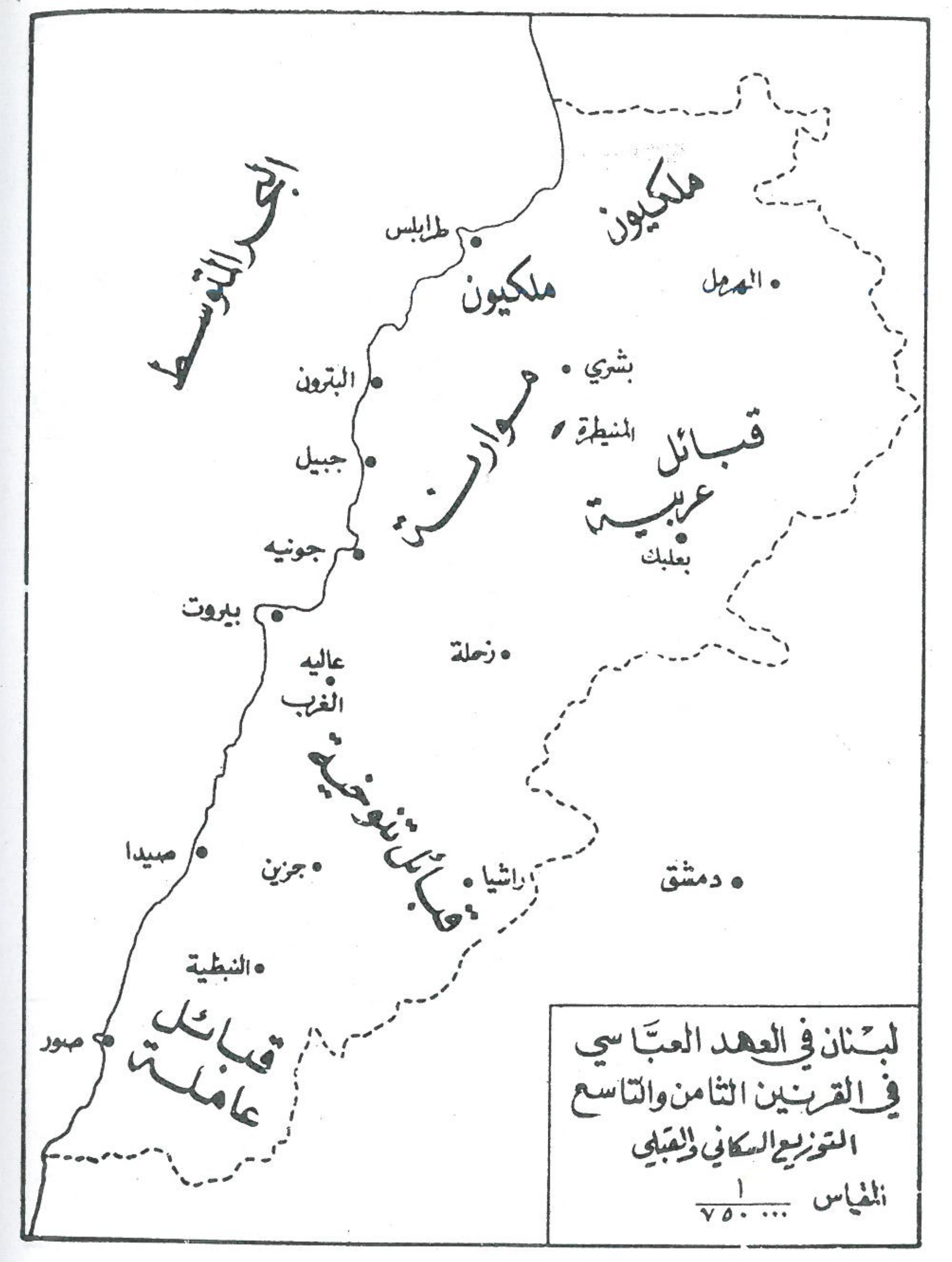
Histoire du moyen âge IX : l'Europe orientale de 1081 à 1453 par.: Diehl et Grousset — Paris 1945

Encyclopédie britannique

Encyclopédie Larousse.

فهرس الخارطات التاريخية


البحر المتوسط
طرابلس
فرس
ملكيون
هجرة الجراجمة
بشري
الهرمل
هجرة عربية
البترون
جبيل
جونية
بسكنتا
بيروت
الغرب
زحلة
فرس
بعلبك
صحبة يمنية
دمشق
صيدا
جزين
راشيا
النبطية
فرس
صور
قبيلة عاملة
بنت جبيل
صحبة عربية
لبنان في العهد الأموي
في القرنين السابع والثامن
الهجرة الى لبنان
المقياس
١
٧٥٠ ٠٠٠



توزيع المذاهب في المناطق اللبنانية
في القرن العاشر الميلادي
المقياس ١/٧٥٠٠٠٠

البحر المتوسط
سنة
ملكيون
الهرمل
شيعة
بشري
البترون
موارنة
جبيل
سنة
جونية
بعلبك
بيروت
بعبدا
سنة
زحلة
عاليه
الغرب
قرامطة
سنة
قرامطة
صيدا
راشيا
دمشق
النبطية
شيعة
سنة
صور



البحر المتوسط

طرابلس

كونتية طرابلس

الهرمل

البترون

بشري

جبيل

بارونية جبيل

نيابة بعلبك

بعلبك

جونية

بارونية بيروت

بيروت

الغرب

امارة التنوخيين

الدامور

صيدا

جزين

بارونية صيدا

راشيا

وادي التيم

دمشق

نهر الليطاني

النبطية

صور

بارونية صور

لبنان في العهد الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

المقياس ١/٧٥٠٠٠٠

التوزيع المذهبي في لبنان
في القرن الثالث عشر
في نهاية الحروب الصليبية

المقياس ١/٧٥٠٠٠٠

البحر المتوسط
طرابلس
سنّة
ملكيون
شيعة
موارنة
الهرمل
البترون
جبيل
شيعة
جونية
بعلبك
سنّة
بيروت
زحلة
عاليه
الغرب
دروز
صيدا
سنّة
جزين
راشيا
سنّة
دمشق
النبطية
صور
شيعة

التوزيع المذهبي في لبنان
في القرن الرابع عشر
بعد الحروب الكسروانية

المقياس: ١/٧٥٠٠٠٠

البحر المتوسط
اكراد
سنّة
طرابلس
الهرمل
ملكيون
موارنة
اكراد
البترون
سنّة
تركمان
سنّة تركمان
جبيل
موارنة
جونيه
بعلبك
سنّة تركمان
اكراد
بيروت
زحلة
الغرب
عاليه
دروز
بيت الدين
صيدا
اكراد
راشيا
دمشق
دروز
حاصبيا
سنّة
صور



ملاحظات حول الخارطات التاريخية الواردة في الكتاب

اولاً : لقد اعتمدت في الخارطات المذكورة حدود لبنان الحالي وفقاً للتحديد الرسمي (حدود سنة ١٩٢٠)

ثانياً : إن حدود المقاطعات اللبنانية في الخارطات هي تقريبية ، لأن تلك الحدود كانت دائماً متحركة وغير ثابتة .

ثالثاً : إن امتداد تواجد الطوائف وانتشارها في الشمال والجنوب والشرق لم يكن متناسباً مع الحدود اللبنانية الحالية ؛ بل كان يتعداها إلى خارج الحدود في سوريا وفلسطين .

رابعاً : وضعت خارطة للهجرات الكبرى إلى لبنان في القرنين السابع والثامن الميلاديين . أما هجرات القرون التالية فأشير إليها بالاسم وليس بالسهم ، للحفاظ على وضوح الخارطة.

خامساً : إن ذكر بعض المدن والقرى يهدف إلى التحديد الجغرافي وليس للأهمية ، مثل زحلة وعاليه .

سادساً : إن الخارطات الواردة في هذا الكتاب توّضح الحقبات الرئيسية من تاريخ لبنان الوسيط ولكنها لا تغطي كل المرحلة المذكورة . ونأمل في وضع أطلس تاريخي مفصل للحقبة بكاملها .

المحتوى

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *

لم يوضع هذا الكتاب لمصلحة طائفة من الطوائف أو منطقة من المناطق اللبنانية، بل توخى مؤلفه الدكتور محمد علي مكي الجانب الوطني والجانب العلمي.

إنه كتاب يجمع الحقائق من دون انتقاص منها ولا تحيُّز ولا تلوين لرأي أو مذهب، ويسد الفراغ في المكتبة التاريخية لفترة مهمة جداً من تاريخ لبنان، هي الفترة الوسيطة (٦٣٥ - ١٥١٦) التي أهملت إهمالاً مستغرباً. إذ أن هذه الفترة هي الأساس الذي لا يستغنى عنه في فهم تكوين لبنان الحالي، وأيّ إغفال لدراستها يؤدِّي الى التخبُّط في فهم تاريخ لبنان الحديث والمعاصر.

زوّدت هذه الطبعة بفهارس للأعلام والأماكن والبلدان والمدن والقرى والشعوب والقبائل والفرق والطوائف.

